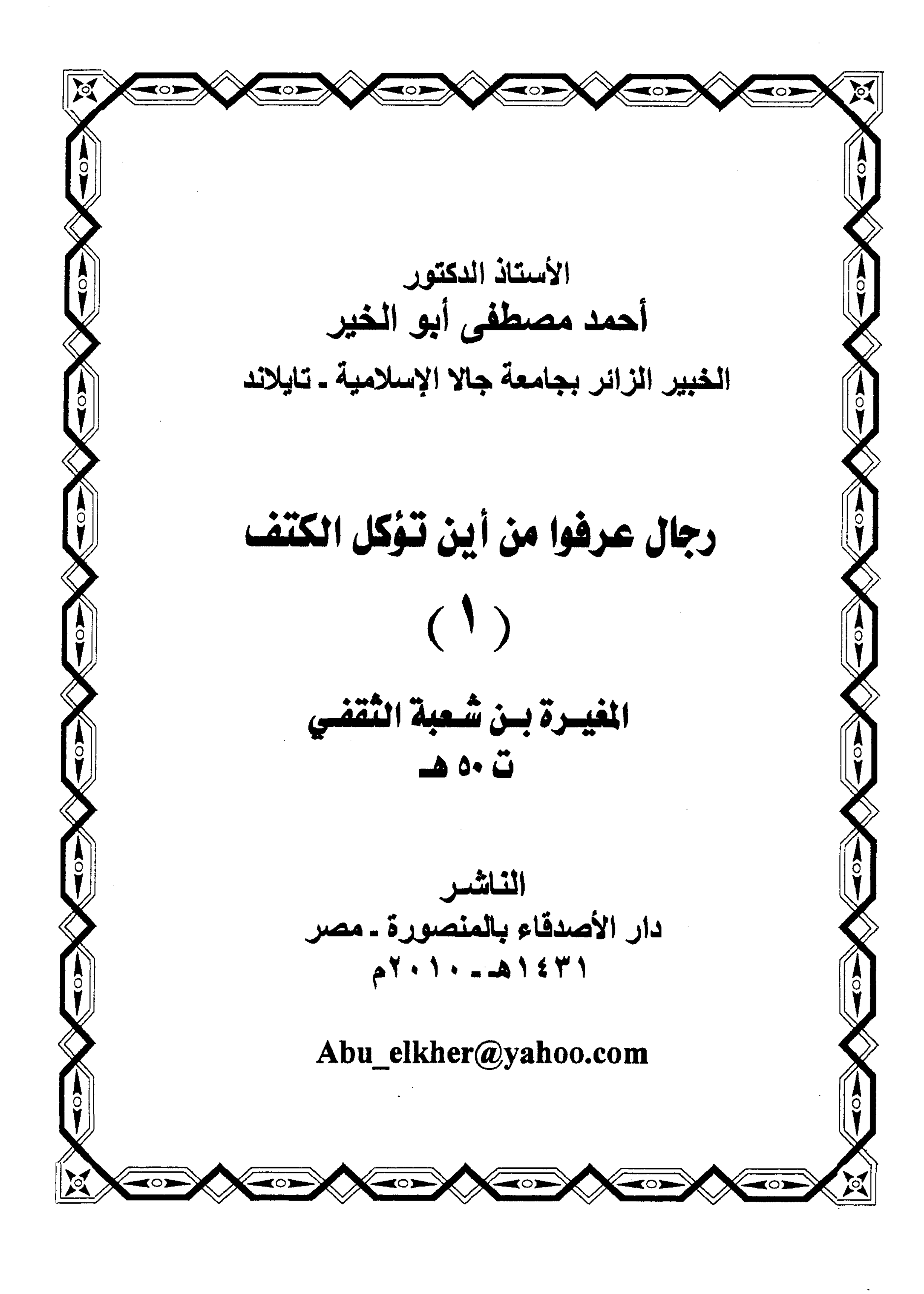


الأستاذ الدكتور

أحمد مصطفى أبو الخير

الخبير الزائر بجامعة جالا الإسلامية - تايلاند

رجال عرفوا من أين تؤكل الكتف

(١)

المغيرة بن شعبة الثقفي

ت ٥٠ هـ

الناشر

دار الأصدقاء بالمنصورة - مصر

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

Abu_elkher@yahoo.com

الإهداء

إلى صديقي العزيز الأستاذ عبد السلام غليون ، مثقف سوري ألقت به ريح طيبة إلى عروس المدن الجديدة ، على ساحل المتوسط ، فكان خير معين في كتابة ما تجود به القريحة ، بل كرّس مكتبه وإمكانيات أسرته وعصارة فكره لتقديم يد العون والمؤازرة بإخلاص إلى كاتب هذه السطور ، فجزاه الله عنا خير جزاء .

الأستاذ الدكتور
أحمد مصطفى أبو الخير
الخبير بجامعة جالا الإسلامية
تايلانـــــد
دمياط الجديدة ٢٠١٠/٥/٢٧م

مدخل إلى الموضوع

هذه الدراسة اخترنا لها عنوانا : (رجال عرفوا من أين تؤكل الكتف) بدأنا بالمغيرة بن شعبة (ت ٥٠هـ) ولعل القارئ يعجب أو يسّاءل لم ولماذا ولمه هذا العنوان ؟ وسوف أجيب وأوضح المقصود والمراد من هذا العنوان ، فأقول :

كانت جزيرة العرب حتى بدء القرن السابع الميلادي تموج بالحروب والصراعات ولتافه السبب تبدأ أو يتطاير الشر والشرر ، وتنتشر في أرجائها روائح فساد وانحراف أخلاقي تزكم الأنوف من قطع الرحم وانتشار البغي والبغاء بصور مختلفة ، وإذا حملت المرأة سفاحا فإنها تلجأ إلى إخفاء جريمتها ، تذهب مع صويحباتها المخلصات ، تحفر حفرة في الأرض ، تنزل مولودها من الزنا إلى الحفرة ، يردم عليه وعلى الجريمة بشكل لا تخرج لها رائحة إلى أن يشاء الله ، فلا تسّرب من هذي الرائحة الكريهة إلى الأسرة والقبيلة [1].

لكن نورا خرج من مكة عندما ولد محمد بن عبد الله (ﷺ) عام الفيل ٥٧٠م ، وبعد بلاغه سن الأربعين عام ٦١٠م كلف هذا الرجل بالرسالة.

استطاع هذا الرسول إلى قومه أولا ثم إلى العالمين أن يحدث أكبر تحول في تاريخ جزيرة العرب وفي العالم كله ، وتغيرت تلكم الجزيرة والعالم سريعا سريعا

---

(١) أثبت الباحث السعودي مرزوق بن تنباك في كتابه الوأد عند العرب ... أن الوأد لم يك عادة رجال العرب في وأد البنات خوف العار أو الفقر ، إنما كان هذا دأب الزواني من النساء لإخفاء جريمتهن ، ولم تلجأ هؤلاء النسوة إلى ما تفعله بعض النساء الآن من إلقاء طفل الجريمة أمام مسجد أو مكان لأن العرب كانوا مهرة جدا في علم القيافة ، حيث كان من السهولة جدا بمكان نسب الطفل إلى أبيه وأمه وأسرته كما هو المعروف المشهور عن بني يعرب ، أما قوله تعالى: (وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ ، بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ؟!) فالمقصود هنا بالموءودة النفس البريئة التي قتلت ظلما وهي لا تعرف لماذا قتلت ؟ كما هو الحاصل الآن في العراق وأفغانستان والصومال ولا يعرفون لماذا قتلوا ؟ بل القتلة لا يعرفون لماذا قتلوا ؟

وخلال مدة وجيزة في عمر الأمم والشعوب ، خلال خمسين سنة أو تزيد قليلا من هجرة المصطفى (ﷺ).

هذا التغير ، وتلكم الأحداث التي غيرت وجه العالم كان وراءها مجموعة من الرجال ، على رأسهم الرسول الأعظم (ﷺ) ثم خلفاؤه من بعده ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن بن علي (ﷺ) أجمعين أجمعين ، ثم مجموعة أخرى من الشخصيات والرجالات ، منهم معاوية بن أبي سفيان ، مروان بن الحكم ، المغيرة ابن شعبة ، عمرو بن العاص ، زياد بن أبيه ،عبيد الله بن زياد ، عمر بن سعد بن أبي وقاص.

هذه بعض الأسماء التي تمكنت من صنع الحدث ونسجه أو من توجيهه وصياغته إلى حيث تريد وتهوى وترغب ، فكيف كان ذلك وكيف تمكنوا من الوصول إلى غاياتهم وأهدافهم ؟ أستطيع أحدد وسائل هؤلاء الرجال إلى أهدافهم بما يلي :

- تحديد الهدف.
- الإصرار على تحقيق الهدف.
- الاقتراب من مركز القرار وإدارة الدولة.
- الإقامة في عاصمة الدولة ، أو بالقرب من مجرى الأحداث.
- الانخراط في العمل الذي تنشط إليه الدولة لكسب المواقف والنقاط.
- السعي إلى الإدارة والإمارة والولاية.
- البعد عن الأخطار والحروب.

نبدأ بسيد الخلق (ﷺ) لقد حدد هدفه بوضوح شديد ، ثم وضع خلفه كل الإصرار على تحقيقه ، وقفت قريش ضده بقدها وقديدها ، آذته وعذبت أصحابه بشتى صنوف الإذايات والعذابات ، لكنه أصر وأصر وأصر.

وعندما أعيتهم الحيل، حاولوا رشوة النبي الأكرم- بأكبر رشوة في التاريخ- كيف بالله عليك ؟ قال القرشيون :

- فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا.
- وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا ، فنحن نسودك علينا.
- وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا.
- وإن كان هذا الذي يأتيك رَئيا تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذِر فيك.

فماذا كان رد محمد (ﷺ) على زعامات القوم وعروضهم ؟ لقد حدد هدفه بوضوح شديد ، وهو بالتوكيد ليس المال ولا الشرف ولا الملك ، إذن ترى ما الهدف وما الوجهة والمقصد ؟ يقول سيد الخلق :

(ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل عليّ كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به ، فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم).

ولكن الزعامة القرشية لم تيأس ولم تستسلم ، ذهبوا لعمه أبي طالب عله يستطيع إثناء ابن أخيه عن طريقه ، وهكذا يقول العم : (يا ابن أخي : أبقي عليّ وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق).

ويرد ابن أخيه بكليمات خالدات باقيات ، هن : (يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته).

كمية من جبال الإصرار الصم ما تركت لأحد بعده شيئا من الإصرار ، هذا الإصرار لم يسبق ولم يلحق ، لم يتقدم ولم يتأخر.

وعندما جاء خليفته الأول أبو بكر (ﷺ) وضع نصب عينيه هدفه الرئيس المحوري أن يكمل مسيرة الرسول الأعظم (ﷺ) وأن يسير على نهجه ناسجا على منواله.

وعندما استخلف عمر (ﷺ) كان هدفه المحوري والرئيس حمل الناس على الحق والصواب - من وجهة نظره - حتى استشهد في محراب حبيبه (ﷺ).

عثمان (ﷺ) رأى أن عمر قد اشتد على الناس بما فيه الكفاية ، وذهب في شدته إلى نهاية الحد وغاية الشوط ، فاتجه نحو (بحبحة) حزام الشدة على الناس وتخفيفه ، لذا سعد به الناس في أول خلافته حتى انتصافها حتى قيل : كان أحب إليهم من أبي بكر وعمر ، وفي النهاية حدث ما حدث ، وقتل (ﷺ) مظلوما مقهورا.

ومن جانب آخر ، ومن ناحية أخرى وضع عمرو بن العاص - مثلا - هدفا رئيسا في حياته هو إمارة مصر ، خاصة بعد أن عزله عثمان عنها ، كما سيأتي في الدراسة.

معاوية بن أبي سفيان وضع نصب العين والعقل هدفه المحدد (الملك) حتى استقرت له الأمور ، عندما سلم الإمام الحسن بن علي الأمر عام ٤١ هـ.

المغيرة بن شعبة (ت ٥٠هـ) كانت الإمارة هدفه الرئيس ، سعى إلى عمر (ﷺ) حتى ولاة البصرة ، ثم عزله عنها بعد اتهامه بالزنا ، ثم ولاه الكوفة ، وعندما جاء عثمان (ﷺ) عزله عنها.

وعندما استقر معاوية في الحكم سعى إليه المغيرة حتى ولاه الكوفة ، وبقي عليها حتى مات عام ٥٠ هـ.

معظم هذه الشخصيات صدرت عنها دراسات وبحوث كثيرة بتوجهات شتى ورؤى مختلفات متعارضات فلكل وجهة هو موليها ، وخريطة عليها يسير ، وبها يستضيء ويستنير.

أما المغيرة بن شعبة فإنه يبدو - في نظر بعض الباحثين - شخصية غامضة بحاجة ماسة إلى تجلية هذا الغموض ، وهو ما طالب عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧١) منذ عشرات السنوات.

وهو ما تحاوله هذه الدراسة التي رأينا أنها ضرورية ، برغم أن أحدا لم يبادر إليها - إلى الآن - مع شدة الحاجة إليها .

هذه الدراسة قد جمعت من المعلومات والروايات حول هذه الشخصية الغامضة ما يكفي لتقديم صورة متكاملة وافية عن شخصية المغيرة وهدفه الذي عمل عليه ، وتمكن في النهاية من تحقيقه ، حتى مات عليه ، كما مات عليه عمرو ابن العاص (ت ٤٣ هـ - ٦٦٣م).

الغرض من هذا الكتاب ليس المدح أو القدح ، فضلا عن الهجوم على المغيرة ، ولا الدفاع عنه ، أو الإدانة أو التمجيد ، إنما نحاول رسم صورة لرجل تمكن في أوقات كثيرة من صنع الحدث أو توجيهه ، نسجه أو صياغته،أو إعادة صياغته .

مثال حي ناطق على الإنسان يرسم الطريق لنفسه كي يصل إلى هدفه حتى يموت عليه.

نقول هذا مقرين معترفين بتباين الأهداف والوسائل والغايات حيث يبدو بعض ما سبق منطقيا نظيفا ، يتفق مع الخلق القويم وصحيح النهج والدين ، ويبدو بعضها منافيا لكل ما سبق ، حيث السعي للدنيا بأي ثمن ، وبأية وسيلة ، ومن أي طريق.

وكان من الفريق الأول محمد (ﷺ) سيد ولد آدم ولا فخر ، ثم خلفاؤه الراشدون من بعده ، من أبي بكر حتى الحسن بن علي ، تلك فترة الخلافة الراشدة التي بدأت عام ١١ هـ وانتهت ٤١ هـ ، وهي كما ذكر سيد الخلق ، الخلافة ثلاثون عاما ، ثم بعد ذلك يكون الملك ، فكان كما قال (ﷺ).

ولكن ـ يا رعاك الله ـ لبعض الناس ملاحظات على بعض الراشدين ، على بعضهم ، أو عليهم كلهم ؟ مثل ماذا يا طويل العمر ؟ مثل تولية المغيرة للبصرة ثم الكوفة ، ثم جلد شهود الزنا عليه.

وبرغم أن الدراسة ستحاول تفصيل كل ما أبداه المبدون من اعتراضات على هذا الخليفة أو ذاك ، نحاول مناقشة هذي الاعتراضات ، ومحاولة تحليلها ، لا محاولة تفنيدها أو إثباتها وتثبيتها ، فقط مناقشاتها وتحليلها وإلقاء الأضواء عليها وتجلية جوانبها ودقائقها وتفاصيلها.

ولكن في تيكم المقدمة نكتفي بجوهرة من جواهر أمير المؤمنين (عليه السلام) فيها الحكمة وفصل الخطاب ونهج البلاغة والفصاحة ، مما اقتبسه من أخيه وابن عمه (ﷺ) إنها قولة حكيمة : (ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه).

فهل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما برأ المغيرة بن شعبة من جريمة الزنا وأقام حد القذف على الشهود الثلاثة كان طالبا للحق فأخطأه ، أم كان طالبا للباطل

وقد أصابه ؟ نميل إلى الأول ، أي اجتهد ... فله أجر على اجتهاده ، وكذلكم الحال في تولية المغيرة وغيره ، اجتهد وطلب الحق والصح ، نعوذ بالله ونبرأ أن يكون غير ناصح أمين للأمة وصالحها وحملها على الجادة.

ولكن السؤال : استمرت الخلافة ٣٠ عاما فقط ، مدة قصيرة ؟ بلا شك هي قصيرة ، فكيف تحولت الخلافة إلى ملك ؟ لقد كان هذا على يد مجموعة من الرجالات منهم معاوية وعمرو والمغيرة ... الخ هؤلاء الرجالات كتب عنهم الكثير والكثير ، صحيح أن الطريق مفتوح لمزيد من الدراسات الموضوعية غير المجاملة أو المتحاملة ، لا على هذا الرجل أو ذاك ، ولا مع هذه الشخصية أو عليها.

بل إن شخصية المغيرة يكتنف كثير من جوانبها الغموض والضبابية ، فيها كثير من الأدوار المجهولة المموهة تمويها محكما ، مثل مقتل عمر (ﷺ) هل كان لهذا الرجل - المغيرة - دور في هذه الطامة الكبرى والمأساة المزلزلة ؟ مسألة بحاجة إلى دراسة وتحليل.

وهذا مثال لما تحاوله الدراسة مؤكدين مرة أخرى ، ثالثة ورابعة ... إلى أبعد مدى ، إننا لا نحاول لا توريط الرجل ولا إلباسه لباس الاتهام ، أو بدلة الإثبات.

صحيح أن بعض الناس لديه تصور وخريطة مع الرجل ، فهو منافح مجاحش مدافع قوي شرس عن كل صغيرة وكبيرة تمس هذا الرجل أو غيره ، من قريب ، أو بعيد.

وعلى الجانب الآخر ، هناك على الخط المقابل شطط كبير وتحرش ، بحيث يُرفض الرجل ، يهاجم بشراسة ، لا يقبل له رأي أو رؤى أو رواية ، حيث ترى

الناس انقسموا إلى مؤيد قوي، أو معترض بشدة ، وهما على طرفي نقيض مثل هذا الخط.

مؤيد ⟵———⟶ معترض

شعار هذه الدراسة : (لا إلى هؤلاء المؤيدين تأييدا أعمى ، ولا إلى المعترضين على طول الخط) إنما بحث وتمحيص وتدقيق في كل ما روي عن المغيرة لإعطاء الرجل حقه ، إن كان له حق.

فالحق يقول : (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى [1]) بل ربما لا يكون في القلب شيء من الشنآن على الرجل ، أو أننا نجد عليه في شيء ، وإن كان في القلب من هذا مثقال ذرة فإنا نرجئ هذا إلى يوم التغابن ، يوم يقوم الناس لرب العامين ، يوم يجعل الولدان والأجنة في بطون الأمهات شيبا.

إذن تحول الخلافة إلى ملك خلال ٣٠ عاما كان وراءه مجموعة من الرجالات سميناهمو ـ في رأينا كما سبق ـ أو سمينا بعضهم ، أما صاحب الفضل الأول في تحول الجزيرة العربية ثم العالم من حال سبق إلى حال حضر فهو سيد العرب والعجم ، سيد الأولين والآخرين ، سيد ولد آدم ولا فخر ، إذ هو ـ صلى الله عليه وآله ـ خيار من خيار من خيار ، اصطفاء من اصطفاء من اصطفاء ، أو اصطفاء في اصطفاء في اصطفاء.

---

(١) المائدة ، آية ٨.

لماذا ؟ هو صاحب مقولة : (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته).

هذا الإصرار على الهدف هو الذي أدى إلى وصول هذا الدين إلينا ، ولولا هذا الرجل الذي وصف نفسه بأنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في مكة ، فأسعدنا بهذا ، بل ربما هلكنا مع الهالكين لولا هذا الرجل ، إذن له الفضل علينا جميعا - نحن المسلمين - فقد أصبحنا بفضله مسلمين موحدين ، بل جئنا من أرحام نساء مسلمات مؤمنات ، ومن أصلاب رجال مسلمين موحدين ، فالفضل إليه يعود ، على أمته جميعا.

وبسبب المقام الرفيع الأرفع والمكان السامق الأسمق في قلوب الأمة فإن أي إنسان رآه ، عاش في زمانه ، تنفس من ذات الهواء الذي تنفسه (ﷺ) شم ريحه أو عرقه ، فضلا عمن أسلم على يديه وصاحبه ، استمع إلى رحيق حديثه العبق وجوامع كلمة ، صلى خلفه وجاهد معه ، كل من نال صنوف الشرف السابقات ، أو حظي من هذي الصنوف بشيء ولو قليل قليل ، كل واحد من هؤلاء له التوقير والاحترام والتبجيل ، هو على العين والراس - بدون همزة - كرامته مصانة ، لا تمس بشائبة على الإطلاق.

ونخص بالذكر من الأصناف السابقات من آمن به ، صلى خلفه ، جاهد معه هؤلاء لهم القدح المعلى من الاحترام والتوقير والتبجيل ... الخ.

صحبة سيد الأولين والآخرين شرف ما بعده شرف ، لكن هذه الصحبة لا تكسب عصمة ولا حصانة ، فإذا حدث من أحد شيء حوسب عليه وعوقب ، وربما أقيم عليه الحد ، وعندما سرقت المرأة المخزومية وكلموا سيد الخلق (ﷺ) في العفو

عنها ، كانت كلمته المدوية عبر الزمان : (والذي نفسي بيده لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها).

وفاطمة ـ سلام الله عليها ـ ليس ابنة سيد العرب والعجم فقط ، بل هي بضعة منه ، قطعة منه ، من أرضاها فقد أرضى أباها ، ومن أسخطها فقد أسخط أباها ، وبرغم هذا فإنها لو سرقت لقطع أباها يدها ، هذي إشارة من سيد الخلق إلى أنه لا مجاملة في الحق أو الحد ، إنما الكل أمام الحق سواء.

ولكن ـ يا عافاك ـ من نبأك بهذا ، من أين جئت به ـ يا رحمك الله ؟ جئت به من هذا الحديث وسبب وروده ، كيف ؟ اسمع يا من تحب أن تسمع ، واقرأ يا من تحب أن تقرأ :

نظر سيد الخلق (ﷺ) إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال : يا ملك الموت : ارفق بصاحبي فإنه مؤمن ، فقال ملك الموت : طب نفسا ، وقر عينا ، واعلم أني بكل مؤمن [1] رفيق.

انظر ـ يا عافاك الله ـ لقد قال السيد المطاع (ﷺ) ارفق بصاحبي لأنه مؤمن... لم يقل : ارفق به فإنه صاحبي ، أو فإنه أنصاري ، أو... ، أو... إنما قال فإنه مؤمن ، ولو كان مجرد الصحبة تعطي حصانة أو عصمة لقال (ﷺ) فإنه صاحبي ، وهكذا .

ولكن ، ولكن ؟ ولكن آه من لكن ، انظر ـ يا قارئي الحصيف ـ لقد جاء في الكتاب الكريم : (لا يَسْتَوِي مِنكُم) أي من الصحابة (مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ) فتح مكة

---

(١) معنى هذا أن كل من رفق به ملك الموت هو مؤمن حقا ، وكل من حرم من هذا الرفق هو غير مؤمن ؟ هذا ما نستنتجه من صريح تصريح ملك الموت ووعده لسيد الخلق (ﷺ) وأرى القارئ لهذا يوافق على الرأي هذا ، والله عاصم من كل شطط وبعد عن الحق والصواب.

(وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [1].

معنى هذا أنه ليس من قاتل مع محمد (ﷺ) كمن قاتله وعانده ووقف له بالمرصاد ، وكذلك لا يستوي من قاد الحرب والصلف ضد محمد وصحبه كمن عوفي من هذا ، فكان سائرا مسيرا تابعا لقومه فقط ، دون أن يتصدر الحرب ضد النبي وحزبه مثل أبي جهل وأبي لهب وعقبة بن أبي معيط ... الخ.

ومع هذا وبالرغم من هذا فإن من آمن بعد هذا كله فإن الإسلام يجب ويقطع ما قبله ، لكن ؟ لكن ماذا يا صاحب لكن ، لكن انظر إلى هذه الكليمة لسيد ولد آدم إجابة على سؤال محدد من أصحابه : (يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟) هذه الكليمة التي أجاب بها (ﷺ) : (من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أوخذ بالأول والآخر) أي من أحسن عمله بعد إسلامه لم يحاسب على عمله قبل إسلامه وفي جاهليته ، لكن الذي أساء بعد الإسلام ولم يحسن حوسب وجوزي وأوخذ على عمله في الجاهلية وفي الإسلام أيضا ، أي لكأن الإسلام هنا ظاهري باللسان ، دون أن يتسرب الإسلام إلى القلب والجنان.

على أي الأحوال فإن الإيمان يعلمه علام القلوب ، الذي يعلم السر وأخفى ، فالإيمان موكول إليه ، أما نحن البشر فلنا ظاهر القول وجلي العمل ، لا نفتش في الضمائر ، ولا نشق عن القلوب والخفايا ، وهذا ما تحاوله هذه الدراسة ، إنها لا تبحث عن كفر وإيمان ، نثبت هذا لهذا أو ننفي هذا عن هذا ، أو حتى ننفي الإسلام عن ذياك الرجيل أو نتحف به ذوياك الرجيل ، كلا وألف كلا ، نحن نذكر الأقوال والروايات ، نضعها إلى جانب بعضها ، ثم نحلل ونناقش لنصل إلى رأي وتصور ،

(١) الحديد ، آية ١٠.

ربما يكون مخالفا أو متفقا مع تصورات بعض القراء وخرائطهم عن الموضوع أو الشخصية .

ومن حق القارئ أن يرفض أو يقبل استنتاجاتي ونتائجي ، هذا حقه تماما ، لكن بعد أن يقرأ كل ما كتبت ، ومن ناحية أخري فإن ما أنقله من روايات وأقوال وحكايا إنما هي قابلة للنقد والرد والنقض ، شرط أن يكون كل شيء بالبراهين والأدلة ، نرفع في وجه هؤلاء وهؤلاء الآية الكريمة (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) [1] فنحن مع الدليل نميل حيث نميل ، يتوجه ويتجه.

ولكن يا صاحب القلم الفصيح والمنطق المستقيم أترى أن نقد بعض الصحابة أو تقديم ملاحظة عن هذا الصحابي أو ذاك ـ خاصة من أسلم بعد الفتح ولم يحارب مع سيد العرب والعجم ـ ألا يدخل هذا في سب الصحابة أو لعنهم ، كما حدث وتوعد الصادق المصدوق (ﷺ) ؟ كلا ، مطلقا ، مطلقا.

انظر : إذا أنا انتقدت أبي أو رئيسي في العمل أو رئيس البلد أأكون عاقا لأبي أو متحديا لرئيسي أو خائنا لبلدي ؟ كلا ، خاصة عندما يتم هذا في إطار الأدب والتوقير وابتغاء صالح الأسرة أو العمل أو الوطن ، وفي حدود الموضوعية والاتزان والتوازن.

قال سيد الخلق (ﷺ) :

لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نَيصفه [2].

---

(١) البقرة ، آية ١١١.
(٢) مسلم ٩٧/٢.

وسبب ورود الحديث أنه كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد ، لاحظ أن لفظ السب صريح في قول المصطفى (ﷺ) ليس شيء آخر، أو أقل من السب أو بعيدا عنه.

وإذا كان في هذا الحديث نهي لمتأخري الصحابة في الزمن ، نهى عن سب من تقدمهم في الإسلام والهجرة- أو النصرة -والجهاد ، فإنه يستلزم من باب أولي التشديد على نهي غير الصحابة عن سب الصحابة (ﷺ) لأن سبهم حرام ، بل من محرمات الفواحش.

أما الحديث عنهم ومناقشة ما فعلوا وما قالوا وتحليل شيء مما سبق فليس من قبيل السب ولا يمت إليه بصلة مطلقا.

وهو ليس نبشا في ماض انتهى ، بل محاولة لفهمه والإفادة منه في حياة الأمة وفي حياة الناس أيضا ، وإذا كان الله قد حظر سب الكفار فهل يسمح أحد لنفسه أن يسب الصحب الكريم ؟ كلا وألف كلا .

(وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ) [1]
وتسبوا هنا تناولوا غيركم بالشتم الوجيع المؤلم للنفس ، معاذ الله أن نقع في هذا ، معاذ الله أن نقع في هذا.

ومن حقنا أيضا أن نوكد أن هذي السطور التي نسطرها هي دوما ابتغاء وجه الكريم ، لا عصا ولا جزرة ، لا رغب ولا رهب ، لا تملق لأحد ، ولا تحديا لغيره ، لا محاباة لأحد ، لا مجاملا لإنسان ومتحاملا على آخر.

---

(١) الأنعام ، آية ١٠٨.

ومن حملني على غير قصدي ونبتي وطويتي ، سواء عن غفلة وجهالة ، أو عن سوء قصد وطوية وفساد نية فالله حسيبه وكافيه ، نشهر في وجهيهما تيك الآية الكريمة : (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) [1] صدق الله العظيم ، وليس بعد قول الله قول ، وليس بعد صدقه صدق.

الأستاذ الدكتور
أحمد مصطفى أبو الخير
الخبير بجامعة جالا الإسلامية
تايلانـــد
دمياط الجديدة ٢٠١٠/٥/٢٧م

(١) الأعراف ، آية ٨٩.

بطاقة تعريف

بعدما تحدثنا عن مدخل لكتابنا - أو مدخل كتابنا - عن المغيرة بن شعبة نستفتح الحديث عنه ببطاقة تعريف للرجل ، حيث نسأله أولا عن اسمه ، واسم أمه وأبيه ؟ ليجيب بقوله :

الاسم : المغيرة بن شعبة .. وينتهي النسب إلى (قَسِي) أي ثقيف ، إذن هو ثقفي ، عاش مع قومه ثقيف ونشأ في قرية الطائف !! حسبك يا كاتب السطور من أين لك أن تسميها بالقرية ؟ من الكتاب الكريم يا قارئ السطور ، أين - رحمك الله - ؟ ذاك في قوله تعالى " (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) [1].

لكن يا كاتب السطور لعل القرآن الكريم يستخدم (مصطلح) قرية فقط ؟ كلا ، فقد ذكر في الكتاب : (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ) [2] فسمى طيبة المصرية التي عاش فيها نبي الله يوسف قبل الميلاد بحوالي ألف ومائتي سنة قبل الميلاد ، أو حوالي ألفي سنة قبل نزول القرآن الكريم على قلب النبي الكريم ، ليس على رجل من القريتين - مكة والطائف - من عظمائهما.

هذا عن اسم الأب ونسبه يا مغيرة ، فماذا عن الأم ؟ إنها : أسماء بنت الأفقم ابن أبي عمرو ... ينتهي نسبها ونسب آبائها وأجدادها إلى بكر بن هوازن.

اشتهر المغيرة بثلاثة أشياء لازمته طوال حياته ، هن :

- الدهاء.

---

(١) ٣١ ، الزخرف.
(٢) ٣٠ ، يوسف.

- العور.
- رحلته إلى مصر.

نبدأ الآن بالصفة الثانية - العور - ثم نثبت ما وجدناه من صفاته الجسمية ، ثم نسهب الحديث عن غيرها من الصفات وعن دوره في الأحداث منذ عاد من رحلته إلى مصر العامرة ، ثم إسلامه وما كان منه في العصور المختلفة ، بدءا من عصر النبوة مرورا بعصر أبي بكر وعمر وعثمان (ﷺ) أجمعين ثم عصر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ثم ابنه الحسن (ﷺ) وأرضاهم.

العور : وذكر في سبب هذا عدة روايات ، منها رواية أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) التي قالت : "كسفت الشمس على عهد الرسول (ﷺ) فقام المغيرة ابن شعبة ينظر إليها ، فذهبت عينه".

وهذا شيء منطقي ، حيث نجد تحذيرات الأطباء من النظر إلى الشمس ساعة الكسوف ، لأنها تؤذي العين ، بل يمكن أن تودي بها ، كما حدث للمغيرة.

لكن ما شان الروايات الأخر ، وماذا تقول ؟ إن الروايات الأخرى تشير إلى أن عينه ذهبت في معارك القادسية - أو غيرها - لكني أرجح أن عينه ذهبت في كسوف الطائف ، وذهب نورها بسبب النظر إلى الشمس القاسية ، ثم فقئت في معارك القادسية ، إذ تذكر بعض الروايات حوارا بين المغيرة وبين أحد القادة الكبار في الجانب المعادي الذي قال للمغيرة : (وأنت تفقأ عينك غدا) ففقئت عينه بسهم.

ليس المغيرة وحده الذي فقئت عينه بسهم في إحدى معارك القادسية حيث وقع المسلمون في كمين من السهام المعادية حتى سمي هذا اليوم بيوم العور ، وعليه فالرأي أن المغيرة أصيبت عينه في كسوف الشمس ، ثم فقئت عينه في يوم

العور ، إحدى أيام القادسية.

وبعد العور نثبت للرجل عدة صفات في رسمه وشكله وجسمه ، فمما وجدناه في هذه الروايات أنه كان :

- أصهب الشعر جدا ، والأصهب : ذو اللون الأصفر الضارب إلى شيء من الحمرة والبياض.
- يفرق رأسه فروقا أربعة ، إذ كان له ٤ ضفائر.
- أقلص الشفتين (1).
- ضخم الهامة.
- عبل الذراعين.
- بعيد ما بين المنكبين.
- طويلا مهيبا.

وعندما ابيض شعره في أخريات عمره فوجئ الناس به ، وقد خضب بالسواد ، صبغ شعره الذي ابيض وشاب بالسواد ، فكان أول من خضب بالسواد ، لا الحناء ، كما كانت عادة العرب ، وعادة بعض المسلمين الآن.

هذي أبرز صفات الرجل الجسمية ، والتي نقلناها من مختلف الروايات التي كتبت عن الرجل.

نبدأ برحلته إلى مصر ثم نثني بالحديث عن دهائه وعن دهاة العرب ومتى عرف الرجل بالدهاء ، كما يروي هو عن نفسه ، فنقول :

---

(1) قلص الشفة : شمرت وارتفعت.

رحلة المغيرة إلى مصر

من الأشياء المهمة التي ميزت الرجل في العرب ، وربما في العجم أيضا ، هو رحلته إلى مصرنا ، وبالتحديد لقاء المقوقس عظيم مصر في ثغر الإسكندرية هذه الرحلة وما كان فيها بسط في مختلف المراجع والمصادر ، نحاول تقديمه إلى القارئ ، كما يلي :

وقبل يروي المغيرة بنفسه ما كان منه في رحلته الدامية إلى مصر ، أو إلى الإسكندرية على وجه التحديد ، تجدر الإشارة إلى أن مصرنا لم تك بلدا غريبا على العرب قبل الفتح ، كان تجار قريش - وغيرهم - يأتون إليها حاملين بضائع الشرق من اللبان والبخور والتوابل والفضة والحرير ، فيبيعون بضائعهم هذه ، ويشترون بدلا عنها - من مصر - الثياب الغالية ، التي كانت تعرف بالقباطي ، إضافة إلى المشغولات والزجاج وأنواع الغذاء المختلفة ، خاصة الذرة والقمح.

ويذكر أن هاشم بن مناف جدا النبي (ﷺ) مات على أبواب مصر - في غزة - متجها إلى مصرنا العزيزة.

على أي الأحوال : لم تك رحلة المغيرة الدامية إلى بلدنا هي الأولى - قبل إسلامه - إذ يذكر أن المغيرة دخلها كثيرا قبل هذي الرحلة المشئومة الغادرة.

والآن إلى رواية المغيرة نفسه لهذي الرحلة إلى مقوقس مصر في الإسكندرية :

يقول المغيرة : كنا قوما من العرب متمسكين بديننا ، ونحن - أي في الطائف - سدنة اللات [1] فأراني لو رأيت قومنا قد أسلموا ما تبعتهم ، فأجمع نفر من

---

(١) الصنم الذي كانت تعبده ثقيف في الجاهلية.

بني مالك من ثقيف الوفود على المقوقس ، معدين له الهدايا ، فأجمعت على الخروج معهم ، ويبدو أن المغيرة لم يعد شيئا من الهدايا قبل الوفود على مقوس مصر.

أجمع المغيرة على الخروج معهم ، استشار عمه عروة بن مسعود ، فنهاه قائلا له : (ليس معك من بني أبيك أحد) فأبيت إلا الخروج ، فخرجت معهم ، وليس معهم من الأحلاف غيري حتى دخلنا الإسكندرية ، فإذا المقوقس في مجلس يطل على البحر ، أي البحر الأبيض المتوسط [1] ، فركبت زورقا حتى حاذيت مجلسه ، فأنكرني ، وأمر من يسألني ؟ فأخبرته بأمرنا وقدومنا ، فأمر أن ننزل في الكنيسة ، وأجرى علينا ضيافة.

وهذا كرم منك يا مقوقس مصر ، ولكن ثم ماذا يا مغيرة ؟ ثم أدخلنا عليه ، فنظر إلى رأس بني مالك - زعيمهم - فأدناه ، وأجلسه معه ، هذا شيء منطقي يا مغيرة ، فكبير بني مالك الثلاثة عشر لابد أن يحتفي به ، وبهذه الصورة.

يستمر المغيرة في سرده فيقول : ثم سأل رأس بني مالك : أكلكم من بني مالك ؟ قال الزعيم : نعم ، رجل واحد من الأحلاف ، فعرفه بي ، فكنت أهون القوم عليه.

ووضعوا هداياهم بين يديه فسر بها ، وأمر بقبضها ، وأمر لهم بجوائز ، وفضل بعضهم على بعض ، ويبدو كان هذا بسبب تفاوت الهدايا وقيمتها وتقديرها من جانب المقوقس ، وقصر بالمغيرة ، ربما لأنه لم يقدم شيئا من الهدايا على الإطلاق ، لكنه أعطاه شيئا قليلا لا ذكر له ، على حد تعبير ابن شعبة.

---

(١) حيث بحر آخر اسم البحر الأبيض ، يقع شمال غرب روسيا الاتحادية.

ويخرج الجميع من ضيافة المقوس ، أقبلوا يشترون الهدايا والتحف لأهاليهم ، وهم مسرورون فرحون ، ولم يعرضوا على المغيرة شيئا مما أعطوا مواساة له ، وجبرا لخاطره.

خرج بنو مالك ، حملوا معهم الخمور ، فكانوا يشربون ، ويشرب معهم المغيرة ، لكن نفسه تأبى أن تدعهم ينصرفون إلى الطائف بما أصابوا ، وبما حباهم ملك مصر ، فلسوف يخبرون القوم في ثقيف بتقصير المقوقس وازدرائه للمغيرة.

لذ أجمع عازما على قتلهم جميعا وأخذ أموالهم ، فلما كنا بـ (بساق) - بأرض مصر - تمارضت ، وعصبت رأسي ، فقالوا : مالك ؟ قلت : أصدع ، فتركوا شرابهم ، ودعوني للشراب ، فقلت : رأسي يصدع ، ولكني أجلس فأسقيكم ، فلم ينكروا شيئا ولم يتوجسوا من شيء ، فجعلت أسقيهم وأشرب القدح بعد القدح ، أي يتظاهر بالشراب ، لكنه لا يشرب كثيرا مثلهم.

فلما دبت الكاس فيهم ، اشتهوا الشراب ، فجعلت أصرف لهم وأنزع الكاس ، فيشربون ، ولا يدرون ، فأهمدتهم الكاس حتى ناموا ، ما يعقلون ، فوثبت عليهم ، فقتلتهم جميعا ، وأخذت جميع ما كان معهم.

جدير ذكره أن واحدا فقط من الرجال الـ ١٤ ، واحد فقط هو الذي نجا من المذبحة ، إنه مالك بن سويد الثقفي ، والذي سمي بعد هذه الواقعة الدامية باسم (الشريد) لأنه تمكن من أن يشرد من المغيرة لما قتل رفقته من بني قومه ثقيف ، هذا الرجل الشريد (مالك) تزوج من آمنة بنت أبي العاص بن أمية.

ومن العجب العجاب والذي يضرب في الأمثال أن الرجال الأربعة عشر المغدورين كانوا تعاقدوا مع المغيرة أن لا يغدر بهم حتى يعلمهم ، وإنه لشيء

مضحك ، من قبيل شر البلية ما يضحك ، ويضحك عليه ، لقد تمكن المغيرة من حل هذه المعضلة بالشكل الآتي :

نزل الرجال الخمسة عشر منزلا ، فجعل المغيرة يحفر بنصل سيفه ، فقالوا : ما هذا ؟ قال : احفروا قبوركم ، فلم يفهموها ، ولم يلتفتوا إليها ، فأكلوا وشربوا ، وناموا فقتلهم جميعا ، لم ينج منهم غير هذا الشريد (مالك بن سويد).

وقد حدثت هذه المذبحة في مكان يسمى (بساق) عقبة بين التيه وأيلة - إيلات الآن - على ساحل القلزم ، مما يلي الشام ، ويبدو أن هذا كان على الأراضي المصرية ، قبل طريق الشام والحجاز ، فإن الحركة على هذا الطريق ربما كانت أكثر كثافة وازدحاما مما يمكّن من تنفيذ المذبحة بتكتم وهدوء ، بحيث لا يفوح شيء من رائحتها إلى السائرين من العرب على هذا الطريق.

فماذا حدث من ثقيف عندما علمت من الغدر ببنيها ، وماذا فعل الداهية ، أي وماذا ماذا بعد ؟ ثقيف عندما علمت تداعت للحرب على الفور ، وهنا تدخل عمه عروة بن مسعود ، فدفع ديات القتلى جميعا ، شهامة عربية ما بعدها شهامة.

ولكن تبعات المجزرة وتوابع الزلزال لما تنقطع ولن تنقطع ، ومن ثم لجأ المغيرة إلى محمد (ﷺ) ليعلن إسلامه ، وليعرض عليه المال أيضا ليخمسه ، أو ليأذن منه الخمس ، كما سيأتي.

لكن المغيرة قال : (كنا قوما من العرب - بقصد ثقيفا - متمسكين بديننا ونحن سدنة اللات ، فأراني لو رأيت قومنا قد أسلموا ما تبعتهم) فلماذا الإسلام الآن يا مغيرة ؟.

الآن انتهت المعارك الكبرى بين قريش ومن لف لفها وبين محمد (ص) كان خاتمة المعارك بين الجانبين معركة الخندق ، أو (الأحزاب) لقد جمعت قريش وأحلافها أكبر جيش حشدته العرب ، عشرة آلاف مقاتل بعددهم وعدتهم بقيادة أبي سفيان صخر بن حرب ، ولكن هذا الجيش العرمرم رد على أعقابه بفضل الخندق الذي اقترحه سلمان (ﷺ) وبتأييد من رب العزة ، وكانت النتيجة المنطقية لتلك المعركة ، أن قريشا لن تتمكن بعد ذلك من غزو المدينة ، بل أهل المدينة سوف يغزونهم.

إذن كان إسلام المغيرة في الوقت المناسب ، انتهت المعارك الكبرى ضد محمد (ﷺ) ومن معه ، ورجحت كفته على أعدائه عسكريا ، لتصبح دولة المدينة القوى الكبرى في جزيرة العرب.

ومن ناحية أخرى فإن المغيرة إذا أسلم وأصبح في عداد المسلمين فإن أحدا من الطرف الآخر المعادي للمسلمين ، خاصة أولياء الدم من ثقيف لن يفكر واحد منهم في التعرض له.

ومن ثم كان القدوم على محمد (ﷺ) خطوة إستراتيجية مهمة وضرورية ، فماذا حدث ؟ ننتقل إلى مجلس النبي الأكرم في مدينته المكرمة المطهرة ليدخل المغيرة بن شعبة ، نتركه يحكي ما كان :

فقدمت على النبي (ﷺ) فوجدته جالسا في المسجد ، مع أصحابه ، وعليَّ ثياب سفري ، فسلمت بسلام الإسلام ، فنظر إليّ أبو بكر ـ وكان بي عارفا ـ فقال : ابن أخي عروة ؟ قلت : نعم ، جئت أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فقال رسول الله (ﷺ) : (الحمد لله الذي هداك إلى الإسلام).

فقال أبو بكر (ﷺ) : (أفمن مصر أقبلت ؟) قلت : نعم ، قال : فما فعل المالكيون الذين كانوا معك ؟ ومن السؤال يبدو أن أبا بكر كان علم بما حدث لهؤلاء المغدورين ، أما المغيرة فكان من الشجاعة والجرأة أن يقول شيئا آخر غير ما حدث وغير ما رواه هو نفسه بلسانه ، من أن المقوقس أعطاهم أكثر مما أعطاه ، ولم يعطه ما كان يطمح إليه من المال والتقدير والمكانة ، فماذا قال أمام المصطفى (ﷺ) وأصحابه ، وجوابا على سؤال أبي بكر ؟.

لقد صرح بما يلي : كان بيني وبينهم بعض ما يكون بين العرب ، ونحن علىَ دين الشرك ، فقتلتهم وأخذت أسلابهم ، وجئت لرسول الله (ﷺ) ليخمسها ، ويرى فيها رأيه ، فإنما هي غنيمة من المشركين ، وأنا مسلم مصدق بمحمد (ﷺ).

فماذا قال سيد الخلق ؟ لقد قال : (أما إسلامك فقبلته) منطق محمدي ، الإسلام يقبل ، أما المال فله شأن آخر ، يقول سيد العرب والعجم : (ولا نأخذ من أموالهم شيئا ولا نخمسها ، لأن هذا غدر والغدر لا خير فيه).

وهنا أسقط في يد الرجل ، ورأى أن الغدر انكشف وافتضح ، وأن روايته الجديدة أمام النبي وأصحابه لم تنطل عليه (ﷺ) لقد أخذ المغيرة ما قرب وما بعد ، أي تزاحمت الأفكار في رأسه وخشي العواقب ، لكنه تماسك قائلا : يا رسول الله ، إنما قتلتهم وأنا على دين قومي ، ثم أسلمت حين دخلت عليه الساعة ، فقال (ﷺ) : فإن الإسلام يجب ما كان قبله.

وهنا اطمأن المغيرة تماما على حياته أولا ، ثم على المال والثراء ثانيا ، لقد دفع عمه ديات القتلى الذين غدر بهم ، ثم وما أدراك ما ثم ؟! لقد دخل في زمرة المسلمين ، وثقيف وأولياء دم المغدورين لا يزالون على الشرك ومن ثم لم يعد

بمقدور واحد منهم أو في وسعه وجرأته أن يتعرض للمغيرة من بعيد أو قريب.

لقد تحقق الحلم الأول في حياة المغيرة وهو الثراء ، ثروة المغدور بهم من المالكيين ، لقد أصبحت خالصة مخلصة له ، وكان عرض علي النبي (ﷺ) أن يأخذ خمسها حتى تكون الأموال كلها شرعية تماما ، ولكن السيد المطاع أبى أن يأخذ مال غدر ، إذ الغدر لا خير فيه لأحد ، فضلا عن خاتم النبيين والمرسلين.

ويلاحظ أن المغيرة وصف أموال المغدورين بأنها غنيمة ، أي جاءت بعد حرب وقتال ، على عكس الفيء الذي يأتي من المشركين دون حرب أو قتال ، والواقع أن هذه الأموال ليست غنيمة ، لم تأت بعد حرب مع رفقاء سفره من بني مالك ، وإنما هو مال غدر لا خير فيه ، كما قال سيد الخلق (ﷺ).

ففي غنائم الحرب يأخذ الرسول (ﷺ) الخمس ليصرفه في مصارفه التي نصت عليها آية الأنفال [1] : (وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى) قرابة محمد (ﷺ) (وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) أما الأخماس الأربعة الباقية فيأخذها المحاربون ، وعليه عرض المغيرة أن يعطي محمدا (ﷺ) الخمس لشرعنة المال وغسيله ، وليفوز هو بالباقي ، الـ ٤/٥.

وفي إحدى الروايات عن إسلام المغيرة ما يشير إلى معرفة المصطفى بمصدر هذا وحقيقته ، يقول (ﷺ) للمغيرة عندما عرض تخميس المال : (أما إسلامك فقبلته ، ولا آخذ من أموالهم) لاحظ الرسول ينسب المال إلى المغدور بهم من ثقيف ، ولا ينسبه للمغيرة ، ما يدل على أنه يعرف حقيقة حقيقته وأصله وفصله ، مرة أخرى يقول النبي (ولا آخذ من أموالهم شيئا ، ولا آخذ لأنه غدر) هذا المال ليس من الغدر ،

(١) الآية ٤١.

لكنه هو (غدر ، والغدر لا خير فيه) وهكذا نزه النبي (ﷺ) نفسه عن تخميس هذا المال ، أو أخذ أي شيء منه ، بل قال : لا خير فيه؟.

ومن هنا ، من هذه النقطة من هذا التاريخ ، من هذا اليوم الذي أسلم فيه المغيرة يبدأ تاريخه السياسي ، ويظهر دوره سريعا جليا في الأحداث بدءا من عهد النبي (ﷺ) إلى وفاته (٥٠هـ) في عهد معاوية ، وبين التاريخين تاريخ إسلامه عام الخندق ـ ٥ هـ ـ حيث وقعت واقعة الخندق [١] ، ووفاته في العام المذكور كان للمغيرة دور مهم في صناعة الأحداث وصياغتها وتوجيهها الوجهة الذي يريد ، وليحفر اسمه في شتى الأحداث التي وقعت في حياته ، أو في جلها على الأقل.

(١) في شوال سنة خمس من الهجرة.

دهاة العرب

كان المغيرة أحد دهاة العرب ، أو ممن وضع في دهاة العرب ، معنى هذا أنه لم يك وحده الذي وصف بهذه الصفة ؟ نعم هذا صحيح صحيح ، لكنا نتساءل ونسأل متى عرف الرجل بهذه الصفة التي لازمته طوال حياته حتى هلك في الكوفة عام ٥٠هـ ؟ يحكي إجابة عن هذا السؤال فيقول :

أول ما عرفني به العرب من الحزم والدهاء أنني كنت في ركب من قومي ، في طريق لنا إلى الحيرة [1] ، فقالوا لي : قد اشتهينا الخمر ، وما معنا إلا درهم زائف ، فقلت : هاتوه - أي الدرهم الزائف - وهلموا زقين ، فقالوا : وما يكفيك الدرهم زائف زق واحد ؟ أي لا ألا يكفيك زق واحد لهذا الدينار الزائف ؟ قال : أعطوني ما طلبت ، وخلاكم ذمّ - أي اتركوا الذم - ففعلوا وهم يهزءون من قولي.

فماذا فعلت يا مغيرة ؟ صببت في أحد الزقين شيئا من ماء ، ثم جئت إلى خمار ، فقلت له : كل لي ملء هذا الزق ، فملأه كما طلبت ، فأخرجت الدرهم الزائف فأعطيته إياه ، فقال لي ما هذا ، ويحك أمجنون أنت ؟ فقلت : مالك ، قال : إن ثمن هذا الزق عشرون درهما جيادا ، وهذا درهم زائف فقلت : أنا رجل بدوي ، وظننت أن هذا يصلح كما ترى ، فإن صلح وإلا فخذ شرابك ، فاكتال مني ما كاله.

وبقي في زقي من الشراب بقدر ما كان فيه من الماء ، فأفرغته في الزق الآخر ،وحملتهما على ظهري ، وخرجت ، فصببت في الزق الأول ماء ودخلت إلى خمار آخر ، فقلت : إني أريد ملء هذا الزق خمرا ، فانظر إلى ما معي منه ، فإن كان عندك مثله فأعطني ، فنظر إليه ، وإنما أردت أن لا يستريب بي إذا رددت الخمر

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٣٦٠ ، ٩٣.

عليه ، فلما رآه قال : عندي أجود منه ، فقلت : هات ، فأخرج لي شرابا ، فاكتلته في الزق الذي فيه الماء ، ثم دفعت إليه الدرهم الزائف ، فقال لي مثل قول صاحبه الأول ، فقلت : خذ خمرك ، فأخذ ما كاله لي ، وهو يرى أنني خلطته بالشراب الذي أريته إياه ، وخرجت فجعلته مع الخمر الأول ، ولم أزل أفعل ذلك بكل خمار في الحيرة حتى ملأت زقي الأول وبعض الآخر ، ثم رجعت إلى أصحابي فوضعت الزقين بين أيديهم ، ورددت درهمهم ، فقالوا لي : ويحك أي شيء صنعت ؟ فحدثتهم ، فجعلوا يعجبون ، وشاع لي الذكر في العرب بالدهاء والحزم حتى اليوم ، أي يوم هذا ومتى ؟ لا إشارة في الروايات التي رجعنا إليها إلى تحديد هذا اليوم ، متى كان ؟.

لكن هل كان المغيرة فقط الذي وصف في العرب بالدهاء ؟ كلا ، كان معه آخرون منهم :

- معاوية بن أبي سفيان.
- عمرو بن العاص.
- زياد بن أبيه.
- قيس بن سعد.
- عبد الله بن بديل.

نخص كل واحد منهم بكليمة على النحو التالي :

١ـ عبد الله بن بديل : نبدأ بقوله الزهري (ت٣٧هـ) :

كان دهاة الناس في الفتنة خمسة ، فمن قريش عمرو ومعاوية ، ومن الأنصار قيس بن سعد ، ومن ثقيف المغيرة ، ومن المهاجرين عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، فكان مع عليّ قيس وابن بديل ، واعتزل المغيرة.

فمن هو عبد الله بن بديل ، وماذا عن دوره ، أو أدواره خاصة مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ فتذكر الروايات أنه أسلم مع أبيه قبل الفتح ، وكان سيد خزاعة ، شهد فتح مكة مع النبي الأكرم (ﷺ) كما شهد حنينا والطائف وتبوك أيضا.

استشهد هو وأخوه عبد الرحمن مع عليّ في صفين (٣٧هـ) وكان على قيادة المشاة (الرجالة) وهو من أفاضل أصحاب عليّ وأعيانهم ، وكان قد صالح أهل أصفهان مع عبد الله بن عامر في خلافة عثمان ، عام ٢٧هـ.

في حروبه ضد أهل الشام كان يرتدي درعين وسيفين ، يضرب يمنة ويسرة منشدا مرتجلا :

لم يبق إلا الصبر والتوكل *** ثم التمشي في الرعيل الأول
مشي الجمال في حياض المنهل *** والله يقضي ما يشاء ويفعل

وفي صفين شق البطل الهمام الصفوف والسيوف بسيفه حتى انتهى إلى معاوية نفسه ، فأحاط به أهل الشام فقتلوه حتى لا يصل إلى كبيرهم ، وعندما رآه معاوية قال :

والله لو استطاعت نساء خزاعة لقاتلتنا فضلا عن رجالها ، ثم تمثل بقول حاتم[1] :

كليث هزبر كان يحمي ذماره * رمته المنايا قصدها فتقطرا
أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها * وإن شمرت يوما به الحرب شمرا

رضي الله عن عبد الله ، وعن أبيه بديل بن ورقاء الذي كان مفاوض رسول الله (ﷺ) مع قريش الحديبية ، كما هو المذكور من الروايات في مختلف المصادر.

(١) أسد الغابة ١٣٩/٣.

٢ـ قيس بن سعد : إنه قيس بن سعد بن عبادة ، كان من الدهاة المشهورين ، وكان أعظمهم كرما وفضلا ، ولا غرو فهذا الشبل من ذياك الأسد ، زعيم الخزرج ، سعد بن عبادة ، وكانا ـ رضي الله عنهما ـ من فضلاء الأنصار .

قيس الابن إذن ، كان أحد دهاة العرب وكرمائهم ، من ذوي الرأي الصائب والمكيدة في الحرب ، مع النجدة والشجاعة ، كان شريف قومه غير مدافع ، ومن بيت سيد من ساداتهم ، ولذا كان قيس (ﷺ) بمنزلة صاحب الشرطة على عهد رسول الله (ﷺ) جاء في أسد الغابة : (كان قيس بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير ، أي مما يلي أموره [١]).

وفي إحدى السرايا على عهده (ﷺ) مع أبي بكر وعمر كان قيس (ﷺ) يستدين ويطعم الناس ، وفي الفتنة كان قيس يقول : (لولا أنني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : (المكر والخديعة في النار) لكنت من أمكر هذه الأمة.

وعندما بويع أمير المؤمنين صحبه قيس وشهد معه حروبه ، واستعمله أمير المؤمنين على مصرنا العامرة ، ثم عزله ، فعاد إلى المدينة ، لكنه ما لبث أن عاد مرة أخرى إلى أميره في حاضرته الكوفة ، وشهد معه كل المعارك إلى أن استشهد عليّ (ﷺ) في عام ٤٠ هـ.

وهنا صار مع ابن الإمام ، الحسن (ﷺ) وسار في مقدمته إلى معاوية ، ولما تم الصلح مع أهل الشام عام ٤١ هـ ، عاد (ﷺ) إلى مدينة حبيبه (ﷺ) حتى لقي ربه ٥٩ هـ.

(١) ٤ / ٣٠٠.

وكان مما قال يوم صفين :

هذا اللواء الذي كنا نحف به *** مع النبي وجبريل لنا مدد

ما ضر من كانت الأنصار عيبته *** أن لا يكون له من غيرهم أحد

قوم إذا حاربوا طالت أكفهم *** بالمشرفية حتى يفتح البلد

مما روى قيس (ﷺ) عن سيده وحبيبه المصطفى (ﷺ) :

لو كان العلم متعلقا بالثريا لناله ناس من فارس

ومن الطريف أن هذا الرجل العظيم لم يك في وجهه لحية ، بل لم يك في وجهه الكريم شعرة واحدة ، ومع هذا كان جميلا ، حتى قال الأنصار : (وددنا لو نشتري لقيس لحية بأموالنا) أظن هذا يسعد بعض الناس من الملتحين.

٣- عمرو بن العاص: سأل رجل عمرو بن العاص عن أمه فقال : (سلمى بنت حرملة ، تلقب بالنابغة) جدير - أيها القارئ - بمن كانت أمه نابغة أن يكون داهية ، إذ النابغة اللقب لا يتصور أن تلد للعرب إلا داهية من دهاتهم.

ويستمر عمرو في الحديث إجابة للسائل عنها فيضيف : (من بني عنزة ، أصابتها رماح العرب) أي سبيت في الحرب (فبيعت بعكاظ ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل ، فولدت له ، فأنجبت ، فإن كان لك شيء فخذه) هذا نسب الرجل من أمه وأبيه.

أما عن إسلامه فقد وفد على النبي (ﷺ) إلى المدينة مع خالد بن الوليد ، الذي كان قائد فرسان قريش في أحد ، والذي قتل بقية من كانوا على جبل الرماة وفاجأ المسلمين من خلف ظهورهم ، وكان مع الرجلين عثمان بن طلحة ، أسلم الرجال الثلاثة الذين ذكروا قبل فتح مكة بستة أشهر ، أما فتح مكة فتم ٨ هـ.

ويبدو أن الرجال الثلاثة خاصة ابن العاص قد أدركوا بثاقب فكرهم أن الصراع قد انحسم لصالح محمد (ﷺ) وحزبه ، ومن ثم وفد ثلاثتهم على الرسول الخاتم (ﷺ) في مدينته المطهرة المكرمة.

يقول عمرو : أتيت رسول الله لأبايعه ، فقلت : ابسط يمينك أبايعك فبسط يده ، ثم إني قبضت يدي.

- مالك يا عمرو ؟
- أردت أن أشترط.
- تشترط ماذا ؟
- أشترط أن يغفر لي.
- أما علمت ـ يا عمرو ـ أن الإسلام يَجُب ما قبله ، وأن الهجرة تهدم ما قبلها.

ولكن الرجل سرعان ما انتظم في العمل مع الرسول (ﷺ) ومع المسلمين على ما سيأتي ونذكره ، حتى كانت قمة أدواره في اقتراح التحكيم في معركة صفين ، ولكن اللافت أن عمرا بمجرد إسلامه وانضمامه إلى القوة الصاعدة ، حتى قارن نفسه بكبار الصحابة مثل أبي بكر وعمر ، كيف ؟ يروي هذا الحوار بينه وبين سيد الأولين والآخرين واصفا إياه بأنه كان يقبل على أشر القوم يتألفهم بذلك ، فكان يقبل بوجهه وحديثه إليّ حتى ظننت أنني خير القوم ـ أي من الصحابة المقربين ـ فقلت :

- يا رسول الله : أنا خير أو أبو بكر ؟
- أبو بكر.
- يا رسول الله : أنا خير أو عمر ؟
- عمر.
- يا رسول الله : أنا خير أو عثمان ؟

- عثمان.
- يقول عمرو : فلما سألت رسول الله (ﷺ) فصدقني ، وددت أني لم أكن سألته.

وسوف نأتي في قابل السطور والصفحات على دور عمرو وما كان منه بدءا من عصر النبوة حتى وفاته بمصر المحروسة عام ٤٣ هـ.

على أي الأحوال : إذا كان الزهري (ت١٢٤هـ) رحمه الله قد سمي دهاة العرب خمسة : عبد الله بن بديل ، وقيس بن سعد ، وعمرو بن العاص ، ومعاوية ، والمغيرة فإن الشعبي يعتبر دهاة العرب أربعة :

- معاوية للأناة والحلم.
- عمرو للمعضلات.
- المغيرة للمبادهة.
- زياد للصغير والكبير.

أي أنه أخرج عبد الله بن بديل وقيس بن سعد ، وأدخل زياد ابن أبيه ، والذي سيظهر دوره لاحقا في الشهادة في واقعة زنا المغيرة أمام عمر بن الخطاب ، ثم امتناعه عن الدخول في طاعة معاوية بعد أن سلم الحسن بن علي عام ٤١ هـ.

ولكن لا بأس من كليمة عنه الآن إلى أن يأتي دوره في الأحداث ، خاصة في الحادثتين السابقتين ، فنقول :

٤ـ زياد ابن أبيه : وعرف بزياد ابن سمية ، وسمية هذه أمه ، استلحقه معاوية بعد ذلك بأبيه ، فسماه (زياد بن أبي سفيان) كما سيأتي تفصيله بعد ذلك.

كان يسمى قبل استلحاقه أيضا (زياد بن عبيد الثقفي) كانت أمية سمية جارية الحارث بن كلدة ، وزياد أيضا هو أخو (أبي بكرة) صاحب الشهادة ضد المغيرة ،

وإن كان من الأم.

ولد زياد عام الهجرة ، لا صحبة له ، ولا رواية ، كان من دهاة العرب والخطباء الفصحاء ، وكان بارا بأبيه عبيد الثقفي عندما اشتراه بألف درهم ، وأعتقه على الفور.

استعمله عمر على بعض أعمال البصرة ، وقيل : استخلفه أبو موسى الأشعري وكان كاتبا له ، ولكن عمر عزله بعد الشهادة على المغيرة ، على ما سوف نعلق ونفصل في موضعه.

وعندما عزله عمر قال : يا أمير المؤمنين ، أخبر الناس أنك لم تعزلني لخزية (خيانة) ؟ ما عزلتك لخزية ، ولكني كرهت أن أحمل على الناس فضل عقلك.

قدم زياد على عمر بشيرا ببعض الفتوح فأمره أن يخطب الناس فأبدع وأحسن ، فقال عمرو بن العاص : (لو كان هذا الفتى قرشيا لساق العرب بعصاه) فقال أبو سفيان : (إني لأعرف الذي وضعه في رحم أمه) فقال علي : (ومن هو يا أبا سفيان ؟) قال : (أنا) قال علي : (لو سمعها عمر لكان سريعا إليك).

والآن نترك زيادا إلى حيث نكمل ما كان منه في صوغ الأحداث وسيرها ونتحدث الآن عن المغيرة لنشير في عجالة عجلى وكليمات قليلة عن :

دهاء المغيرة :

حيث نذكر بعض الأقوال والآراء في هذا الشان ، أي دهاء الرجل ، فنقول :

- عرف المغيرة بالحنكة السياسية ، والآراء الدنيوية الصائبة ، وكانت آراؤه السياسية في المواقف الصعبة معروفة ، وكان كثير من العرب يرجع إليه ، ويستعين به.

- المغيرة رابع أربعة ، عدوا من دهاة العرب ، وممن يحتالون بكل وسيلة للفوز في الدنيا - أو بالدنيا - فعندهم الغاية تبرر الوسيلة.
- وعن هذا يقول المغيرة : ما غلبني أحد في هذا - في المكر والدهاء - إلا شاب من تميم ، أراد المغيرة أن يخطب فتاة فقال الفتى : لا تصلح لك يا أمير ، قال : لم ؟ قال : رأيت رجلا يقف لها يقبلها ، ولكن الشاب تزوج الفتاة ، فقال المغيرة : ألم تقل رأيت رجلا يقف لها يقبلها ، قال الشاب : بلى ، رأيت أباها يقف لها يقبلها وهي صغيرة.
- وفي الأغاني : وكان المغيرة بن شعبة من دهاة العرب وحزمتها ، وذوي الرأي منها والحيل الثاقبة ، وكان يقال له في الجاهلية والإسلام مغيرة الرأي ، كما كان يقال عنه أيضا : ما اعتلج في صدر المغيرة أمران إلا اختار أحزمهما.
- وجاء في تاريخ الطبري [1] : (لو أن المغيرة جُعل في بيت - حبس - لا يخرج من أبوابه كلها بالغدر فخرج منها) وفي رواية أخرى جاء نفس المعنى :

لو أن مدينة لها ثمانية أبواب ، لا يخرج من باب منها إلا بالمكر لخرج المغيرة منها كلها.

معنى هذا أن المغيرة لو وقع في مشكلة أو معضلة لا يخرج منها إلا بحل ، فإنه يستطيع أن يخرج بكل الحلول ، ومن كل الأبواب التي يجدها في طريقه.

مما يذكر عن المغيرة أيضا أنه كان يحابي ، أي يحابي من يميل إليه ومن يساعده في تحقيق مآربه فكان رده : (إن المعرفة - أو المعروف - ينفع عند الجمل الصئول والكلب العقور ، فكيف بالمسلم ؟) أي أن المعروف والجميل يؤثر في الجمل الهائج والكلب العقور ، فما بالنا في الإنسان المسلم.

(١) ٥ / ٣٣٤.

كما كان المغيرة أيضا يستعين بالمال في سبيل إرضاء منتقديه ، وهذا مثال سوف نتبعه بأمثلة أخرى في مكانها من الكتاب ، إذ يروي أنه بينما حسان بن ثابت - ذات يوم - جالسا بالخيف من منى ، وهو مكفوف ، إذ زفر زفرة ، ثم أنشد يقول :

وكأن حافرها بكل خميلة *** صاع يكيل به شحيح مُعْدم
عاري الأشاجع من ثقيف أصله *** عبد ويزعم أنه من يقدم

ويبدو أن الشاعر كان يعرض بالمغيرة ، الذي سمع ما قيل ، وهنا بعث إلى حسان بخمسة آلاف درهم ، فقط ؟ فقط ، فلما أتاه بها الرسول ، سأل حسان : من بعث بهذه ؟ قال : المغيرة بن شعبة ، سمع ما قلت ، فقال : وا سوأتاه ! وقبلها ، أي هدية الخمسة آلاف.

حسبنا ما ذكرنا عن المغيرة هنا إلى ما سوف نفصله من أدواره المتعاقبة على مر الأحداث ، لكنا نشير هنا إلى أمرين :

أولهما - أن زياد بن سمية لم يعير بأمه وما كان من أبي سفيان معها ، لقد كان المجتمع الإسلامي ساعتها من التفتح والانفتاح والتفقه ما يجعله يقدم الرجل لكفاءته وعمله ونجاحه ، دون نظر من كان أبوه ومن كانت أمه.

وكذلكم عمرو بن العاص ، كانت أمه سبية أصابتها حراب حرب بين العرب ، ولكن أحدا لم يلتفت إلى هذا ، فضلا عن أن يعيره بها ، وكان هو من الشجاعة بحيث ذكر لسائله من أمه ، ومن تكون ومن أبوه ؟.

وتلك سمة من سمات حضارة الإسلام التي أعلت من شأن الكفاءة والنجاح ، دون نظر إلى شيء آخر ، بل إن هذه السمة من أهم أسباب نجاح حضارة الإسلام وتجذرها عبر التاريخ.

ثانيهما ـ المغيرة بن شعبة الثقفي يختلف عن المغيرة بن نوفل القرشي الهاشمي ، والذي تزوج من أمامة بنت زينب بنت محمد (ﷺ) المغيرة بن نوفل هذا هو من ألقى القطيفة على ابن ملجم ـ لعنه الله ـ لما ضرب أمير المؤمنين وعندما هم الناس بأخذ القاتل حمل عليهم بسيفه ، فأرخوا له وأوسعوا ، إلا أن هذا البطل المقدام ألقى عليه القطيفة التي كانت معه ، ثم احتمله فضرب به الأرض ، وأخذ سيفه ، وكان هذا المغيرة شديد القوة ، فحبس المجرم حتى مات عليّ (ﷺ) فقتل اللعين ابن ملجم.

شهد المغيرة بن نوفل صفين مع أمير المؤمنين ، كما كان قاضيا في عهد عثمان ، روى حديثا واحدا عن السيد المطاع (ﷺ) هو :

من لم يحمد عدلا ، ولم يذم جورا ، فقد بارز الله تعالى بالمحاربة.

والآن نترك سميه الآخر ابن شعبة لنرى ماذا سيكون منه حتى وفاته سنة ٥٠ هـ ، فنقول :

أولا ـ في عصر النبوة

ذكر المغيرة قبلا ـ في سياق قصة إسلامه ـ أن ثقيفا كانوا متمسكين بدينهم ، أي عبادة الأصنام ، فقد كانوا سدنة اللات ، ثم صرح نصا : (فأراني لو رأيت قوما قد أسلموا ما تبعتهم).

إذن هو يعرف كل شيء عما كان يدور في مكة ، وهو بالتأكيد سمع ما حدث لسيد الخلائق أجمعين في ديار قومه (قريش) ثم هجرته (ﷺ) إلى مدينته المكرمة المطهرة ، ولكن عندما عاد من مصر كان عليه أن يطمئن على حياته أولا ، ثم أن يحوز المال ، وقد تم له ما أراد بمجرد أن أعلن إسلامه أمام محمد (ﷺ).

ومن ناحية أخرى فلعل المغيرة قد أدرك بثاقب فكره وبعيد نظره أن المعارك بين قريش وابنها محمد (ﷺ) قد انحسمت لصالح هذا الابن البار ، إذ بعد فشل غزو الأحزاب أعلنت القيادة بكل وضوح : لن تغزوكم قريش بعد ذلك ، ولكن تغزونهم أنتم ، لم يعد بقدرة قريش أن تغزو المدينة كما فعلت قبلا ، بل إن جحافل المسلمين ستنطلق إلى مكة حتى فتحت ٨ هـ.

وعندما أصبح محمد (ﷺ) وصحبة القوة الكبرى في جزيرة العرب كان من الحكمة السياسية والحنكة والعقل أن يخطب وده (ﷺ) وأن ينضوي الجميع تحت لوائه ، وهذا ما حدث من المغيرة ومن عمرو بن العاص وخالد بن الوليد بعد ذلك.

على أي الأحوال اختار المغيرة طريقه من البداية ، ومنذ إسلامه قبل الحديبية بـ ٦ أشهر حتى يكون قريبا من مركز الأحداث ، بل أن يكون في قلبها ، بأن يكون على المسافة الدنيا والقربى من قيادة المدينة المنورة ، فكان ملازما قريبا جدا جدا إلى جوار المصطفى (ﷺ) وإلى جنبه.

وكان الهدف أن يعرف الداخل والخارج على القيادة ، وعلى كل ما يدور من أحداث ، بل ترتيب وإعداد ومعالجة للحوادث والأحداث.

ومن ناحية أخرى فإن القوى المتربصة بالرسول الأكرم (ﷺ) لن تصل إليه قبل أن يفتي جيشه والمدافعون عنه ، ولذا كان المغيرة في المكان الأنسب والأشد أمانا والأكثر فائدة بالنسبة له.

على أي الأحوال سنحاول سرد مجموعة من الحوادث والأحداث التي شارك فيها المغيرة في عصر نبوته (ﷺ) وعلى رأسها :

أولا ـ الحديبية [1] : أول مشاهد المغيرة ـ كما تنص الروايات ـ كيف كان ذلك ؟ رأي عروة بن مسعود أن يشترك مع قريش في التفاوض مع الرسول (ﷺ) ويبدو أن الرجل كان ينفعل ، فتتحرك يده عند الحوار حتى تقترب من لحية النبي (ﷺ) أو أن تمسها ، وعندها سجل المغيرة لنفسه هذا الموقف ، لقد قال بملء فيه مهددا عمه بقطع يده إن اقتربت أو لامست لحيته الشريفة (ﷺ) كما جاء في هذه الرواية.

أشار عروة بن مسعود على قريش بقبول ما عرض عليهم بديل بن ورقاء ـ مفاوض الجانب المسلم ـ وأن يسمعوا مقالته ، لكنه لم يجد منهم أذنا صاغية ، ومن ثم عرض عليهم أن يأتي هو نفسه محمدا يسمع منه ، أو كما قال : (آتيكم بمصداقها ، وأكون لكم عينا) وذهب عروة.

وفي حواره مع المصطفى طفق بمس لحيته أو تقترب يده منها وهو يكلمه والمغيرة على رأس الرسول (ﷺ) مقنع في الحديد والدروع ، فقال المغيرة لعروة :

(١) كانت في ذي القعدة ٦ هـ.

(كف يدك قبل أن لا تصل إليك) فقال عروة من هذا يا محمد ؟ ما أفظه وأغلظه !! قال : ابن أخيك ، قال : يا غدر (أي يا غدار يا شديد الغدر) والله ، ما غسلت سوأتك إلا بالأمس.

وكان هذا العم هو الذي دفع ديات قتلى ثقيف ـ كما سبق ـ ومنع الحرب أن تقوم بسبب غدر ابن أخيه بالثقفيين من بني مالك ، لكن الوضع الآن تغير وتبدل ، وأصبح الرسول (ﷺ) يخطب وده ويلجأ إليه ، ويقترب منه ، فقد انتهى بالنسبة للمغيرة دور عمه ، فما عليه أن يكسب موقفا لصالحه هو ، ولو على حساب عمه الذي دفع ديات القتلى الثلاثة عشر.

وفي النهاية انتهت مفاوضات الحديبية إلى قرار قريش بعودة الرسول (ﷺ) ومن معه : (لا يدخلها ـ أي مكة ـ علينا عامه هذا حتى لا يبقى منا رجل) هذا كان قرار قريش إلى بديل بن ورقاء مفاوض الرسول (ﷺ) أبلغه إليه عكرمة بن أبي جهل والعاص بن الحكم ، وبالفعل عاد المسلمون إلى المدينة ، وجاءوا في العام التالي ٧ هـ معتمرين في مكة ، على ما هو مذكور في الروايات.

ليس هذا فقط بل حاولت قريش اغتيال الرسول (ﷺ).

على أي الأحوال فإن المغيرة بمجرد أن خرج الرسول لعمرة الحديبية حتى سارع للخروج معه (فكانت أول سفرة خرجت معه فيها ، وكنت أكون مع الصديق ، وألزم رسول الله (ﷺ) فيمن يلزمه).

وهكذا خط المغيرة أول خطوط سياسته التي حرص عليها وهي الاقتراب الشديد جدا من القيادة حتى يكون على دراية تامة واطلاع أكيد بمجريات الأحداث وترتيبات القيادة.

وقبل أن نستمر مع المغيرة في سيره مع الصديق والمصطفى (ﷺ) نشير أن عمه عروة قد هداه الله إلى الإسلام بعد فتح مكة ، ففي عام ٩ هـ جاء الرجل ليعلن إسلامه على يد النبي الأكرم (ﷺ) ثم عاد إلى قومه ثقيف في طائفهم - في قرية الطائف - فما كان من هؤلاء اللئام إلا أن رموه بالنبال حتى استشهد (رضي الله عنه) وأرضاه.

ثانيا : اشتركت ثقيف مع هوازن في معركة حنين ٨ هـ والتي جاءت بعد فتح مكة ، فبينما رجل من الأنصار يستلب قتلى من ثقيف إذ كشف عبدا ليستلبه ، فوجده (أغرل) غير مختتن ، فصرخ الأنصاري بأعلى صوت : (يعلم الله أن ثقيفا ما تختتن).

وهنا ظهر المغيرة ، لقد أظهر غيرة على قومه ثقيف فأخذ بيد الأنصاري الصارخ خشية أن تفتضح ثقيف في العرب بسبب عدم اختتانها راجيا : (لا تقل هذا - فداك أبي وأمي - إنه غلام نصراني) ثم جعل يكشف له القتلى من الثقفيين معلنا : (ألا تراهم مختتنين ، ألا تراهم مختتنين).

ثالثا : وعند منصرفه (ﷺ) من معركة حنين ، حيث كانت ثقيف محالفة لهوازن في حربها ضد الرسول (ﷺ) ذهب على الفور لحصار الطائف ، وهنا تقدم المغيرة مع أبي سفيان الذي سرعان ما تحول بعد إسلامه في فتح مكة إلى المشاركة في الأحداث ، حيث التم (التأم) المغيرة مع أبي سفيان ، والتأم الأخير مع الأول.

فعند حصار ثقيف ذهب الرجلان معا إلى الطائف ، حيث قالا لثقيف : (أمنونا حتى نكلمكم) فأمنتهم ثقيف ، وهنا طلب كلاهما من بعض نساء قريش وبني كنانة أن يخرجن إليهما ، يخافان عليهن السباء ، ولكن النساء أبين عليهما ، منهن آمنة بنت أبي سفيان أرملة الشهيد السعيد عروة بن مسعود (رضي الله عنه).

رابعا : ولكن مقاومة القوم في ثقيف لا تلبث أن تنهار ، ليرسل القوم وفدا بإسلام الطائف ، هذا الوفد الذي ما لبث أن رآه المغيرة الذي كان يشارك في رعي ركائب أصحاب النبي (ﷺ) ولم يشأ المغيرة أن يضيع على نفسه هذه الفرصة في الاشتراك في هذا العمل ، وأن يقسم بعض هذه النوبات في رعي مطايا الصحابة (ﷺ).

ويبدو أنه كان يرعى هذه المطايا بالقرب من المدينة ، فلم رأى وعلم الأمر ، ترك الركائب على الفور ووثب بكل قوته ليبشر رسول الله بقدومهم عليه ، ولكن أبا بكر لقيه فقال له : (أقسمت عليك - يا مغيرة - لا تسبقني إلى رسول الله (ﷺ) حتى أكون أنا الذي أحدثه) فلم يملك الرجل إلا أن يمتثل لرغبة أبي بكر الذي يعرف له قيمته وقربه من سيد الخلق (ﷺ).

ولكن المغيرة وجد له عملا آخر ، فروح الظهر معهم ، أراح الرواحل والمطايا التي كانوا يركبونها ، ثم حاول أن يعلمهم كيف يحيون النبي (ﷺ) بتحية الإسلام ، لكن القوم لم يحيوا إلا بتحية الجاهلية.

خامسا : ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، لقد كانت تنتظره مهمة أخرى ، هي هدم الطاغية (اللات) إله ثقيف ، ومن ثم بعث الرسول (ﷺ) المغيرة وأبا سفيان ، أو ندبها لهذه المهمة ، ولا أدري لماذا اصطحب الرجلان وسارا مع بعضهما ؟ هل كان هذا اختياره (ﷺ) أن اختيارهما ، أم اختيار أحدهما ؟

أما اختيار المغيرة فكان شيئا منطقيا حيث كان من ثقيف ، أما صحبة أبي سفيان له ، فلا أدري ما السبب ؟ على أي الأحوال ذهب الصاحبان إلى الطائف ، أراد المغيرة أن يقدم صاحبه الذي أبى قائلا له : (ادخل أنت على قومك).

فلما دخل المغيرة على (اللات) يضربها بالمعول ، قام له بعض الثقفيين خشية أن يرمى وأن يصاب ، كما أصيب عمه عروة ، وبعد هدم الطاغية أخذت الأموال والنذور من حولها ، وكما هي أوامر الرسول (ﷺ) دفعت الأموال والذهب والحلي جميعها إلى أبي سفيان لتدفع منها ديون عروة والأسود ابني مسعود ، حيث كانت آمنة بنت أبي سفيان زوجة الأول ، ولعل هذا من الأسباب التي بررت الصحبة بين المغيرة وأبي سفيان ، فبنت الأخير كانت زوجة لعمه عروة ، والله أعلم.

سادسا - واقعة إلقاء الخاتم : ولا يترك المغيرة فرصة إلا ليزج نفسه في غمرات الأحداث حتى في دفن الرسول (ﷺ) كيف ؟ أنا أقول لك :

جاء النبي الخاتم (ﷺ) مكرسا جهده وحياته لشيء واحد إنقاذ الناس من جهنم ، ومن الشرك إلى نور التوحيد ، هلك من هلك ، ونجا من نجا ، حاربه من شقى وخسر ، وجاهد معه من سعد وكسب ، وفي هذه الحرب المستعرة انتقل الفارس من نصر إلى نصر ، تدول له الحرب مرات ، وتدال عليه حتى كانت خيبر - شمال المدينة - وما أدراك ما خيبر حيث استطاع القائد المظفر أن يقضي على آخر حصون المقاومة اليهودية في جزيرة العرب.

وبعد انتصار القائد الهمام (ﷺ) في خيبر ٦ هـ إذا بامرأة يهودية خيبرية اسمها زينب بنت الحارث تذبح شاة - تطبخها - لتقدمها هدية إليه (ﷺ) لقد صلى المغرب - ذات ليلة - في خيبر منصرفا إلى منزله ، وهناك وجد هذه الزينب عند رحله ، فقدمت له الهدية المسمومة.

وهنا أمر الرسول (ﷺ) فوضعت بين يديه ، تقدم هو وأصحابه ليأكلوا فتناول الذراع ، وتناول بشر بن البراء عظما ، وانتهش رسول الله (ﷺ) ثم ازدرد ، فقال : (كفوا أيديكم ، فإن هذه الذراع تخبرني أنها مسمومة).

فقال بشر : (والله يا رسول الله ، وجدت ذلك من أكلتي التي أكلت ، فما منعني أن ألفظها إلا كراهية أن أنغص عليك طعامك) فلم يتحرك بشر من مكانه حتى أسلم الروح لباريها.

وهنا استدعيت اليهودية زينب ، فقال لها الرسول (ﷺ) : (سممت الذراع) قالت : (من أخبرك ؟) قال : (الذراع) قالت : (نعم) وما حملك على هذا قالت : قتلت أبي وعمي وزوجي ، ونلت من قومي ، فقلت : إن كان نبيا فستخبره الشاة ، وإن كان ملكا استرحنا منه.

وهنا أمر بها رسول الله (ﷺ) فقتلت ثم صلبت ، وعن ابن عباس أن رسول الله (ﷺ) دفعها إلى أولياء بشر بن البراء بن معرور ، فقتلوها قصاصا لمقتل بشر (ﷺ) وقال ابن سحنون الفقيه المالكي : أجمع أهل الحديث أن الرسول (ﷺ) قتلها قصاصا لصاحبه بشر.

وكان ثلاثة من الصحابة (ﷺ) وضعوا أيديهم على الطعام فقط ، لم يصيبوا منه شيئا ، فقد أمرهم السيد المطاع (ﷺ) فاحتجموا أوساط رءوسهم ، واحتجم (ﷺ) تحت كتفه اليسرى ، وقيل على كاحله.

ولكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد المفجع ، بل بقي الألم والوجع يزوان سيد الخلق (ﷺ) في نفس الوقت من كل عام حتى لقي ربه بعد خمس سنوات ، إذ يقول في مرض موته (ﷺ) : (مازلت أكلة خيبر يصيبني منها عِداد - بكسر العين - حتى كان هذا أوان أن تقطع أبهري).

والأبهر وريد العنق ، ويقصد الرسول (ﷺ) بقطع الأبهر ، أي الموت ، أما كلمة عِداد - بكسر العين - فتشير إلى تكرار الألم في نفس الوقت من كل عام ، كما يجد

اللديغ من الألم في كل سنة في ذات الوقت الذي لدغ فيه.

وما أجدر كل ما سبق ببحوث ودراسات علمية وطبية ، فهل اللديغ فعلا يمكن أن يعانى في كل عام ذات الوجع حتى يموت ، وهل الاحتجام من السم يمكن أن يفيد الآن ، وما نوع السم أو السموم التي استخدمت في محاولة اغتيال الرسول (ﷺ) ومن أين كان يؤتى بها ، وهل كانت هذه المرأة اليهودية وحدها أم عاونها آخرون في جريمتها ، أم قامت وحدها بهذا ؟؟.

ومن المنطقي أن تكون حريصة على عدم توريط أحد معها أو ذكره حتى لا يعاقب ، وأن تتحمل وحدها المسئولية عن الجريمة ، ثم تقدم المبرر ، أو المبررات : (قتل أخيها مرحب ، لقد قطع محمد بن مسلمة رجليه ، ثم جاء عليّ (ﷺ) فضرب عنقه وأخذ سلبه ، ولكن الرسول (ﷺ) أخذه وأعطاه لمحمد بن مسلمة).

ليس أخاها فقط ، بل قتل أبوها وزوجها ، ونال الرسول (ﷺ) من قومها ما نال ، هذه مبرراتها لهذه الفعلة الشنعاء.

وانظروا إلى هذه الفعلة الشنعاء ، إن الرسول (ﷺ) لم يأمر بقتلها دون استجوابها حتى يمكن التحقق من جوانب الجريمة وحتى تدافع عن نفسها ، إنه لا يكفي أن يعترف المجرم ويقر بجريمته ، بل يجب أن يحقق معه لاستجلاء الأمر ، وتقديم الجاني لما لديه من حجج أو مبررات.

وتمر السنوات سراعا لنصل من خيبر ٦ هـ إلى ١١هـ ، تزور السيدة أم الشهيد بشر بن البراء بن معرور سيد الخلق (ﷺ) في مرض موته ، تقول : (يا رسول الله ، ما وجدت مثل هذه الحمى التي عليك على أحد ؟) فقال : (... ولكنها من الأكلة التي أكلت أنا وابنك بخيبر من الشاة ، وكان يصيبني منها عداد - ألم كل

سنة ـ مرة بعد مرة ، فكان هذا أوان انقطاع أبهري) فمات (ﷺ) شهيدا.

بل إن بعض الناس يقول : (نحن الذين قتلنا محمدا وخلفاءه من بعده) كلام يحتاج إلى كلام وتحليل.

محمد (ﷺ) الذي خير من بين البشر على البقاء أو صعود الروح إلى جوار باريها ، فاختار جوار الله (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي [(1)]).

توفي سيد الخلق (ﷺ) يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول ١١ هـ ـ ٦٣٢م ـ وبقي يوم الاثنين والثلاثاء ، ودفن ليلة الأربعاء ، في ذات المكان الذي توفى فيه.

فأين المغيرة هنا ؟ إنه لم يضيع هذه الفرصة حيث ادعى أنه آخر من رأى سيد الخلق (ﷺ) وجاء ذلك في روايات عديدة بنفس المعنى.

ونبدأ بالروايات التي جاءت على لسان المغيرة نفسه ، أو جاءت لصالحه تؤيده ، ثم تفنيد ما قال ، أو الرأي الآخر فيما قال :

١ـ كان المغيرة يحدث أنه آخر الناس عهدا بالنبي (ﷺ) فإنه لما دفن (ﷺ) وخرج عليّ من القبر ، قال المغيرة : (ألقيت خاتمي) فقلت : (يا أبا حسن ، خاتمي) قال عليّ : (انزل فخذ خاتمك) فنزلت ، فأخذت خاتمي ، ووضعته على اللبن ، وخرجت ، وفي رواية أخرى : قال عليّ لابنه الحسن : (ادخل فناوله خاتمه) ففعل.

٢ـ لما وضع الرسول (ﷺ) في قبره ، قال المغيرة : (قد بقي (ﷺ) من قبل رجليه شيء ، لا تصلحونه) قالوا : (فادخل فأصلحه) فمسح المغيرة قدميه (ﷺ) ثم قال :

---

(١) ٢٧ ـ ٣٠ الفجر.

(أهيلوا عليّ التراب) فأهالوا عليه التراب حتى بلغ ساقيه ، فخرج فجعل يقول : (أنا أحدثكم عهدا برسول الله (ﷺ) ، وفي رواية حتى بلغ أنصاف ساقيه ، فلما سوى على رسول الله (ﷺ) قال اخرجوا حتى أغلق الباب ، فإني أحدثكم عهدا برسول الله (ﷺ) فقالوا : (لعمري لئن كنت أردتها فقد نلتها).

أما الروايات الأخرى المناقضة لما سبق ، فمنها :

١- في مسند ابن [1] حنبل : آخر الناس عهدا برسول الله (ﷺ) قثم بن العباس ، وهو ما روي عن عبد الله بن عباس ، فقد قيل له : (زعم المغيرة) أنه آخر الناس عهدا برسول الله (ﷺ) قال : كذب ـ والله ـ أحدث الناس عهدا برسول الله قثم بن عباس ، كان أصغر من في القبر ، وكان آخر من صعد.

٢- وفي تاريخ الطبري [2] : جاء نفر من العراق ليسألوا عليا : يا أبا الحسن ، جئنا نسألك عن أمر نحب أن تخبرنا به ، قال علي : أظن المغيرة يحدثكم أنه كان أحدث الناس عهدا برسول الله (ﷺ) ؟ قالوا : أجل ، قال : كذب ، كان أحدث الناس برسول الله (ﷺ) قثم بن العباس.

٣- وفي طبقات ابن سعد [3] : يقول له عليّ في ذات الواقعة : ألقيت خاتمك لكي تنزل في القبر ، والذي نفسي بيده ، لا تنزل فيه أبدا ، وفي رواية أخرى : لا يتحدث الناس أنك نزلت في القبر ، ولا يتحدث الناس أن خاتمك في قبر رسول الله (ﷺ) نزل عليّ ورأى موقعه فتناوله فدفعه إليه.

وفي النهاية : أنا لا أستبعد حضور المغيرة لدفنه (ﷺ) ولكني أقبل رواية عليّ وابن عباس (ﷺ) فيما حدث من أنهم منعوا المغيرة من ترك خاتمه ، أو حتى

(١) ١٠٠/١ ، وراجع طبقات ابن سعد ٤٢٨/٢.
(٢) ٣١٤/٣.
(٣) ٤٢٨/٢.

النزول إلى القبر ، والله تعالى أعلى وأعلم.

رواية المغيرة عن المصطفى : عاش المغيرة خمس سنوات تقريبا من حياته الشريفة المباركة (ﷺ) فما هي الأحاديث التي رواها عنه ؟ أذكر ما وجدت هنا من روايات ومعلومات على النحو التالي :

١- إن أشهر ما وجدته في المصادر والمراجع التي تحدثت عن المغيرة بن شعبة أشارت حديث مسحه (ﷺ) على الخفين ، حيث قال : (وضأت رسول الله (ﷺ) في غزوة تبوك ، فمسح على خفيه) ولا أرى موضوع المسح على الخفين ما يخفى على أحد عرف رسول الله (ﷺ) مما لا يحتاج رواية أو شاهد وشهود ، فضلا عن أنني لم أجد ذكرا لمشاركة المغيرة بن شعبة في غزوة تبوك فيما توافر لي من مصادر على كثرتها وتنوعها ، وإن كان هذا لا ينفي إباحة المسح على الخفين ، كما المعلوم من السنن والآثار ، ومن فقه الطهارة والوضوء.

وفي أسد الغابة [1] روى المغيرة عن النبي (ﷺ) أنه (مسح أعلى الخف وأسفله) مع أن الثابت فقهيا أن المسح أعلى الخف ، ولذا وضع الألباني ـ رحمه الله ـ هذه الرواية في (ضعيف الترمذي).

٢- إلا أنني قرأت حديثا آخر رواه المغيرة بن شعبة عن النبي (ﷺ) جاء فيه : إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنع وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال.

وجدت هذا الحديث في بعض الكتب التي تدرس في المعاهد الأزهرية بمصر العامرة ، وإن كان بعض الناس ادعى لي أنه رويت عنه أحاديث كثيرة ، إلا أنني لم أقع عليها فيما توفر لي من مصادر.

(١) ٩٨/٥.

ثانيا ـ عصر أبي بكر

في نصف نهار يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول رجعت النفس إلى ربها راضية مرضية ، لقد آن للفارس الذي لم يهدأ لحظة من حياته منذ ٢٣ عاما لتبليغ الدعوة إلى الناس ، حتى دانت الجزيرة العربية كلها بدين الإسلام ، لقد آن لهذا الفارس أن يرحل إلى جنان ربه.

وبمجرد وفاته (ﷺ) وفي ذات اليوم ، وربما في ذات الساعة والسويعة تسربت أنباء عن اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ، وهنا أسرع عمر وأبو بكر (ﷺ) إلى السقيفة التي انتهت إلى مبادرة عمر بالبيعة لأبي بكر الذي بويع في نفس الاثنين ، في حين ترك الجثمان الطاهر مسجي في مكانه حتى ليلة الأربعاء التالي ، حتى إن أمهات المؤمنين ما عرفن بالليل إلا من صوت المساحي والفنوس ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كان آخر ما عهد به رسول الله (ﷺ) : (لا يترك بجزيرة العرب دينان [1]).

أدق وصف لبيعة أبي بكر وصف عمر لها بأنها كانت (فلته) أي جاءت دون إعداد مسبق وترتيب مقصود ، يقول عمر : (ولكن الله وقي شرها).

كان الخط العام لسياسة أبي بكر هو استمرار النهج النبوي ، وعدم الخروج عنه ، فواجه أولى الأخطار التي تعرضت لها الدولة بعد وفاة مؤسسها (ﷺ) وهما الردة ومنع الزكاة ، وظهور مدعي النبوة ، مسيلمة وسجاح ... الخ ، وكان لأبي بكر ما أراد.

(١) سيرة ابن هشام ٣٧٧/٢.

وقد تم في عهد أبي بكر أيضا جمع القرآن الكريم بسبب مقتل كثير من القراء في المعارك ، وقد وضع ما جمع في صرة عند أبي بكر حتى مات ، ثم عند عمر ثم حفصة ، وفي عهد عثمان ـ كما سيأتي ـ ستتم كتابة القرآن الكريم.

الإمام عليّ (ﷺ) بايع أبي بكر ، وإن بعد ستة أشهر ، ربما جاء هذا بعد موت السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ وربما لأن عليا أقسم لا يغادر بيته قبل أن يجمع القرآن الكريم ، ولكنه بايع في النهاية ، بل كان إلى جانب أبي بكر وزيرا مشيرا وناصحا ، ومن بعده عمر وعثمان أيضا حتى تفاقمت الأمور في نهاية عهد عثمان ما أدى إلى مصرعه (ﷺ).ومن مواقفه المشهورة مع أبي بكر أن الخليفة حمل سيفه وركب فرسه منطلقا لقتال المرتدين ، ولكن عليا أقنعه بأن المرتدين لو رأوه لقالوا هذا رأس الحرب ضدنا ، ثم تكاثروا عليه فقتلوه ، ومن ثم اقتنع أبو بكر بما أشار عليه ابن أبي طالب.

ولكن أين المغيرة هنا في غمار الأحداث في عهد أبي بكر ؟ لقد وجدناه فيما يلي :

١- بعثه أبي بكر إلى أهل النُّجير ـ بضم النون ـ حصن باليمن منيع قرب حضر موت لجأ إليه بعض أهل الردة ، كما شهد المغيرة فتح اليمامة ، وإن لم يرد له ذكر في أحداث حرب المرتدين.

٢- يحكي المغيرة أنه كان جالسا عند أبي بكر (ﷺ) إذ عرض عليه فرس له ، فقال له رجل من الأنصار : (احملني عليها) فقال أبو بكر : (لأن أحمل عليها غلاما قد ركب الخيل على غراته) بكسر الغين ، أي : شاب قليل التجربة (أحب إليّ من أحملك عليها) فقال الأنصاري لأبي بكر : (أنا خير منك ومن أبيك).

وهنا وجد المغيرة لنفسه دورا يؤديه ويخدمه ، يقول : (فغضبت لما قال ذلك لأبي بكر (ﷺ) فقمت إليه فأخذت برأسه فركبته ، وسقط على أنفه ، فتوعدني الأنصار أن يستقيدوا مني) وبطبيعة الحال الباقي معروف ، سيمنعهم أبو بكر من المساس بالمغيرة بعد أن قام مجاحشا عن الخليفة ، وهذا ما كان.

على أية فهذه الرواية جاءت عن المغيرة وحده ، فهي عهدته ، إن كان فيها مبالغة ، أو كانت مختلقة من أساسها.

ولكن القدر أعطى أبا بكر سنتين فقط في حكم المسلمين ، إذ لم يلبث (ﷺ) أن أسلم روحه الطاهرة مساء ليلة الثلاثاء لثمان بقينا من جمادي الآخرة عام ١٣هـ فاستقبل عمر بخلافته يوم الثلاثاء ، صبيحة موت أبي بكر ، تماما كما حدث بعد وفاته (ﷺ) وكانت تولية عمر بوصية من أبي بكر ، وكان هذا شيئا منطقيا ، عمر رشح أبا بكر في السقيفة ، ثم أوصى أبو بكر لعمر عندما حانت منيته.

لقد كان أبو بكر يرى في عمر (ﷺ) رجل المرحلة القوي الذي سيتمكن من حمل الناس على الجادة والصواب والحق ، فماذا كان من عمر ، وإلى أين انتهى به الأمر (ﷺ) ؟ وماذا كان دور المغيرة الذي اتضح وتوسع بشكل لافت شديد الظهور والتأثير ؟ هذا ما سوف نراه في قابل سطونا ، إن شاء الله تعالى.

ثالثا ـ عصر عمر

أسطيع أحدد السياسة العمرية بما يلي :

١ـ عمر يعتبر نفسه مسئولا مسئولية كاملة أمام الله تعالى كل الصغير والكبير فضلا عن الفتيل والقطمير من شئون الأمة حتى رأى أنه لو عثرت بغلة بالشام لسئل عمر : لماذا لم تمهد لها الطريق وتصلحه.

٢ـ الحزم الشديد مع الولاة وأخذ الحقوق منهم لصالح الناس ، وبرغم هذا كان بعض الولاة يتمكن من تجاوز هذه السياسة ، فهذا معاوية ـ مثلا ـ كان يؤثر بعض المتصلين به أكثر من غيرهم متأثرا في ذلك بفكرة السيادة ـ والزعامة ـ التي كان أبو سفيان ـ الأب ـ يحاول توكيدها لنفسه وقبيلته حتى في ظل الإسلام فقط انتقلت الزعامة قبل فتح مكة من زعامة قريش ضد محمد (ﷺ) إلى زعامة بني أمية ـ في ظل الإسلام ـ على غيرها من القبائل العربية.

هذه هند بنت عتبة ـ أم معاوية ـ هي الأخرى تثبتها وتدعمها في ذهن ابنها وبين الناس ، إذ قالوا لها عن ابنها : (إن عاش ساد قومه) ردت على الفور : (ثكلته إن لم يسد العرب والعجم).

وقدم الأب ـ صخر ـ مع ابنيه عتبة وعنبسة الشآم في ولاية معاوية فكتبت الأم إلى ابنها : (قد قدم عليك أبوك وأخواك ، فاحمل أباك على فرس ، وأعطه ٤٠٠ درهم ، واحمل عتبة على بغل وأعطه ٢٠٠ درهم ، واحمل عنبسة على حمار ، وأعطه ١٠٠ دينار [1]) لكل مقام مطية وركوبة تناسبه ، وكذا العطية تختلف أيضا ، أبو سفيان الأب مطيته فرس + ٤٠٠ درهم ، الثاني بغل + ٢٠٠ درهم ، الأخير ولعله

---

(١) د. محمد حلمي ، الخلافة والدولة ، ص٩١.

الأصغر مقامه أو مطيته حمار ، وعطيته الأصغر ، مائة واحدة فقط ، مع العلم - يا سادة يا كرام - أن الأخوين المذكورين ، ما كانا أخوين شقيقين ، بل كانوا أخوين من الأب فقط ، ليس الأب والأم.

وخرج عمر بن الخطاب إلى الشآم ، فتلقاه عامله معاوية في موكب حافل لم يملك عندما رأى كل هذا إلا أن يقول : (هذا كسرى العرب [1]) ثم يقدم لعامله عدة ملاحظات :

- تروح في موكب وتغدو في مثله.
- الاحتجاب عن ذوي الحاجات ببابك.

ويرد معاوية على الخليفة قائلا : (يا أمير المؤمنين ، إن العدو بنا قريب ، ولهم عيون وجواسيس ، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزا ، فقال عمر : (إن هذا لكيد رجل لبيب ، أو خدعة رجل أريب) ويرد معاوية : (مرني بما شئت ، أصر إليه) ولم يملك عمر غير القول : (ويحك !! ما ناظرتك في شيء في أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ، ما أدرى : آمرك أم أنهاك [2] ؟!).

نوع من المرءوسين نراهم كثيرا في مجال العمل يتمكنون من (تتويه) رؤسائهم ، وجعل العين (تزيغ) حتى ما يعرف رئيس العمل المتمرس البطولة من الخيانة ، ولا الشطارة من الخيابة ، كما سيأتي قول عمر (ﷺ) حتى (غلبتموني على عقلي) وشككتموني في نفسي ، فلم أعد أدري ما الحق وما الباطل ، مع شدة الوضوح والتباين بينهما.

(١) السابق ، ص٩٢.
(٢) تاريخ الطبري ٣٣١/٥.

٣- يقول الطبري [(١)] : (كان من سنة وعمر وسيرته أن يأخذ عماله بموافاته في موسم الحج من كل سنة للسياسة وليحجزهم بذلك عن الرعية) وفي كل موسم كان يسأل الرعية ويستجوب العمال ، ويشتد في حسابهم ، فمن صدرت في حقه شكوى من الناس عزل.

وفي أحد المواسم قدم عليه أهل الكوفة ، فسألهم عن أميرهم عمار بن ياسر ؟ فقال : (مسلم ضعيف) فعزله ، وأرسل مكانه جبير بن مطعم ، فوشى به المغيرة ، وحمل عنه خبرا إلى عمر ، ثم قال له : (ولني يا أمير المؤمنين ؟) ويرد عمر بكل ثقة : (أنت رجل فاسق) يرد الداهية : (وما عليك مني ، كفايتي لك ، وفسقي على نفسي) فولاه عمر ، ثم سأل الناس عن المغيرة ، فقالوا : (أنت أعلم به وبفسقه!!) قال عمر : (ما لقيت منكم يا أهل الكوفة !! إن وليتكم مسلما تقيا ، قلتم : ضعيف ، وإن وليتكم مجرما ، قلتم : فاسق؟! [(٢)]).

وقبل أن يستعمل عمر (ﷺ) المغيرة سأل الناس : (ما تقولون في تولية رجل ضعيف مسلم ، أو رجل قوي مشدد ؟) فقال المغيرة : (أما الضعيف المسلم فإن إسلامه لنفسه وضعفه عليك ، وأما القوي المشدد فإن شداده لنفسه ، وقوته للمسلمين ، فكان المغيرة واليا عليها حتى قتل عمر ، نحو سنتين وزيادة.

فلما ودعه المغيرة إلى الكوفة ، قال عمر : (يا مغيرة ليأمنك الأبرار وليخفك الفجار[(٣)]).

وكان عمر (ﷺ) قد عزم على أن يولى سعد بن وقاص على الكوفة مكان

---

(١) ١٦٦/٤.
(٢) اليعقوبي : ٨٠/٢.
(٣) تاريخ الطبري ١٦٥/٤.

المغيرة ، فقتل قبل أن يبعث سعدا ، فأوصى به من بعده ، وقد التزم عثمان (ﷺ) فعزل المغيرة ، كما سيأتي.

ومن حق القارئ أن يناقشنا فيما سبق ، أي تولية الفاسق القوي ، ففسقه على نفسه وقوته لنا ، أو للرعية ، أما المسلم الضعيف فإسلامه لنفسه ، وضعفه علينا ، يضر بنا ، فهذا غير صحيح على الإطلاق ، حيث لا يمكن في كل الأحوال أن نجد المسلم ضعيفا ، والفاسق قويا ، ولو افترضنا جدلا جدلا أننا مخيرون بين مسلم ضعيف وفاسق قوي ، فإن الأخير مستبعد تماما ، فإن الفسق وحده وحده من أهم أسباب الضعف وعدم الكفاءة ، بل إن كان وزيرا معينا للظالمين أو الفاسقين لا يولى شيئا من أمور المسلمين.

في بعض الكليات التي تشرفنا بالعمل فيها كان العمداء القيمون عليها حراصا أشد الحرص على اختيار وكلائهم ومن ينوب عنهم من أضعف الشخصيات وأكثرها تهافتا وتهالكا ، فإن اشتموا فيه بعض قوة ، أو رائحة قوة سعوا إلى عزله ومحاصرته حتى يقول : (حقي برقبتي).

أحيانا بعض رؤساء الجامعات ينتقي لعمادة كليات جامعته أشد العناصر ضعفا وتبعية حتى يضمن ولاءهم ، وأن لا يخرجوا - من بعيد أو قريب عن النص.

أما بعض المسئولين - رحمنا الله منهم - فإن يتحرى في عماله ونائبيه ، ليس شدة الضعف والتهافت فقط ، بل يختار أردأ العناصر وأدناها وأقلها كفاءة ، وأشدها فسقا وفسادا وفجورا ، وهذا ما يجعل الدول القوية تنهار انهيارا.

إذ يحكى أن أحد أسباب انهيار الاتحاد السوفيتي السابق ١٩٩١ هو أن أحد الجواسيس كانت وظيفة محددة في الإضرار بمصالح الاتحاد ، إنها ببساطة شديدة ،

إذا رشح أكثر من واحد لوظيفة ما ، أو عمل ما ، أو منصب ما ، كان عليه أن يزكى ويختار والأضعف والأردأ ، وكان هذا من أهم سقوط هذا الاتحاد العملاق ، بهذه السرعة ، وبهذه الصورة.

وقد منوا الناس المن والسلوى والرخاء والرفاهية ، كما منينا في مصر بأنه بعد معاهدة السلام عام ١٩٧٩ ستنهمر على رءوسنا الخيرات الوافرة انهمارا ، ولكن شيئا من هذا ما حدث مطلقا ، وعانى الناس ـ خاصة الفقراء ـ من الغلاء الفاحش الذي لا نظير له ، وتخلت الدولة تماما تماما عن جمهور الناس ، وهذا ما لمسته بنفسي في أكرانيا عامي ٩٨ ـ ١٩٩٩.

أما حال مصرنا فحال لا يخفى على إنسان ، من أبناء النيل ، أو من غير المصريين ، فهناك منا نحن المصريين من يرى أن كل من يتقلد منصبا أو وظيفة مرموقة إن هو إلا فاسد ضعيف أفاك ، لا يمتلك من الكفاءة شيئا ، وأبرز ما يميزه نصيبه المتواضع جدا من الكفاءة والقدرة والتأهل ومن الدين والضمير ، كل ما يؤهله هو استعداده التام لعبارات (حاضر ، نعم ، تمام يا افندي) لا رأي له ، لا لون ولا رائحة وإنما طاعة تامة للنظام وعدم خروج عن النص.

والرأي هنا أن التعميم خطأ كبير ، فمن أصحاب المناصب المرموقة والوظائف الكبيرة من هو على درجة عالية من الكفاءة والإخلاص لبلده والتفاني من أجلها ، على خلق ودين وضمير يقظ ، ويسعون دوما لخدمة بلدهم وعملهم ومواطنيهم.

وقد رأيت أمثلة لهؤلاء الرجال في عملي مع عديد من عمداء الكليات التي خدمت فيها ، بدءا من تربية كفر الشيخ إلى كلية الآداب التي انتسب إليها الآن ، وكذا في عملي السابق في أكرانيا ٩٨ ـ ١٩٩٩ حيث رأيت في وزارة الخارجية

عديدا من السفراء ورجال السلك الدبلوماسي والملحقين الإداريين والموظفين ما تقر به عين كل مصري.

وكذا رأيت في الزملاء من أعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم ومن الموظفين والعمال أيضا من هم قرة عين في عملهم وجامعاتهم ، صحيح قابلت عناصر رديئة غير مريحة ، لو وضع أحدهم في المحيط الهادي - على كبره واتساعه - لكدره وأفسده ، وجعله طينا على طين ، أو جعله طينا في طين في طين.

والحق أن هذه العناصر يمكن أن تجدها في أي مكان تعمل فيه ، قليلون أو كثيرون ، وهذه طبيعة الحياة والأحياء.

وفي الجانب المقابل ، أي في المعارضة والمعارضين من لا فقه له ولا فهم ولا وعي ، ليس لديه مشروع عمل ، أو مشروع إصلاح ، إنما يفهم أن المعارضة لا تعني غير أن يعارض غيره في كل كلمة يقولها أو رأي يبديه ، كما يعتبر حزبه أو انتمائه حكرا على أصحابه في المغانم ، وعلى الآخرين أن يضحوا بكل غال وعزيز لديهم فداء الفائزين دوما بالحصاد والثمار ، كما يعلنون ويعلون شعار : (نحن فقط ، ولا أحد غيرنا ، إما نحن وإما نحن) وهذي إحدى علل المعارضة في بلدنا ، وفي النهاية أكرمنا الله بثورتي تونس ومصر ، والبقية تأتي.

على أي الأحوال نعود إلى السياسة العمرية تجاه الولاة لنناقشها ، متابعة الولاة والعمال والموظفين شيء بالغ الأهمية ، وكذا محاسبتهم والتحقيق في الأمور ، والتحقق من حسن سيرهم ، لكن من غير الحكمة والحنكة أنه كلما اشتكت الرعية واليهم عزل وولي غيره ، إذ قد يكون العيب في الرعية نفسها ، مثل الذين حيروا عمر (ﷺ) فإن ولاهم مسلما تقيا قالوا : ضعيف ، وإن ولاهم مجرما ، قالوا : فاسق

لكن الفاجر الفاسق ، لا يولى مطلقا مهما كانت المبررات ، ومن ناحية أخرى فإنه جدير بمن رفضوا البطل الشهيد الذي ستقتله الفئة الباغية ، عمار بن ياسر - رضي الله عنهما - جدير بهؤلاء أن يفرض عليهم المغيرة بن شعبة.

لقد عشنا فترة في جامعتنا المصرية نرى الأساتذة يتصرفون مع طلابهم خاصة كما يحلو لهم ، حتى كان كثير منهم يوصف بأنه (سيد قراره) يحدد لطلابه أسعار المذكرات - ولو كانت غالية مبالغا فيها - صعوبة الامتحان أو سهولته ، نجاح أو رسوب إلى آخره ، ثم عملت في بعض الجامعات - خارج العالم العربي - ورأيت أن على الأستاذ - من باب السلامة - أن ينجح جميع طلابه ، ولا يرسب أحد منهم أو يتخلف ، وأحيانا عليه أن يضع الدرجة النهائية لجميع الطلاب ، مهما دنا مستواهم ، وإلا فالويل والثبور وعظائم الأمور.

فإن رأى الطالب أنه حصل على درجة النجاح ، لكن الدرجة لا تناسبه ، ولا تروق له ، فإنه يستأنف ضد الأستاذ ، وهنا تشكل لجنة لمناقشة الأستاذ على شكوى تلميذه للتحقيق في الأمر ، والتحقق من دقة عمل الأستاذ ، ولا تحقق مع الطالب لنعرف سبب تقصيره.

والرأي هنا أننا لا يحسن أن ننحاز إلى الطالب ولا إلى الأستاذ ، فضلا عن أن نعاقب الأستاذ أو نغيره إذا اشتكى منه الطلاب ، لكن نعطي لكل ذي حق حقه ، لطرفي العملية التعليمية ، أي للأستاذ وتلميذه كليهما.

فإن الجامعة التي تنحاز إلى الطالب فتدلله ستجعل الأستاذ يأخذ بشعار (اربط الحمار مطرح ما يقول صاحبه أو مطرح ما يقول الحمار) أي نجاح جميع الطلاب - وحتى أن يعطيهم جميعا جميعا الدرجة النهائية ، ليريح دماغه وأعصابه ،

وهذه سوسة خطيرة تنخر في العملية التعليمية لتقوضها من الأساس.

على أي الأحوال فإنه لا مراء أن نولي أصحاب الكفاءة ، ننأى بنا وبالرعية عن الفاسقين والفاجرين ، ولكن ابن قتيبة يقول :

السلطان الحازم ربما أحب الرجل فأقصاه واطرحه مخافة ضره فِعْل الذي تلسع الحية إصبعه فيقطعها لئلا ينتشر سمها في جسده وربما أبغض الرجل فأكره نفسه على توليته وتقريبه لغناء يجده عنده كتكاره المرء على الدواء البشع لنفعه

لقد رغب عمر (ﷺ) في إقصاء أبنائه عن المناصب والولايات خوفا عليهم ، كما أدخل ابنه عبد الله ـ كما سيأتي ـ في الستة الذين يختارون الخليفة من بعده ، لكن بصفة مراقب فقط ، يشترك في النقاش والحوار والمفاوضات لكن لا نصيب له من الخلافة ، يكفي واحد فقط من أبناء الخطاب ـ هو عمر ـ في مسئولية الخلافة أو الإمارة.

لكن فيما يتعلق بالمغيرة هل رأى فيه غناء لمن رفضوا ولاية عمار بن ياسر ورغبوا عنه ، فلم يجد ـ في نظره ـ غير هذا الرجل يوليه على الكوفة ؟؟ ربما ، ولكن عمر بعد سنتين تقريبا عزم على عزله ، وعندما دنا أجله وطعن أوصى بعزله وتولية سعد بن أبي وقاص ، وهنا يلاحظ أمران :

١- إن هذا الحور حول تولية المغيرة كان بعد اتهامه بالزنا وهو وال على البصرة ، أي عند توليته الكوفة فيما بعد ، وهو ما يدل على ما أحدثه هذا الاتهام في مستقبل المغيرة ، وفي الإضرار به ، برغم أن الخليفة برأه وجلد الشهود الثلاثة كما سنعرف.

٢ ـ هذا الكلام أيضا سنحتاج إليه عند الحديث عن اغتيال عمر (ﷺ) إذ نسّاءل : إذا عرف المغيرة أنه سيعزل ، هل تراه يسكت ويستسلم للأمر ؟ لا أري هذا ، فما رأي القارئ الكريم ؟.

ولكن نترك هذا النقاش إلى مكانه لنضع جهود المغيرة في عهد عمر (ﷺ) وماهية الأدوار التي قام بها ، على هذا النحو ، نبدأ بهذا الدور الصغير المتواضع ، وإن كان ذا مغزى كبير في فهم شخصية الرجل الذي يحاول دوما أن يفرض نفسه على الحوادث والأحداث والناس ، وأن يكون دوما في هذه الأحداث مؤثرا فاعلا فيها موجها لها الوجه الذي يريد ، أو صانعا لها.

والآن مع أدوار المغيرة في عهد الخليفة الثاني بادئين بما يلي :

أولا ـ مع عائشة أم المؤمنين : أشار رجل من قريش على عمر بن الخطاب (ﷺ) أن يتزوج أم كلثوم ، بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ فيحفظه بعد وفاته ، ويخلفه في أهله ، ويجيب عمر الرجل القرشي : (بلى ، إني لأحب ذاك ، فاذهب إلى عائشة فاذكر لها ذلك ، وعد إليّ بجوابها).

مضى الرسول إلى عائشة فأخبرها بما قال عمر ، فأجابت إلى ذلك قائلة للرجل : (حبا وكرامة).

وعقيب ذلك يدخل عليها المغيرة ليراها مهمومة ، يسألها : (مالك يا أم المؤمنين) فأخبرته برسالة عمر قائلة : (إن هذه جارية حدثة) أي صغيرة السن (وأردت لها ألين عيشا من عمر) فقال المغيرة : (عليّ أن كفيك) هذا الأمر.

وخرج من عندها ليدخل على عمر ، فقال : (بالرفاء والبنين ، قد بلغني ما أتيته من صلة أبي بكر في أهله وخطبتك أم كلثوم) فقال عمر : (قد كان ذاك ؟) وهنا

انبرى المغيرة قائلا :

"إلا أنك - يا أمير المؤمنين - رجل شديد الخلق على أهلك ، وهذه صبية حديثة السن ، فلا تزال تنكر عليها الشيء ، فتضربها ، فتصيح : يا أبتاه !! فيغمك ذلك ، وتتألم له عائشة ، ويذكرون أبا بكر فيبكون عليه ، فتجدد لهم المصيبة - مع قرب عهدها - في كل يوم".

وعلى الفور سأله عمر : (متى كنت عند عائشة ؟ وأصدقني ، قال المغيرة : (آنفا) وهنا فهم عمر الرسالة ، فقال للمغيرة : (أشهد أنهم كرهوني فضمنت لهم أن تصرفني عما طلبت ، وقد أعفيتهم).

وعلى الفور طار المغيرة إلى عائشة فأخبرها بما كان ، وبقرار عمر الذي أمسك عن معاودة السيدة عائشة ، أو مراجعتها في المسألة ، وعليه فإن الرواية السابقة يفاد منها :

١- دور أمهات المؤمنين في الحياة والسياسة - سيما عائشة - ومعرفة الناس لهذا الدور ، وهذا القدر ، ومحاولة الإفادة منه ، كما حدث من المغيرة الآن ، وكما سوف نرى لاحقا.

لقد كان حريا بمن يخطب هذه الصبية بنت أبي بكر أن يطلبها من إخوتها الرجال ، أو من أوليائها من الرجال ، ولكن الذي حدث أن عمر طلبها من أختها عائشة.

٢- إن طلب عمر لم يُرفض لعيب في خلق أو دين ، إنما كان الطموح لدى عائشة أن تزوج أختها الصبية الصغيرة السن لرجل (ألين عيشا من عمر) هذا هو السبب.

٣- إن هذي الخطبة التي لم تتم كانت عقيب وفاة أبي بكر ، وبداية تولي عمر المسئولية بدليل ما قال المغيرة : (... وتجدد لهم المصيبة ، مع قرب عهدها) أي قرب وفاة أبي بكر.

وكل هذا يوكد ويؤكد الدور المبكر الذي لعبه المغيرة في عصر عمر ، وحساسيته المفرطة للأحداث ورقابته اليقظة عليها ، ثم هو ينسجها ويوجهها الوجهة التي تصب في صالحه ، أو الأقل يصبغها بعد نسجها ومعرفته بها ليفيد منها في الاتجاه الذي يريد.

فماذا كان منه أيضا في عصر عمر ؟ نكمل ، فنقول :

ثانيا : الولاية : بدأ المغيرة يسعى إلى الولاية باكرا ، فهو صاحب مقولة (الفاسق فسقه على نفسه ، وقوته للمسلمين).

ففي حروب القادسية التي بدأت ١٤هـ في السنة التالية لتولي عمر عام ١٣هـ كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص أن ابعث إلى (فرح الهند [1]) رجلا ترضاه يكون بحياله ، ويكون ردءا لك إن أتاك شيء من تلك التخوم ، فبعث المغيرة في خمسمائة ، فكان بحيال الأبله من أرض العرب.

ولما نزل سعد بن أبي وقاص في شراف [2] كتب إلى عمر بالموقف العسكري على الجبهة ، فكتب إليه عمر : (إذا جاءك كتابي هذا فعشِّر بالناس) اجعلهم عشرة عشرة (وعرف عليهم) اجعل على كل عشرة عريفا ، قائدا عليهم ، أي (على كل عشرة ...) إلى أن قال له : (واضمم إليك المغيرة بن شعبة في خيله ، واكتب إليَّ بالذي يستقر عليه أمرهم) فما كان من سعد إلا امتثل وأرسل المغيرة.

(١) بضم الفاء وسكون الراء ، وهي الأبُلّة ، ميناء قديم كان على نهر دجلة.
(٢) بضم الشين ، كانت تقع قرب البصرة.

وعندما أرسل سعد وفدا لمفاوضة رستم ـ ممن عليهم مهابة ولهم آراء ـ كان منهم المغيرة [1] وهذا ما انتهى إليه رأي الناس ، والذين انتهت إليهم نجدتهم وأصناف الفضل بين الناس ، فكان منهم من ذوي الرأي ومن النفر الذي أتوا رستم المغيرة بن شعبة ، ومن أهل النجدة فلان ممن كانوا مع الجيش.

وفي سنة ١٥هـ ، أي بعد سنتين من موت أبي بكر وتولي عمر استعمل المغيرة على البصرة ، فبقي سنتين إلى أن رمى بالزنا فعزله عمر ، كما سيأتي.

وبعد عزله عن البصرة انخرط في الفتوحات والحروب ، حتى عاد مرة أخرى واليا على الكوفة سنة ٢١هـ حتى وفاة عمر ٢٣هـ ، وكان عزم على عزله وتولية سعد مكانه ، وعندما مات أوصى من بعده بهذا.

وفي هذي الحروب كثيرا ما يدفع المغيرة نفسه إلى مقدمة القيادة :

١- عندما استشهد النعمان بن مقرن في معارك القادسية ، قال المغيرة : (اكتموا مصاب أميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفيكم لئلا يهن الناس).

٢- وقبل استشهاد النعمان أثخن الرماة عند (نهاوند) في المسلمين الذين طالبوا قائدهم النعمان أن يقاتلوا ، فكان يقول : (رويدا ، رويدا) فقال المغيرة : (لو أن هذا الأمر إليّ علمت ما أصنع) فرد عليه النعمان : (كنت تلي الأمر فتحسن فلا يخذلنا الله وإياك ، ونحن نرجو في المكث مثل الذي ترمي في الحث [2]).

٣- وعند تولي المغيرة البصرة قاتل وفتح عدة بلدان ـ فضلا عما سبق من قتاله مع النعمان ـ حيث كان على ميسرته ، بل عهد عمر إلى القيادة إن استشهد النعمان أن يتولى القيادة حذيفة بن اليمان ، فإن استشهد فالمغيرة ..

---

(١) تاريخ الطبري ٤٩٦/٣.
(٢) السابق ١٣١/٤.

ثالثا : هو أول من وضع ديوان الإعطاء بالبصرة ، ورتب الناس فيه ، فأعطاهم على الديوان ، ثم صار ذلك رسما لهم بعد ذلك يحتذونه [1].

رابعا : والمغيرة أول من سُلم عليه بالأمرة ، أي قول المؤذن عند خروج الإمام إلى الصلاة : (السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله [2] وبركاته).

خامسا ـ واقعة الزنا : وقد استغرقت صفحات كثيرات وحيزا كبيرا واضحا فيما جاء في الروايات عن المغيرة بن شعبة ، نتحدث أولا عن الواقعة ، ثم نقف مع شهادة زياد بن أبيه ، وأخيرا عن المرأة في حياة الرجل ، وهكذا :

١ ـ الواقعة : كما جاءت في المصادر المختلفة والروايات المتطابقة ، هي كالآتي : عن أنس بن [3] مالك أن المغيرة بن شعبة كان يخرج من دار الإمارة وسط النهار ، وكان أبو بكرة يلقاه ، فيقول له : أين يذهب الأمير ؟ فيقول : آتي حاجة فيقول أبو بكرة : حاجة ماذا ؟ إن الأمير يزار ، ولا يزور.

وكانت الجارة التي يأتيها جارة لأبي بكرة ، فبينا هو جالس في غرفة له مع أصحابه وأخويه ـ نافع وزياد ـ ورجل آخر ، يقال له شبل بن معبد ، وكانت غرفة هذي الجارة بحذاء غرفة أبي بكرة ، ضربت الريح باب المرأة ، ففتحته ، فنظر القوم فإذا هم بالمغيرة ينكحها ، فقال أبو بكرة : هذه بلية ابتليتم بها ، فانظروا فنظروا حتى أثبتوا وتأكدوا.

نزل أبو بكرة فجلس حتى خرج عليه المغيرة من بيت المرأة ، فقال له : إنه قد كان من أمرك ما قد علمت ، فاعتزلنا ، ولكن المغيرة ذهب ليصلي بالناس الظهر ،

---

(١) الأغاني ص٥٨٥٠.
(٢) ابن سعد ٣٧٤/٣.
(٣) الأغاني ٥٨٦٧.

فمنعه أبو بكرة قائلا : والله لا تصلي بنا ، وقد فعلت ما فعلت ، لكن الحضور قالوا : دعوه فليصل ، فإنه الأمير ، واكتبوا بذلكم إلى عمر ، فكتبوا إليه فورد كتابه بأن يقدموا عليه جميعا ، المتهم والشهود.

بعث عمر بأبي موسى الأشعري على البصرة ، عزم عليه وأقسم أن لا يضع كتابه من يده حتى يرحِّل - بتشديد الحاء - المغيرة إلى المدينة ، حيث عمر ، وبرغم رجاء أبي موسى أمام الخليفة أن يتجهز أمير البصرة ثلاثا ، ثم يخرج من البصرة ، إلا أن عمر رفض.

ويتحرك أبو موسى من فوره ، حتى أشرف على البصرة ، يقول :

فصلينا صلاة الغداة بظهر المربد ، ودخلنا المسجد ، وهنا رأى رسول عمر عجبا عجابا ، لقد رأى أولى أمارات الفساد ؟ فماذا رأى ؟ رأى الناس (يصلون ، الرجال والنساء مختلطين !!).

ويطير الخبر إلى المغيرة ، أحد رجاله على الفور ، يدخل على الأمير بهذا النبأ : (إني رأيت أبا موسى في جانب المسجد ، عليه برنس) وهنا أدرك المغيرة أن الرسول : (ما جاء زائرا ولا تاجرا) وسرعان ما دخل أبو موسى على المغيرة ومع صحيفة ملء يده ، فلما رآه أعطاه كتاب عمر ، فلما قرأه ، ذهب يتحرك عن سريره ، فقال له أبو موسى : (مكانك تجَهّز) قالها ثلاثا.

لقد أمر أبو موسى أن يرْحل المغيرة من وقته ، فقال الأخير : (قد علمت ما وجهت فيه ، فهلا تقدمت فصليت ؟) فقال أبو موسى : (ما أنا وأنت في هذا الأمر إلا سواء) وطلب المغيرة أن يقيم ثلاثة أيام حتى يتجهز ، لكن أبا موسى رفض قائلا : (قد عزم عليّ أمير المؤمنين - وأقسم - أن لا أضع عهدي من يدي إذا قرأته عليك)

فقال المغيرة : (إن شئت شفعتني ، وأبررت قسم أمير المؤمنين) كيف ؟ تؤجلني إلى الظهر ، وتمسك الكتاب في يدك.

نوع من التماكر للالتفاف حول شدة عمر ، خاصةً مع ولاته ، ولذا بقي أبو موسى يمشي مقبلا ومدبرا ، والكتاب في يده ، لكنه معلق في خيط.

يتجهز المغيرة ، لكنه يبدأ الحركة المضادة للدفاع عن نفسه ، حيث بعث إلى أبي موسى بهدية ، هي جارية عربية ، من سبي اليمامة ، من بني حنيفة ، ومعها خادم لها ، بعد صلاة الظهر سار المغيرة إلى عمر الذي قال له بمجرد استقباله : (إنه قد شهد عليك بأمر ، إن كان حقا لأن تكون مت قبل ذلك كان خيرا لك) صدقت يا عمر ، لو مات قبله كان خيرا وخيرا ، ولكن المغيرة تجاوز المحنة ، وخرج منها ، كيف ؟ أنا أقول لك :

جلس عمر ، ثم دعا المغيرة والشهود ، بدأ بالشاهد الأول أبو بكرة ، سأله عمر : (أرأيته بين فخذيها؟) قال الشاهد : (نعم - والله - لكأني أنظر إلى تشريم جدري بين فخذيها) فقال المغيرة : لقد ألطفت - دققت النظر - فرد عليه أبو بكرة : لم آل أن أثبت ما يخزيك الله به ، فقال له عمر : لا - والله - حتى تشهد ، لقد رأيته يلج فيها ، كما يلج المرود في المكحلة ، فقال الرجل : أشهد على ذلك ، فقال عليّ (ﷺ) : اذهب مغيرة ، ذهب ربعك.

ثم دعا نافعا - أخا أبي بكرة - فسئل : علام تشهد ؟ قال : على مثل شهادة أبي بكرة ، قال عمر : لا ، حتى تشهد أنه كان يلج فيها ولوج المرود في المكحلة ؟ قال : نعم ، حتى بلغ قذذه [1] ، فقال : اذهب مغيرة فقد ذهب نصفك ، ثم دعى

(١) جوانب فرج المرأة.

بالشاهد الثالث شبل بن معبد ، فقال عمر : علام تشهد ؟ قال : عَلَىَ مثل صاحبي ، فقال له عليّ بن أبي طالب : اذهب مغيرة ، ذهب ثلاثة أرباعك.

ونلاحظ هنا أمران :

أولا - التشديد في استنطاق الشهود حتى يقروا بأنهم رأوا المغيرة يلجه فيها كما يولج المرود في المكحلة ، وكان يكفي من الشهود أقل من هذا بكثير.

فعندما رأي هلال بن أمية ما رأى من زوجته ومن معها قال لنبي الله محمد (ﷺ) ما نصه : (يا رسول الله : إني جئت أهلي عشاء ، فوجدت عندها رجلا ، فرأيت بعيني وسمعت بأذني) كان هذا اتهاما صريحا لزوجته بالزنا ، لقد ادعى بأنه :

- جاء إليها عشاء فوجد عندها رجلا ، أي أجنبيا عنها ، ليس بمحرم.
- رأى بعينه.
- سمع بأذنه.

وهنا كان لابد له من البينة أو حد القذف ، إلا أن الله رحِمَهُ بالملاعنة ، كما جاء في بداية سورة النور : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۞ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ ۞ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) [١].

وتمت الملاعنة بين الزوجين ، وكادت المرأة أن تقر ، لكنها قالت في النهاية : لا أفضح قومي.

على أي الأحوال مسألتا المرود والمكحلة فيها تشدد مع الشهود ، هذا ما

(١) ٦ - ٩ النور.

نراه ومع هذا أقر ثلاثة من الشهود بما طلب منهم ، وعلى وجه الدقة ، المرود في المكحلة.

ثانيا ـ جاء الشهود الثلاثة فقط ، وبقي الرابع ، لم يأت حتى تم استدعاؤه ، فهل كان هذا أمرا رتب بليل وظلام ؟؟ ربما.

وفي هذه الفترة حتى يأتي الشاهد الرابع ـ وهو أخ لأبي بكرة أيضا ـ لكن من أبيه ـ قام المغيرة بحملة دعائية واسعة مع فريقين مهمين في المدينة ، هما :

- أمهات المؤمنين.
- المهاجرون.

يبكي إلى هؤلاء وهؤلاء ، فيبكين معه ، ويبكون معه ، تأثرا وشفقة عليه ، حتى لا يجالس هؤلاء الثلاثة أحد في المدينة.

ويبدو أنه بعد حضور زياد بن أبيه ـ ربما بعد الاتفاق معه ـ وربما بدون اتفاق مع الرجل كانت الأرض مهيأة لأن يخرج المغيرة من هذا المأزق ، كما خرج من غيره.

على أي الأحوال ، جاء في النهاية الشاهد الرابع والذي كان مع الشهود عندما رأوا ما رأوا ، وبطبيعة الحال رأي هو نفسه ما رأوا.

جلس له عمر في المسجد ، واجتمع إلى زياد وعمر رؤساء المهاجرين والأنصار بفعل الحملة الإعلامية المتقنة التي شنها المغيرة في مدينتهم ، وهنا سارع المغيرة إلى القول : (ومعي كلمة ، قد رفعتها لأكلم القوم ـ أو لأحكم ـ القوم) لعله كان يروم التأثير في الشهود ، وفي الحضور أيضا ، وقد كانوا رؤساء المهاجرين والأنصار.

ويستبشر عمر عندما رأى زيادا مقبلا عليه : (إني لأرى رجلا لن يخزى الله على لسانه رجلا من المهاجرين).

وتكتمل الصورة عندما نعلم أنه لما شهد عند عمر الشاهد الأول على المغيرة تغير لون عمر ، وعندما شهد الثاني والثالث انكسر عمر انكسارا ، وعندما جاء الشاب زياد يخطر بين يديه ، رفع عمر رأسه إليه صائحا صيحة يكاد يغشى على مَن يسمعها ، قائلا لزياد : (ما عندك يا سَلح العقاب ؟) سلح العقاب كالشبل من الأسد ، يقصد أيها الشاب الجريء.

ولم يفوت المغيرة الفرصة ، لقد قام على الفور إلى زياد قائلا له : (لا مخبا لعطر بعد عروس) ثم بدأ المغيرة يعظ : (اذكر الله ، واذكر موقفك يوم القيامة ، فإن الله وكتابه ورسول وأمير المؤمنين قد حقنوا دمي ، إلا أن تتجاوز ما رأيت إلى ما لم تر ، فوالله لو كنت بين بطني وبطنها ما رأيت أين سلك ذكري منها) وهنا ترنقت - تغيرت - عينا زياد ، واحمر وجهه ، فكانت شهادته كالآتي :

- (أما أن أحق ما حق القوم ، فليس ذلك عندي) أي أنه لا يقول (كالمرود في المكحلة) ولكن ماذا يا زياد ، يا سلح العُقاب؟.
- ولكني رأيت مجلسا قبيحا ، وسمعت نفسا حثيثا وانبهارا ، ورأيته - أي المغيرة - متبطنها.

وهنا جاء السؤال محددا - كما قيل للثلاثة قبله - أرأيته يدخله كالمرود في المكحلة ؟ قال زياد :لا.

وفي رواية أخرى لشهادة زياد : رأيته - أي المغيرة - رافعا برجليها ، ورأيت خصيته تترددان بين فخذيها ، ورأيت حفزا شديدا ، وسمعت نفسا عاليا ، وكان لابد

من السؤال : أرأيته يدخله ويخرجه كالمرود في المكحلة ؟ فقال لا ، فقال عمر : (الله أكبر ، قم إليهم ـ الشهود الثلاثة ـ فاضربهم) فقام إلى أبي بكرة فضربه ثمانين ، بدأ به ، ووضع بكل توكيد كل غله وغضبه في هذا الضرب الشديد الذي لا نظير له ، ثم ضرب الباقين ، وأعجبه قول زياد ، ودرأ عن المغيرة الرجم.

ومن الملاحظ هنا ما يلي :

١ـ السماح للمغيرة نفسه أن يضرب الشهود ، وهو لاشك مبالغ في إيلامهم والانتقام والتشفي منهم.

٢ـ إن شهادات الثلاثة تطابقت بشكل كامل وتام ، ولا يمكن أن تدرأ شهادة واحدة ثلاث شهادات بهذه الصورة ، خاصة أن الشهادة الرابعة لم تكذب ما قالوا ، ولم تفنده ، بل هي أكدت ما قالوا ، فكل ما قال زياد هو عملية زنا واضحة شديدة الوضوح ، وإن كان زياد شديد الدقة ، لكنه أو لكن المشكلة كانت في هذا السؤال العجيب : (... كالمرود في المكحلة) تشدد وتزيد ليس في محله.

ويرغم الآلام المبرحة في ظهر أبي بكرة ، إلا أنه قال وبعد أن ضرب : فإني أشهد أن المغيرة فعل كذا وكذا ، فهم عمر بضربه ـ مرة أخرى ـ لولا الإمام عليّ (ع) الذي قال لعمر : (إن ضربته رجمت صاحبك) ونهاه عن ذلك ، فأنقذ المسكين من ٨٠ جلدة أخرى.

ذلك أن عمر إذا ضرب أبا بكرة مرة أخرى فقد جعل شهادته بشهادتين ، فوجب على المغيرة بذلك الرجم ، حيث اكتملت على المغيرة ٤ شهادات كاملات.

ويستتيب عمر أبا بكرة ، ويأبى الرجل متسائلا : (تستتيبني لتقبل شهادتي؟) قال عمر : (أجل) قال أبو بكرة : (لا أشهد بين اثنين ما بقيت في الدنيا).

وينتشي المغيرة بهذا الانتصار ليقول للشهود بعد أن قام بجلدهم بنفسه : (الله أكبر ، الحمد لله لذي أخزاكم) ولكن عمر يقول له : (اسكت ، أخزى الله مكانا رأوك فيه).

بل قيل إن عمر كان إذا رأى المغيرة قال : (يا مغيرة ، ما رأيتك إلا خشيت أن يرجمني الله بالحجارة).

وكأن المغيرة لم يشفَ صدره من الشهود الثلاثة بعد أن جلدهم بنفسه وبكل غلظة وشدة ، بل قال لعمر : (اشفني من هؤلاء الأعبد) فقال عمر : (اسكت ، أسكت الله نأمتك ـ نفسك ـ أما والله ، لو تمت الشهادة لرجمتك بأحجارك) وفي النهاية من قال بأن المشهود عليه هو الذي سيقوم بنفسه بضرب الشهود وجلدهم.

أبو بكرة (ﷺ) أقام على شهادته ، ولم يتراجع عنها طوال حياته ، وكان لا يمل يردد : (والله ما أنسى رقط فخذيها) لكنه أضرب عن الشهادة بقية حياته ، فإن دعي ليشهد قال : (اطلب غيري ، فإن زيادا أفسد عليّ شهادتي).

إنه لا ينسى الألم الشديد لهذي السياط التي ألهبت ظهره ، حتى إن أمه أمرت بشاة فذبحت ، وجعلت جلدها على ظهره ، وما ذاك إلا بسبب الضرب الشديد.

المرأة التي رمي بها المغيرة كانت تسمى أم جميل ، كانت أرملة الحجاج بن عبيد الثقفي ، هذي الأرملة كانت تختلف في حوائجها إلى المغيرة فيقضيها لها ، ويقول الطبري [1] عن هذه الأرملة بأنها : (كانت غاشية للمغيرة ، وتغشى الأمراء والأشراف ، وكان بعض النساء يفعلن ذلك في زمانها).

---

(١) ٤/٧٠.

وتمر الأيام سراعا ، لقد وافت هذه المرأة موسم الحج (ووافقت عمر بالموسم ، والمغيرة هناك - أي في الموسم ، فقال له عمر : أتعرف هذه ؟ قال : نعم ، أم كلثوم بنت علي) ولا ينطلي هذا على عمر الذي قال له : (أتتجاهل عليّ ، والله ما أظن أبا بكرة كذب عليك ، وما رأيتك إلا خفت أن أرمي بحجارة من السماء !!).

أما عليّ أبي طالب فقد قال : (لئن لم ينته المغيرة لأتبعته أحجاره) ، وفي هذه القصة أيضا ينشد حسان بن ثابت شاعر الرسول الأعظم (ﷺ) :

لولا أن اللؤم ينسب كان عبدا *** قبيح الوجه أعور من ثقيف

تركت الدين والإيمان جهلا *** غداة لقيت صاحبة النصيف

وراجعت الصبا وذكرت لهوا *** من القينات والغمز اللطيف

ومما يذكر هنا أن المغيرة لما شخص إلى عمر رأى في طريقه جارية فأعجبته ، فخطبها إلى أبيها الذي قال له : (وأنت على هذه الحال ؟) قال المغيرة : (وما عليك ، إن أعف فهو الذي تريد ، وإن أقتل ترثني).

وقد تزوجها بالرقم - بالقرب من وادي [1] القرى - وقدم بها على عمر ، الذي قال له : (إنك لفارغ القلب ، طويل الشبق).

خلاصة ما سبق أنا أبا بكرة بقى مصرا على شهادته طوال حياته ، وبدا الرأي العام - كما تشير الروايات - مقتنعا تماما تماما بقول أبي بكرة (رضي الله عنه) .

ولكن لا بأس من إعادة رواية هذه القصة كما جاءت في تاريخ الطبري ؛ هي توكد مرة أخرى ما سبق ، كما تضيف بعض التفاصيل المهمة ، بعدها نقتبس

---

(١) ٤/٦٩.

الروايات التي تشير إلى موقف الرأي العام من القضية وموقف المغيرة من الزواج والنساء.

استعمل عمر المغيرة على البصرة ١٥ هـ فبقي سنتين فقط ، ثم رمى بما رمى به ، ففي ١٧ هـ ولي عمر أبا موسى الأشعري البصرة آمرا إياه أن يشخص المغيرة إلى عمر بالمدينة ومعه الشهود.

كان المغيرة يختلف إلى هذه الأرملة ـ أم جميل ـ ويدخل عليها ، فبلغ ذلك أهل البصرة فأعظموه ، فخرج المغيرة ، فدخل عليها ـ يوما ـ وقد وضعوا الرّصد ، فانطلق القوم الذين شهدوا جميعا فكشفوا الستر ، وقد واقعها ، فوفد أبو بكرة إلى عمر فسمع صوته ، وبينهما حجاب ، فقال : أبو بكرة ؟ قال : نعم ، قال عمر : لقد جئت بشر ، قال : إنما جاء به المغيرة ، ثم قص عليه القصة ، فبعث عمر أبا موسى الأشعري.

وفي تاريخ الطبري [1] أيضا : كان المغيرة ينافر أبا بكرة دوما ، وكانا متجاورين بالبصرة بينهما شارع ، وكانا في مشربتين متقابلتين لهما في داريهما ، في كل واحدة منهما كوة مقابلة الأخرى.

فاجتمع إلى أبي بكرة نفر يتحدثون في مشربته ، فهبت ريح ففتحت باب الكوة ، فقام أبو بكر ليصفقه ، فبصر بالمغيرة ، وقد فتحت الريح باب كوة مشربته ، وهو بين رجلي امرأة ، فقال للنفر : قوموا فانظروا ، فقاموا ونظروا ، ثم قال : اشهدوا ، قالوا : من هذه ؟ قال : أم جميل ، فقالوا : إنما رأينا أعجازا ، ولا ندري ما الوجه ؟.

---

(١) ٦٩/٤.

إلا أنهم صمموا حين قامت فعرفوها ، فكتبوا إلى عمر الذي أرسل على الفور أبا موسى الأشعري ، فماذا قال له ؟ قال بالنص ما يلي : (إني أبعثك إلى أرض قد باض بها الشيطان وفرخ) صدقت يا عمر ، فإن بلدا يحكمه ويديره المغيرة لا يمكن إلا أن يبيض فيه الشيطان ويفرخ ، وقد سبق أن نقلنا أن أبا موسى ومن معه عندما دخلوا مسجد البصرة وجدوا فيه عجابا ، وإنها لإحدى الكبر ، لقد وجدوا النساء والرجال يصلون في المسجد مختلطين ، دون فواصل بينهم.

ويستمر عمر في نصح عامله الجديد : (فالزم ما تعرف ، ولا تستبدل فيستبدل الله بك) ويستشعر الرجل عظم المسئولية الملقاة عليه وثقلها ، فيقول : (يا أمير المؤمنين ، أعنى بعدة من أصحاب رسول الله (ﷺ) من المهاجرين والأنصار ؟ فإنهم كالملح ، لا يصلح الطعام إلا به) قال له عمر : فاستعن بمن شئت.

وهنا استعان أبو موسى برجل أو رجلين من أصحاب المصطفى (ﷺ) ؟ كلا ، لقد استعان ببضعة وعشرين رجلا ، فقط ؟ فقط.

وعندما أناخ الركب بالمربد طارت عيون المغيرة تبلغه الخبر ، وهنا تأكد الرجل أن أبا موسى ما جاء زائر ولا تاجرا ، ولكنه جاء أميرا ، في الكتاب الذي حمله إلى أمير البصرة من عمر ٤ كليمات فقط :

- عزل فيها .
- عاتب.
- استحث.
- أمر.

واجتمع الشهود في مجلس عمر لمواجهة المغيرة الذي قال لعمر : سل هؤلاء ، كيف رأوني . مستقبلهم أو مستدبرهم ؟ وكيف رأوا المرأة أو عرفوها ؟ فإن

كانوا مستقبلي ، فكيف لم أستتر ؟ أو مستدبري ؟ فبأي شيء استحلوا النظر إليّ في منزلي على امرأتي ؟ والله ما أتيت إلا امرأتي ، وكانت تشبهها.

وبدأ أبو بكرة فذكر أنه رآه بين رجلي أم جميل ، وهو يدخله ويخرجه كالمرود في المكحلة ، وسئل الشاهد الأول كيف رأيتهما ؟ قال : مستدبرهما ، قيل للشاهد : فكيف استبنت رأسها ؟ قال : تحاملت.

ثم دعى بشبل بن معبد ، فشهد بمثل ذلك ، فقال عمر : استدبرتهما أو استقبلتهما ، قال : استقبلتهما ، وشهد نافع بمثل شهادة أبي بكرة ، ثم جاء دور الشاهد الرابع زياد الذي قال :

رأيته - المغيرة - جالسا بين رجلي امرأة ، فرأيت قدمين مخضوبتين تخفقان واستين مكشوفين ، وسمعت حفزانا شديدا.

لكن : هل رأيت كالميل في المكحلة ؟ قال : لا ، ثم سئل زياد : هل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكني أشبهها ، قال له عمر : فتنح وأمر بالشهود الثلاثة ، فجلدوا ، كما سلف.

وبرغم أن المغيرة خرج من الاتهام بجلد الشهود إلا أن الناس كانوا على شهادة أبي بكرة وإصراره ، فقد روي [1] أن الجمال بالكوفة كان ينتهي إلى أربعة نفر ، المغيرة بن شعبة ، وجرير بن عبد الله والأشعث بن قيس وحجر بن عدي ، وكلهم كان أعور ، فكان الثلاثة - المغيرة وجرير والأشعث - كانوا يوما متواقفين في حي من أحياء الكوفة ، اسمه (الكُناسة) فطلع عليهم أعرابي ، فقال المغيرة لزملائه (دعوني أحركه) أي أستفزه وأستنفره ؟ فقالا له : لا تفعل ؛ فإن للأعراب جوابا يؤثر

(١) الأغاني ، ص٥٨٦٠.

قال المغيرة : لابد ، ودار هذا الحوار بين الأعرابي وبين المغيرة :

- يا أعرابي : هل تعرف المغيرة بن شعبة ؟.
- نعم ، أعرفه أعور زانيا.

وجم المغيرة وانصدم بهذا الجواب ، لكنه تجلد ، فقال للأعرابي :

- هل تعرف الأشعث بن قيس ؟
- ذاك رجل لا يعرى قومه.
- وكيف ذاك ؟
- لأنه حائك ابن حائك.
- فهل تعرف جرير بن عبد الله ؟
- كيف لا أعرف رجلا لولاه ما عرفت عشيرته.

انظر ـ أيها القارئ الكريم ـ الثلاثة كلهم كان أعور ، ولكن الأعرابي ما تطرق إلى تلك الصفة فيهم أو السمة إلا المغيرة فإنه وصفه بأنه أعور زان.

وفي مناسبة أخرى بالكوفة أيضا رأى المغيرة أعرابيا فدار بينهما هذا الحوار :

- من أين أقبلت يا أعرابي ؟
- من السماوة.
- فكيف تركت الأرض خلفك .
- عريضة أريضة (مليئة بالعشب).
- وكيف كان المطر ؟
- عفي الأثر ، وملأ الحفر.
- ممن أنت ؟

- من بكر بن وائل.
- فكيف علمك بهم ؟
- إن جهلتهم ، لم أعرف غيرهم .
- فما تقول في بني شيبان ؟
- سادتنا وسادة غيرنا.
- فما تقول في بني ذهْل ؟
- سادة نوكي.
- فقيس بن ثعلبة ؟
- إن جاورتهم سرقوك ، وإن ائتمنتهم خانوك.
- فبنو تيم بن ثعلبة ؟
- رعاء النقد [1] ، وعراقيب الكلاب.
- فما تقول في بني يشكر ؟
- صريح تحسبه مولى [2].
- فعِجْل ؟
- أحلاس الخيل [3].
- فحنيفة ؟
- يطعمون الطعام ، ويضربون الهام.
- فعنزة ؟
- لا تلتقي بهم الشفتان لؤما [4].

(١) نوع من الغنم قبيح المنظر ، يضرب بها المثل في الذلة ، فيقال (هو أذل من النقد) بفتح القاف.
(٢) لأن في ألوانهم حمرة.
(٣) ملازمون للخيل ، فهم فرسان شجعان.
(٤) لا يكفون عن الطعن في الناس.

وبعد هذي المعلومات الوفيرة عن القبائل ومناقبها ومثالبها ، قال المغيرة :

- فأخبرني عن النساء ؟
- النساء أربع :

* الربيع المربع ، التي إذا نظرت إليه سرتك ، وإذا أقسمت عليها أبرتك.
* جميع تجمع ، فالمرأة تتزوجها ولها نَشَب ، فتجمع نشبك إلى نشبها ، أي تجمع قوتك إلى قوتها.
* الشيطان السمعمع ، الكالحة في وجهك إذا دخلت عليها ، والمولولة في أثرك إذا خرجت.
* وأخيرا الغل الذي لا يخلع ، فبنت عمك السوداء القصيرة ، الفوهاء الذميمة التي قد نثرت لك بطنها ، إن طلقتها ضاع ولدك ، وأن أمسكتها فعلى جدع أنفك.

وهنا كان على المغيرة أن يصحح للأعرابي عندما قال (جدع أنفك) فقال : (بل أنفك) أنت يا أعرابي.

وجاء السؤال الأخير للأعرابي ، والمتوقع : ما تقول في أميرك المغيرة بن شعبة ؟ ويرد الرجل على الفور : (أعور زناء) وبصيغة المبالغة ، وليس بصيغة اسم الفاعل (زانٍ) ويوضح مرافق الأمير فيبادر إلى قوله : (فض الله فاك ، ويلك !! هذا الأمير المغيرة) ويستدرك على الفور : (إنها كلمة - والله - تقال) أي كلمة وعبارة يقولها الناس ويرددونها ، وتشيع بينهم.

ولكن المغيرة ينطلق بالأعرابي إلى منزله وعند المغيرة أربع نسوة ، وستون أو سبعون أمة ، وعندها لا يملك الضيف إلا أن يقول للمغيرة : (أيزني الحر وعنده مثل هؤلاء النسوة من الزوجات والإماء !!).

ويأمر المغيرة نساءه جميعا : (ارمين إليه بحلاكن) فخرج الأعرابي بملء كسائه ذهبا وفضة ، ولعله لا يعود مرة أخرى ليردد وصف الأمير بالزنا ، سواء باسم الفاعل أو بصيغة المبالغة ، بكسر اللام.

أي أن المغيرة تمكن من تجاوز عقوبة الرجم ، لكنه لم يتمكن من رد التهمة عن نفسه أمام الناس الذي كرروا وبحضوره وصفه بالزنا.

يبقى أن نذكر بعض أقوال المغيرة وأخباره في النساء والزواج والزوجات مثل:

- كان المغيرة نكاحا للنساء ، كثير النكاح والزواج ، ذو خبرة وتجربة في هذا الشأن ، إذ قال :

  صاحب الواحدة إن مرضت مرض ، وإن حاضت حاض ، وصاحب المرأتين بين نارين تشتعلان.

- كان ينكح أربعا أربعا ، فقد كان مزواجا مطلاقا ، كثيرا ما كان يجمع زوجاته الأربع ، فيصفهن بين يديه ، يوقفهن صفا أمامه ، ثم يقول لهن : أنتن حسنات الأخلاق ، طويلات الأعناق ، ولكني رجل مطلاق ، فأنتن الطلاق ، أي : أنتن طالقات.

- أحصن المغيرة إلى ٨٠ امرأة ، فيهن ٣ بنات لأبي سفيان ابن حرب ، وفيهن حفصة بنت سعد بن أبي وقاص ، وهي أم ابنه حمزة بن المغيرة.

  وهذا يعني أن معاوية بن أبي سفيان كان خال أبنائه ، وهذه آصرة قوية بين الرجلين ، الداهيتين.

- ومن أقواله في النساء أيضا : النساء أربع ، والرجال أربعة ، رجل مذكر وامرأة

مؤنثة ، فهو قوام عليها ، ورجل مؤنث وامرأة مذكرة فهي قوامة عليه ، ورجل مذكر وامرأة مذكرة فهما كالوعلين ينتطحان ، ورجل مؤنث وامرأة مؤنثة فهما لا يأتيان بخير ولا يفلحان.

- وذكرت المرأة في مجلس للمغيرة فقال :

أنا أعلمكم بهن ، تزوجت ٩٣ امرأة ، منهن سبعون بكرا ، فوجدت اليمانية كثوبك أخذت بجانبه ، فاتبعتك بقيته ، ووجدت الربيعية أمتك ، أمرتها فأطاعتك ، ووجدت المضرية قِرنا ساورته ، فغلبته أو غلبك.

- ويقول المغيرة : نكحت أكثر من ثمانين امرأة ، فما أمسكت امرأة منهن على حب أمسكها لولدها ولحسبها ولكذا ولكذا.

- كان المغيرة شديد المراقبة لنسائه في أكلهن ، فقد رأى امرأة له تتخلل بعد صلاة الصبح فطلقها ، فقالت : علام طلقتني ؟ رآك تتخللين فظن أنك أكلت ، فقالت : أبعده الله ! والله ما أتخلل إلا من السواك.

- آخر ما نذكره هنا أنه روى أن المغيرة ركب إلى هند بنت النعمان بن المنذر ، وهي بدير هند ـ بالحيرة ـ متنصرة عمياء ، عمرت تسعين سنة ، فقالت له :

- من أنت ؟
- أنا المغيرة بن شعبة.
- أنت عامل هذه المدرة ؟ تقصد الكوفة.
- نعم.
- فما حاجتك ؟
- جئت خاطبا إليك نفسك.

- أما والله وكنت جئت تبغي جمالا أو دينا أو حسبا لزوجناك ، ولكنك أردت أن تتشرف بي في محافل العرب ، فتقول : تزوجت بنت النعمان بن المنذر وحق هذا الصليب أمر لا يكون أبدا ، أو ما يكفيك فخرا أن تكون في ملك النعمان وبلاده ، تديرهما كما تريد.

ثم بكت ، ولكن المغيرة أراد استمرار الحوار ، فسألها :

- أي العرب كان أحب إلى أبيك ؟
- ربيعة.
- فأين كان يجعل قيسا ؟
- بحيث كان يراهم من طاعته.
- فأين كان يجعل ثقيفا ؟
- رويدا ، لا تعجل : بينا أنا ذات يوم جالسة في خدر لي إلى جنب أبي ، إذ دخل عليه رجلان ، أحدهما من هوازن ، والآخر من بني مازن ، كل واحد منهما يقول :

إن ثقيفا لم تكن هوازنا *** ولم تناسب عامرا ومازنا

إلا قريبا فانشدوا المحاسنا

خرج المغيرة من عندها ، وهو يقول :

أدركت ما منيت نفسي خاليا *** لله درك يا ابنة النعمان

على أية حال يمكن القول بعد هذا كله بأن المغيرة إذا كان تمكن من درء حد الرجم عن نفسه ، فإنه ما استطاع أن يقنع الناس على أيامه وفي عهده ، بل في ولايته الثانية في الكوفة.

كما أنه فقد ولاية البصرة بعد هذا الاتهام ، ولم يستمر في البصرة إلا قرابة السنتين ١٥ ـ ١٧ هـ ، وبعد سنوات من هذي الحادثة تمكن من الفوز بولاية الكوفة أيضا في حوالي سنتين أيضا ٢١ ـ ٢٣ هـ ، وقيل بأن عمر (ﷺ) عزم على عزله ، فلما لم يتمكن ، أوصى بعزله لمن يأتي بعده.

وكان الناس يعجبون من هذا الرجل كيف غضب عليه عمر فعزله عن البصرة ، لكنه ولاه الكوفة ، فعن محمد بن سيرين (ت ١١٠هـ) قال : كان الرجل يقول للآخر : غضب الله عليك ، كما غضب أمير المؤمنين على المغيرة ، عزله عن البصرة ، فولاه الكوفة.

بقي من آثار المغيرة وسيرته في عصر عمر أمران :

١ـ إن المغيرة هو من أطلق على عمر لقب أمير المؤمنين ، هذا اللقب الذي أعطاه الرسول (ﷺ) لرجل آخر ، كما سيأتي ، وهذه مأثرة تحسب للرجل عند عمر (ﷺ).

٢ـ إن المغيرة ادعى أن الرسول كناه ابا عيسى ، لكن عمر رفض متسائلا : (فهل كان لعيسى من أب ؟) فقيل : إن الرسول هو من كناه بهذا فقال عمر : (إن الرسول (ﷺ) قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) وهو ما لا يملكه أحد لنفسه حتى عمر.

وفي عصر عمر نختم الأمر بمقتله (ﷺ) حادثة زلزلت أركان المسلمين ، إنها ـ في نظري ـ لم تك حادثا فرديا عابرا ، بل قتل عمر نتيجة مؤامرة ، سوف نشير إلى أطرافها.

مقتل عمر بن الخطاب

قتل أربعة من خلفاء محمد (ﷺ) جراء مؤامرات ثلاث ، بدءا من عمر بن الخطاب ومرورا بعثمان بن عفان ، وانتهاء بأمير المؤمنين عليّ ، ثم ابنه الحسن ، لم يك القتل لأي واحد من هؤلاء حدثا فرديا عابرا ، بل كان نتيجة تآمر وتعاضد بين عدة أطراف ، بقصد أو بدون ، بالتنسيق بين هذه الأطراف ، أو بدون تنسيق ، أو حتى ربما دون معرفة الأطراف لبعضها ، بل لعل كل فريق وكل طرف كان يعمل وحده ، ويسير نحو وجهته.

أكبر هذي المؤامرات والتآمرات على الإطلاق كان التآمر على قتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ﷺ) تلك المؤامرة التي تكشفت كل أطرافها وتفاصيلها بفضل القبض على القاتل حبي ، وهو الشقي - أو أشقى الآخرين - عبد الرحمن بن ملجم.

ذاك أنه في لحظة من لحظات التيه والتوهان وضياع الطريق اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل الثلاثة معاوية ، وعمرو ، وابن أبي طالب ، فشلوا مع الأولين ، ونجح ابن ملجم في قتل الإمام عليّ ٤٠ هـ.

وفي قتل عثمان بن عفان ٣٥ هـ اتضحت جميع الأحداث والحوادث التي أدت إلى مقتل الخليفة ، لكن الذي - أو الذين - قاموا بالتنفيذ لم يعرفوا بشكل قاطع إلى الآن.

وفي مقتل عمر بن الخطاب ٢٣ هـ عرف القاتل تماما ، إنه غلام المغيرة بن شعبة المسمى (أبو لؤلؤة) فيروز المجوسي ، فلماذا قتل الخليفة يا ترى ؟ شكا إليه سيده المغيرة الذي طالبه بمبلغ كبير ، ولما لم ينصفه عمر قام بقتله بهذه الصورة.

وهذا أمر لا يصدق أن يقوم إنسان بقتل الخليفة ـ لأنه ـ في رأيه ـ لم ينصفه من سيده ، أرى أن هذا ليس سببا كافيا لهذا الاغتيال والقتل بهذه الصورة.

ومن ثم فإننا ننظر إلى مقتل عمر على أنه تم نتيجة مؤامرة اشترك فيها أكثر من طرف ، ومن حسن الحظ أن الخنجر الذي قتل به عمر رؤي مع القاتل أبي لؤلؤة ومعه الهرمزان وجفينة النصراني ، هذا خيط مهم مفيد ، ولكن عبيد الله بن عمر دمر هذا الدليل المهم عندما حمل سيفه فقتل الهرمزان وجفينة وابنة لأبي لؤلؤة.

ومن ثم فإن ما نكتبه هنا يعتمد على استبعاد أن تكون هذه الجريمة البشعة هي جريمة فردية ارتكبها فيروز انتقاما من الخليفة الذي لم ينصفه من سيده المغيرة بل نرى أن هذه مؤامرة كبرى اشترك فيها رجال كثيرون وأطراف عديدون.

وسوف نبدأ من سيد فيروز نفسه ، أي من المغيرة بن شعبة ، نضع أمام القارئ عدة ملاحظات :

أولا ـ ماذا نعرف عن القاتل ؟ إنه أبو لؤلؤة فيروز المجوسي ، ولكن في تاريخ الطبري [1] يوصف بأنه كان نصرانيا ، سواء أكان هذا أو ذاك فهو لم يك مسلما على أي حال.

لكن من أين جاء هذا القاتل ، ومن جاء به إلى المدينة ؟ لقد كان عمر (ﷺ) لا يسمح لأحد من السبي ـ إذا بلغ ـ واحتلم ، وجرت عليه الأمواس أن يقيم في عاصمة الخلافة ، قرار حكيم صائب ، ولكن هذا القرار الحكيم والصائب قد تم تجاوزه والالتفاف عليه ، فتمكن بعض العلوج ـ الكفار من غير العرب ـ وقد بلغوا وأصبحوا رجالا ، تمكن بعض هؤلاء العلوج من الإقامة في المدينة ، وكل له قصة ،

---

(١) ١٩٠/٤.

ووراءه حكاية ، وخلفه وساطة ، ومنهم فيروز هذا ، إذ هو في الأصل من سبي نهاوند.

هذا الفيروز جاء من الكوفة التي ذهب إليها المغيرة أميرا عليها من قبل عمر عام ٢١ هـ ، أي قبيل مقتله بعامين اثنين فقط.

ماذا كان يعمل في الكوفة غلام الأمير المغيرة هذا ؟ فمن الذي توسط له لدى عمر ؟ سيده المغيرة هو الذي أغرى عمر وأقنعه بأن هذا الغلام : (صنع) يعرف كثيرا من الحرف والصنايع ، هو حداد نجار نقاش ، يصنع الرحى ، حتى أنه افتخر أمام عمر بأنه يمكن أن يصنع رحى تدور بالريح ، أي خفيفة جدا لدرجة أن الريح يمكن أن تجعلها تعمل وتدور وتطحن.

وعندما جاء إلى المدينة كان يمسح على رءوس السبى ، يبكي ويقول : (لقد أكلت العرب كبدي) كان شديد التعصب ضد العرب ، ولا يعقل أن هذا شعور طرأ عليه في المدينة فقط ، ولم يك موجودا لديه حين كان في الكوفة.

ولا أصدق أن هذا كله كان خافيا على سيده المغيرة ، فمثل المغيرة لا يخفى أولا يمكن أن يخفى عليه شيء كهذا ، لابد أنه كان على علم تام واطلاع شديد على سمات غلامه وخصائصه ، بل وخفايا نفسه.

ثانيا ـ لقد جاء في الإصابة لابن حجر [1] قال المغيرة : أنا أول من رشا في الإسلام ، جئت إلى (برقاء) حاجب عمر ، وكنت أجالسه ، فقلت له : (خذ هذه العمامة ، فالبسها ، فإن عندي أختها).

---

(١) ١٣/٦.

فكان يأنس بي ، ويأذن لي أن أجلس من داخل الباب ، فكنت آتي وأجلس في القائلة ، فيمر المار فيقول : إن للمغيرة عند عمر منزلة ، إنه ليدخل عليه في ساعة لا يدخل فيها أحد ... انتهى الخبر.

ترى هل كان المغيرة يجلس إلى خادم عمر وفي ساعة القيلولة ليقال : إنه أثير لدى عمر ؟ كلا ، لقد كان يجلس مع الخادم لاستطلاع أحوال عمر والتجسس عليه ، تماما كما سيفعل مع عثمان بن عفان.

وانظر ـ عزيزي القارئ ـ إن كنت من الناظرين ، ومن ذوي النظر والإمعان : لقد كان المغيرة يجلس من داخل الباب ، لماذا ؟ ليكون قريبا جدا من عمر ، يعرف ما يقول وما يكون ، وماذا يقول زواره ، وماذا يقول لهم ، بل ماذا يدور داخل بيت عمر من الدقائق والتفاصيل حتى حديث النفس للنفس.

ومن ثم فإن عمر عزم على عزل المغيرة قبل مقتله ، ولا إخال المغيرة لم يعرف بهذا ، بل إن مصاحبته لحاجب عمر ، وجلوسه وقت القيلولة ، ومن داخل باب عمر ليمكنه من معرفة الصغير والكبير والفتيل والقطمير من شأن عمر ، خاصة تولية الولاة وعزلهم.

وعندما باغتت المؤامرة عمر أوصى الخليفة من بعده بعزل المغيرة عن الكوفة وتولية سعد بن أبي وقاص مكانه ، وطار الخبر إلى المغيرة ـ كما سيأتي ـ وعرف الخليفة عثمان أن خادمه وحاجبه هو الذي سرب الخبر إلى المغيرة ، حيث لم يعلم به إلا عثمان وسعد فقط.

وأظن أن ولاية الكوفة عند المغيرة لهي أهم وأغلى من كل الرقاب والرءوس ، ولو كانت رأس عمر.

ونبدأ قصة مقتل عمر بهذا الحوار بين الخليفة وبين حذيفة بن اليمان في إحدى الجلسات مع الصحابة :

- يقول عمر : أيكم يحفظ قول رسول الله (ﷺ) في الفتنة ؟
- حذيفة : أنا أحفظ ما قال.
- عمر : هات ، إنك لجريء.
- حذيفة : يا أمير المؤمنين - لا بأس عليك منها - إن بينك وبينها بابا مغلقا.
- عمر : يفتح أو يكسر.
- حذيفة : لا ، بل يكسر.
- عمر : إذن لا يغلق أبدا.

وقد سئل حذيفة : (أكان عمر يعلم الباب ؟) قال : نعم ، كما أن دون الغد الليلة ، إني حدثته بحديث ، ليس بالأغاليط ، ثم سئل عن الباب ؟ فقال : الباب عمر.

إن صحابة رسول الله (ﷺ) سيما الأولين من الأنصار والمهاجرين مات معظمهم متشرفين بالشهادة فائزين بها ، فقتل عمر (ﷺ) ليس بدعا في أصحاب محمد (ﷺ) ولكن موته بهذه الطريقة الفاجعة لهو جزء من الفتنة ، أو باب لها ، وهو ما يعني - في رأيي - أنه قتل نتيجة مؤامرة كبرى من العيار الثقيل ، إن قتله لم يك حادثا فرديا - كما بدا وظهر - عبد يشكو سيده ، ولأن عمر لم ينصفه فإن العبد قتل الخليفة ، هذا أمر غير مقتنع.

على أي الأحوال نسرد - من الروايات - بقية القصة ، فقد جاء في طبقات ابن سعد [1] :

---

(١) ٢٩٢/٣.

كان عمر لا يأذن لسبى - أطفال صغار مأسورين - قد احتلم في دخول المدينة حتى كتب المغيرة بن شعبة - وهو على الكوفة - يذكر له أن له غلاما صنعا ، ويستأذن أن يدخله المدينة ، ويقول : إن عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس ، إنه حداد نقاش نجار ، فكتب عمر يأذن له.

ونقف هنيهة أمام رواية ابن سعد ، ففي بدء نصها : (كان عمر لا يأذن لسبىً قد احتلم في دخول المدينة حتى كتب المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة ...) الخ.

معنى هذا أن أول خرق والتفاف على قرار عمر جاء من قبل واليه المغيرة ، وهو على الكوفة التي تولاها - كما سلف - من ٢١ هـ - إلى مقتل عمر ٢٣ هـ.

والمغيرة لا يفعل هذا لصالح الناس أو منافعهم ، وهو الذي قتل ١٣ من رفقاء سفره وأخذ أموالهم ، ولكن من هنا تبدأ خيوط المؤامرة الكبرى لاغتيال الخليفة ، فما كان لأحد من العرب أن يجرؤ على قتل عمر.

على أية حال جاء فيروز ليشكو سيده المغيرة ، الذي ضرب عليه مائة درهم كل شهر ، يسأله عمر : ماذا تحسن من العمل ؟ فذكر له ما يحسن ، قال عمر : ما خراجك بكثير في كنه عملك ، فانصرف ساخطا يتذمر.

ولعل عمر (ﷺ) قد تأثر في موقفه هذا من دعاية سيده له بأنه صنع ، نجار ، حداد ، نقاش ، وفي وجوده منافع كثيرة للناس ، وبرغم هذا كان في نيته أن يتكلم مع المغيرة في تخفيف شدة الخراج التي اشتكى منها هذا العبد.

وبعد عدة ليال مر العبد الساخط الذي دعاه سائلا إياه : (ألم أحدث أنك تقول : لو أشاء لصنعت رحى بالريح ؟) فالتفت العبد ساخطا عابسا إلى عمر ومعه رهط من

الناس حوله قائلا له : (لأصنعن لك رحى يتحدث بها الناس) وفهم عمر الرسالة تماما ووعاها.

فلما ولى العبد وانصرف آنفا أقبل عمر على الرهط الذين معه فقال لهم : أوعدني العبد آنفا ، وبعد ليال يرى عمر - في المنام - كأن ديكا نقرني نقرة أو نقرتين وإني لا أراه إلا حضور أجلي [1] ، وتصدق رؤيا عمر سريعا سريعا.

يقول عبد اله بن الزبير : جئت من السوق - وعمر يتوكأ عليّ - فمر بنا أبو لؤلؤة ، فنظر إلى عمر نظرة ظننت أنه لولا مكاني - ووجودي إلى جانبه - لبطش به أي بعمر ، فجئت إلى المسجد الفجر ، فإني بين النائم واليقظان [2] ...) لقد كانت الفاجعة في اغتيال الخليفة.

ونقف هنا هنيهة لنسأل أنفسنا : ألا يكفي ما سبق لاعتقال فيروز ؟ لقد هدد عمر جهارا نهارا جهرا وعلانية وأمام رهط من أصحابه ، ثم نظر إليه هذه النظرة الشريرة الماقتة ، بل التي تقطر شرا ومقتا ؟؟ :

في رأي عمر وأركان حكمه لم يرتكب شيئا يستحق الاعتقال ، بدليل أن عمر عندما قتل لم يسرع إلى تصوره أن هذا العبد هو الذي قتله ، بل طلب من ابن عباس أن يخرج ليعرف من قتله.

إن هذا يذكرني بمشهد رأيته في أحد المسلسلات التاريخية حول يوسف الصديق (عليه السلام) هذا ملك مصر العظيم أمنحوتب الثالث يحاكم الكهنة محاكمة علنية أمام وجهاء المصريين بتهمة محاولة دس السم له ولأسرته في الطعام والشراب ،

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢/٢٧٠.
(٢) السابق ٢/٢٧١.

ولكن معد الطعام لم يعترف أمام الناس بتحريض الكهنة له على قتل الملك ، بل زعم أنه قام بهذا العمل بمفرده ودون مساعدة من أحد ، فأخلى الملك سبيل الكهنة برغم أنه تأكد من دورهم ضده ، لأنه لم يجد عليهم دليلا مقنعا أمام الناس ، وأصدر أوامر بإعدام معد طعامه الذي اعترف على نفسه ، وتحمل عن الكهنة وزر الجريمة كلها ، وهكذا كان إنجاز المصريين القدماء وحضارتهم دليلا على رقي الإدارة لديهم وعلى أنها جديرة بالجودة والاعتماد ، والاتكاء عليها.

ولنا عود إلى هذي النقيطة فيما بعد ، حيث نناقش النهجين ، اتخاذ الحرس والجند ، أو تركه ليقتل الخليفة بهذه الصورة.

على أي الأحوال فإنه قبيل اغتيال عمر جاءه كعب الأحبار ليخبر الخليفة بأنه سيموت بعد ثلاثة أيام ، يتساءل عمر : (وما يدريك ؟!) ويرد كعب : أجده في كتاب الله (ﷻ) التوراة) فيقول عمر : (آلله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟) فيصرخ كعب : اللهم لا ، ولكني أجد صفتك وحليتك ، وأنه قد فني أجلك) [1].

وقد استمعت إلى بعض العلماء السعوديين في إحدى الفضائيات العربية منذ شهر ونصف يقول : بأن هذا دليل على علم كعب بمقتل عمر ، وربما على رضاه أو اشتراكه في هذه المؤامرة بدليل أنه هرب بعد ذلك إلى الشام ، كما أشار ذياك المتحدث أن المغيرة في هذه الفترة كان يعمل لصالح معاوية.

وما أظن المغيرة يعمل لغير صالح نفسه وخويصته ، بدليل ما صنع برفقة سفره إلى الإسكندرية ، كما أنه ليس لدينا من الروايات ما يشير - من بعيد أو قريب - إلى علم كعب الأحبار بمقتل عمر ، وأنا أتصور أنه لو كان على علاقة - أو علم -

(١) تاريخ الطبري ١٩١/٤.

بالأمر ، فإنه لا يجرؤ على إفشاء شيء من خيوطه حتى لا تفتضح المؤامرة قبل تنفيذها.

وقبل سرد واقعة الاغتيال نشير إلى أن الحوار الذي كان بين غلام المغيرة وعمر تكرر في كل الروايات والمصادر التي كتبت عن مقتل عمر ، إن الفتى يشكو سيده ، يرى أن الخليفة لم ينصفه وحده ، لقد أنصف كل من شكا إليه ، ووسعهم بعدله ، ولكنه ضن عليه بالعدل والإنصاف فعزم على قتله.

لقد سبق ووصف القاتل بأنه :

- من سبى نهاوند.
- غلام المغيرة.
- صنع ، نجار حداد نقاش.
- سيده المغيرة هو من أقنع عمر بأن يقيم بالمدينة لفائدة الناس ونفعهم.
- كان خبيثا شديد الحنق على العرب ، إذا مر على السبى من غير العرب مسح على رءوسهم ، وقال : لقد أكلت العرب كبدي.

على أي الأحوال ماذا صنع هذا الصنع ؟

<u>حادث الاغتيال</u> : كما جاء في الروايات ، بعد ليال من الحوار مع عمر ويأسه من إنصافه من سيده ، اشتمل أبو لؤلؤة على خنجر ذي رأسين ، نصابه في وسطه ، فكمن في زاوية من زوايا المسجد في غلس (ظلام) السحر من الليل ، فلم يزل في مكمنه حتى خرج عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر كعادته.

فلما دنا منه عمر وثب عليه ، فطعنه ثلاث طعنات ، إحداهن تحت السرة ، قد

خرقت الصفاق وهي التي قتلته وأودت به ، ثم التفت إلى من حوله في المسجد ، فطعن كل من اقترب منه ، أو كل مقترب منه حتى طعن بعد عمر أحد عشر مصليا ، ثم انتحر بخنجره ، فقال عمر حين أدركه النزف من دمه ، واجتمع حوله الناس : (قولوا لعبد الرحمن بن عوف فليصل بالناس) ثم غلب عليه النزف ، حتى غشي عليه ، فحمل إلى بيته.

ودعا عمر بوضوء فتوضأ ـ وهو مطعون منزوف ـ فتوضأ ثم صلى ، بعدها قال : اخرج يا عبد الله بن عباس ، فسل : من قتلني ؟ وعرف ابن عباس من الناس أن الذي طعن عمر هو عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، ثم طعن معه رهطا ، ثم قتل نفسه).

وهنا قال عمر : الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط ؟ ما كانت العرب لتقتلني.

وعندما أيقن الناس بموت عمر بكوا عليه ، فقال : لا تبكوا علينا ، من كان باكيا فليخرج ، ألم تسمعوا ما قال الرسول (ﷺ) : (يعذب الميت ببكاء أهله عليه [1]).

من أجل هذا كان عبد الله بن عمر لا يقر أن يبكي عنده على هالك من ولده ، أو من غيرهم ، لكن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت لا ترى هذا الرأي ، بل أقامت النوح على الهالك من أهلها ، فحدثت بقول عمر عن رسول الله (ﷺ) فقالت : (يرحم الله عمر وابن عمر ، فوالله ما كذبا ، ولكن عمر وهل ـ وهم ـ إنما مر رسول الله (ﷺ) على نُوّح ـ نائحين ـ يبكون على هالك لهم ، فقال (ﷺ) : (إن هؤلاء ، وإن صاحبهم ليعذب ، وكان قد اجترم ذلك) بأمره لأهله بالبكاء عليه والنواح.

(١) طبقات ابن سعد ٢٩٣/٣

القضية هنا مختلفة عن تصورات بعض الناس الآن حيث يشيعون بين الناس أن البكاء على الميت مهما كانت قيمته ومكانته ما حرمه سيد الخلق (ﷺ) وهو وهم وهل خطأ ، إن هذا الحديث الذي يستدلون به قد فسرته أم المؤمنين ووضعته في مكانه ، إن هذا الميت الذي كان يعذب ببكاء أهله ونوحهم عليه لأنه هو من أمر بهذا وأوصى به.

أما البكاء التلقائي على الميت رحمة به ومحبة فهو من سنته (ﷺ) لقد بكى ابنه إبراهيم ، لم يملك نفسه من البكاء على عزيزه وصغيره ، وعندما فجع في عمه أسد الله الحمزة بقتله غدرا وغيلة في أحد قال (ﷺ) متحسرا حزينا : ولكن عمي حمزة لا بواكي ، فذهبت بعض النسوة للبكاء عليه في بيته (ﷺ) وأرضاه.

بل إن بعض الناس الآن أصبح كالغرب تماما ، إذا مات لهم ميت مهما كان عزيزا ، ومهما علت مكانته فإن سيارة الموتى تنقله إلى مقبرته ، يصلي عليه ويجهز من قبل المختصين بهذا الأمر ، أما الأب والأم وباقي الأقارب والمقربين فإن كلا يذهب إلى عمله ومصالحه.

ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل حرم كثير من الأغنياء والميسورين مجالس العزاء ، بحجة أنها مكلفة ، أو تدخل دائرة البدع ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

نعود مرة أخرى إلى مقتل عمر لنساءل : كيف تمكن الناس وكانوا عزلا لا سلام معهم أمام هذا المهووس المتوحش ؟ لقد طرح عليه عبد الرحمن بن عوف خميصة [1] كانت عليه ، فانتحر بالخنجر عندما أخذ ، وعندها اجتز ابن عوف رأسه.

---

(١) السابق.

وفي إحدى الروايات [1] أن عبد الله بن عمر سمع أباه يقول : (لقد طعنني أبو لؤلؤة ، وما أظنه إلا كلبا) حتى طعنني الثالثة ، وفي نفس الرواية : جاء عمر فقال : الصلاة عباد الله، استووا ، ثم كبر ، فطعنه فيروز طعنة أو طعنتين ، وكان على عمر إزار أصفر ، رفعه على صدره ، فأهوى - سقط - وهو يقول : (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً [2]).

ومال الغادر على الناس فقتل وأصاب بضعة عشر رجلا ، قيل مات منهم أربعة ، ونجا منهم تسعة ، وقيل العكس.

وفي وسط هذه الضجة كان للمغيرة موقف لافت ظاهر ، ففي كتاب الأوائل لأبي عروبة (ت ٣٨١هـ) والذي نشر في قاهرة [3] المعز الشامخة على الزمان والتاريخ والتي تتحفنا دوما بالنوادر والجواهر ، في هذا الكتاب تحت عنوان أول من رشا من الإسلام :

لما أصيب عمر بن الخطاب (ﷺ) كثر الناس على باب عمر ، فلم يسطع أحد أن يدخل على الخليفة المصاب ، فقال المغيرة بن شعبة للبواب : (ادخل فقل له ما أقول لك ، ولك خمسة دراهم) ثروة كبرى يا ابن شعبة ، كيف ضحيت بها ، وقد رأيت إحدى زوجاتك تتخلل بعد صلاة الصبح فطلقتها ظنا منك أنها أكلت.

ويقول خادم عمر : (ما أقول ؟) قال : قل له - أي لعمر - : (إن الناس من خلف المغيرة ، يزحمونه ، وأنا أخاف أن أراه مقتولا) فلما دخل الحاجب على عمر فأخبره ، قال : (أدخله) قال الحاجب : ادخل.

(١) طبقات ابن سعد ٣٩٦/٣.
(٢) ٣٨ الأحزاب.
(٣) عام ٢٠٠٦م ، تحقيق سامي جاهين.

ويعقب أبو عروبة : (هي أو رشوة كانت في الإسلام) والحق أن هذي ما كانت الأولى ، إذ أول رشوة كما سبق رشوة خادم عمر بعمامة المغيرة ليجلس إليه عند الباب ، يتحسس الأمور ، ويعرف أدق أسرار الخليفة ويستنطق خادمه ليعرف ما يسطيع معرفته من أحوال وأخبار عمر ، ولعله اختار هذا التوقيت بالذات للجلوس مع خادم الخليفة حيث يخف ويقل الوراد والقصاد والزوار لعمر ، فيتفرغ الخادم للحديث مع راشيه صاحب العمامة ، المغيرة بن شعبة.

لكن لماذا دفع المغيرة هذا المبلغ الكبير مقابل الدخول على عمر ، هل كان يروم الاطمئنان على صحة الخليفة وحياته ؟ نعم ولا ، دخلنا في ألغاز العبارات السينمائية ، لا تعجل عليّ ، أنا أقول ذلك.

إن المغيرة يريد ترتيب أوراقه بمعرفة نتيجة المؤامرة ، أيموت الخليفة ؟ إذن أي عمل مطلوب ، أو أعمال مطلوبة ، أيعيش الخليفة ؟ وهنا لابد من حسابات وترتيبات ، هذا ما أراه ، ولا أتصور المغيرة دخل ورشا هذه الرشوة الكبرى شفقة بالخليفة الذي غدر به في محرابه ، ومن عجب أن أحدا لم يلتفت إلى هذه الرواية المهمة ، بل بالغة الأهمية والمغزى والدلالة.

ومن عجب أن أحد الباحثين المصريين على الشبكة الدولية - الإنترنت - يتشفى في مقتل عمر ، ويرى أنها نتيجة طبيعية لأخطائه وخطاياه ، ولكن يا عمر تبكيك العيون مدرارا مدرارا ، كما بكاك ورثاء الأنصار والمهاجرون ، وكبار الصحب الكرام ، ولو كنت أجيد الشعر وقريض القوافي لرثيتك بعيون القصائد الطوال.

وهذا موقف الصحب الكرام من هذا الحادث الجلل والمصاب الفادح ، بكوا عليه بكاء شديدا خاصة عندما أيقنوا بموته ، وعندما طعن (ﷺ) جعل الناس يدخلون

عليه ويخرجون ، فيثنون عليه ، فيقول : (لو أن لي ما في الأرض من شيء لافتديت به من هول المطلع).

ولما حضرت الوفاة (ﷺ) قال : (أبالإمارة تغبطوني ، فوالله لوددت أن أنجو كفافا ، لا عليّ ولا لي).

يقول العباس بن عبد المطلب : (كنت جارا لعمر بن الخطاب فما رأيت أحدا من الناس كان أفضل من عمر ، إن ليله صلاة ، وإن نهاره صيام ، وفي حاجات الناس ، فلما توفى عمر سألت الله (ﷻ) أن يرنيه ، في النوم ، وقد رأيته مقبلا متشحا من سوق المدينة ، فسلمت عليه وسلم عليّ ، ثم قلت : كيف أنت ؟ قال : بخير ، فقلت : ما وجدت ؟ قال : الآن فرغت من الحساب ، ولقد كان ـ أو كاد ـ عرشي يهوى ، لولا أني وجدت [1] ربا رحيما.

وعن عبد الله [2] بن عمر : ما كان شيء أحب إليّ أن أعلمه من أمر عمر ، فلقد رأيت في المنام قصرا ، فقلت لمن هذا ؟ قالوا : لعمر بن الخطاب ، فخرج من القصر عليه ملحفة كأنه قد اغتسل ، فقلت : كيف صنعت ؟ قال : خيرا ، كاد عرشي يهوى ، لولا إني وجدت ربا غفورا ، فقال منذ كم فارقتكم ؟ فقلت : ١٢ سنة.

ولكن أين المغيرة بعد حادثة الرشوة أو رشوة الخمسة دنانير ، إنه يظهر في مشهد آخر مع عليّ بن أبي طالب (ﷺ) وإن كان بعد دفن عمر ، يقول المغيرة أتيت عليا وأنا أحب أن أسمع منه في عمر شيئا ، فخرج ينفض رأسه ولحيته ، وقد اغتسل ، وهو ملتحف بثوب ، لا يشك أن الأمر يصير إليه.

---

(١) حلية الأولياء ١/٥٤.
(٢) السابق.

هذا رأي المغيرة وتصوره ، ما في رأسه إلا الخلافة والإمارة والدنيا ، إنه يظن أن فتى بني هاشم ، أخي النبي المصطفى من القذى سيقع في عمر ، ويعيب عليه ، خاصة بعد أن دفن ، ولكن المغيرة يدهش عندما يسمع من الإمام عليّ مدحا وترحما على عمر ، حيث يقول : يرحم الله ابن الخطاب ، لقد ذهب بخيرها ، ونجا من شرها ، يقصد الإمام عليّ الدنيا والخلافة.

ولكن عمر وهو على فراش الموت يثير قضية مهمة عندما علم بأن مغتاله والغادر به علج - كافر من غير العرب - من الأعلاج ، إنها كثرة الأعلاج في المدينة والالتفاف على قرار عمر بعدم دخولهم المدينة ، أو عدم دخول من احتلم منهم إلى عاصمة الخلافة ، أو بقاء من احتلم في المدينة ، وهذا طرف من الحوار من على فراش الموت والغدر بين عمر وبين الصحابة (ﭫ) أجمعين.

قال ابن عباس : كنت فيمن احتمل عمر حتى أدخلناه داره ، أفاق إفاقة ، أو قل بعض إفاقة ، فقال : من قتلني ؟ أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، فقال لابن عباس : هذا عمل أصحابك ، كنت أريد أن لا يدخلها - أي المدينة - علج من السبى ، فغلبتموني ، إلى أن غلبت على عقلي.

وفي رواية أن ابن عباس قال : غلام المغيرة ، فقال عمر : (الصَّنع - قاتله الله - لقد أمرت به معروفا) ويبدو أن عمر كلم المغيرة في هذا ، أو كان ينوي ذلك ولكن سبق قضاء الله.

ثم استمر عمر : (الحمد لله الذي لم يجعل قتلي بيد رجل يدعي الإسلام ، ثم انطلق معاتبا عبد الله بن عباس : (لقد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة) حيث كان العباس يمتلك رقيقا - عبيدا - كثيرا من هؤلاء الكفار من غير العرب.

ويعتذر ابن عباس : (إن شئت قتلناهم) وفي شدته قال عمر : (كذبت ، بعد ما تكلموا بألسنتكم) وصلوا إلى قبلتكم ، وحجوا حجكم) أي دخلوا في الإسلام وأعلنوه وأظهروه.

لكن تذكر يا ابن الخطاب ـ رحمك الله ـ أن أول من التف على قرارك هو المغيرة ، وليس العباس ، وأن المغيرة هو الذي أدخل هذا القاتل الغادر إلى المدينة بحجة أنه صنع ، وأنه يفيد الناس في المدينة.

ولكن القرار صائب من جميع النواحي ، أي قرار حظر إقامة العلوج في المدينة ، هذا وقد التفت قادة الدول الآن والزعامات والرياسات إلى هذه المسألة ، فكل عظيم قوم ما عاد يقيم في عاصمته ، أو حاضرة البلاد وقصبة العباد ، ترى هذا الزعيم العظيم يقيم في مزرعته في تكساس ، وهذا الرئيس المبجل يقيم في ضيعته في بئر السبع ، وذلك الجليل في الجليل الأعلى ، وذياك الرئيس الفقير جدا كان يقيم في شرم ، أو في شرم الشيخ ، بعيدا جدا عن حاضرة البلاد.

أصبح هناك عزل تام بين الراعي والحاكم والرعية المحكومين ، وشقة واسعة بين الأغنياء والحاكمين ، أو بين الأغنياء الحاكمين وبين الفقراء المشمولين من قبل دولتهم بكل الإهمال والنبذ والتناسي ، لكل فئة مدنها وطعامها وشرابها ومرافقها ومؤسساتها ، والعجب العجاب أن الفقراء يعيشون ، يتناسلون ويتزوجون ، يزيدون ولا ينقصون ، وهذه معضلة كل رياسة وزعامة ، سواء في الشرق أو الغرب ، الشمال أو الجنوب.

كان الأغنياء والوجهاء والحاكمون لهم قصور خاصة بهم ، مقتصرة عليهم وأسرهم وخدمهم وحاشيتهم ، بعيدا بعيدا عن دور الفقراء وعششهم المزعجة ، ثم

انعزلوا في أحياء خاصة بهم ، والآن اتخذوا مدنا أخرى وضيعا ومزارع موغلة في بعد الشقة بينهم وبين عامة الناس من غير الأثرياء الحاكمين.

ولسوء الحظ - يا عمر - ضاع الدليل الأول أو الخيط الأول في عملية التحقيق في هذي الجريمة المروعة ، هذا الضياع تمثل في انتحار القاتل الغادر ، على عكس التحقيق في مقتل عليّ (ﷺ) لقد تمكن أحد أبطال بني هاشم من الإمساك بالقاتل برغم سيفه المسموم المسنون ، وهذا ما مكن من استجوابه ومعرفة شيء من خيوط الجريمة.

وبرغم هذا بقي خيط آخر مهم ، غاية في الأهمية ، ما هو ؟ شهادتان مهمتان غاية الأهمية ، ومتطابقتان تماما ، هما :

١- عبد الرحمن بن عوف : رأى السكين التي قتل بها عمر ، فأقر بأنه رأى هذه السكين أمس مع الهرمزان وجفينة - فقط أمس - قال لهما : ما تصنعان بهذه السكين ؟ قالا : (نقطع بها اللحم ، فنحن لا نمس اللحم) وهنا قال له عبيد الله ابن عمر : أنت رأيتها - أي السكين - معهما ؟ قال : نعم ، فأخذ عبيد الله سيفه ، ثم أتاهما - الهرمزان وجفينة - فقتلهما .

وهنا يلاحظ على هذه الرواية [(١)] ما يلي :

أ - أبو لؤلؤة لم يك معهما ، فكيف وصل إليهما هذي السكين ، وهو ما يشير إلى ارتباط الرجلين بمقتل عمر.

ب- هما يقولان : (نحن لا نمس اللحم) وهذا ما يخص جفينة وحده ، لأن كان مسيحيا ، فكيف بالهرمزان وقد أعلن إسلامه.

---

(١) ابن سعد ٢٩٨/٣.

٢- عبد الرحمن بن أبي بكر : حين قتل عمر قال : قد مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمر ، ومعه جفينة والهرمزان وهم نجّى - يتناجون - فلما بغتهم ثاروا - وبدا عليهم الانزعاج - فسقط من بينهم خنجر له رأسان ، ونصابه - مقبضه - وسطه فانظروا : ما الخنجر الذي قتل به عمر ، فوجدوه الخنجر الذي نعت عبد الرحمن ابن أبي بكر.

وفي هذه الشهادة الأخيرة نعت لآلة القتل بأنها خنجر وليس سكينا ، اختلاف في الوصف فقط ، الخنجر نوع من السكاكين تستخدم للقتل وليس لقطع اللحم.

في شهادة ابن عوف كانت السكين مع الهرمزان وجفينة ، أما في شهادة ابن أبي بكر فقد انضم إليهما القاتل أبو لؤلؤة ، ما يشير إلى تورط الجميع ، أو الثلاثة أجمعهم في القضية.

هاتان الشهادتان كانتا خيطا مهما في القضية ، ولكن عبيد الله بن عمر والذي جلده أبوه قبل ذلك حد الخمر مع مجموعة من الناس منهم أبو محجن الثقفي قام بعمل أخرق ، أحرق هذا الخيط المهم الذي كان يمكن أن يفيد في التحقيق ، ماذا فعل ؟ بمجرد أن عرف وسمع من ابن عوف وابن أبي بكر ما سمع حتى قام من فوره ؟ ماذا فعل ؟.

انطلق من فوره إلى الهرمزان ، فلما خرج إليه قال عبيد : (انطلق حتى ننظر إلى فرس لي) ثم تأخر عنه إذا مضى بين يديه وتمكن منه ، علاه بالسيف فقتله فلما وجد حر السيف قال : (لا إله إلا الله) هذا ما يرويه عبيد الله.

ثم انطلق إلى جفينة ، وكان نصرانيا من نصارى الحيرة ، وكان ظئر السعد ابن أبي وقاص (أي زوج المرضعة) أقدمه المدينة بعد الصلح الذي كان بين سعد

وبين أهل الحيرة ، وجاء إلى المدينة ليعلم الكتابة ، يقول عبيد الله : (فلما علوته بالسيف صلب بين عينيه) يشير إلى انتمائه إلى المسيحية والصليب.

ولم يكنف عبيد الله بهذا بل أراد أن لا يترك سبيا في المدينة إلا قتله ، فقد كان كالسبع الحرب الغاضب ، لا يقف أمام غضبه شيء.

وقبل أن نرى رد فعل الناس بالمدينة نذكر رواية ابن الهرمزان في رواية الخنجر - أو السكين - قبل الاغتيال ، ففي تاريخ الطبري [١] :

سمع القماذبان يحدث عن قتل أبيه - الهرمزان - فيقول : كانت العجم بالمدينة يستروح بعضهم إلى بعض ، فمر فيروز بأبي ، ومعه خنجر له رأسان ، فتناوله منه وقال ما تصنع بهذا ؟ قال : آنس به ، فرآه رجل ، فلما أصيب عمر قال : رأيت هذا مع الهرمزان ، دفعه إلى فيروز ، فأقبل عبيد الله فقتل أبي ، فلما ولى عثمان دعاني ، فأمكنني منه ، ثم قال : يا بني ، هذا قاتل أبيك ، وأنت أولى به منا ، فاذهب فاقتله ، فتركته لله ، فاحتملوني ، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال وأكفهم.

يلاحظ على هذه الرواية أنها تختلف عن روايتي ابن عوف وابن أبي بكر ، رواية ابن الهرمزان تنسب ملكية الخنجر إلى أبيه ، فكيف حصل عليه القاتل ؟ كما أن الروايتين الأولين تشير إلى أن الخنجر كان مع الثلاثة في رواية ابن أبي بكر ، وكانوا يتناجون ويتهامسون ، فلما بغتهم الشاهد انزعجوا وثاروا فسقط منهم الخنجر.

وفي الرواية الأخرى لابن عوف أن هذه الأداة القاتلة كانت مع الهرمزان وجفينة فقط ، ولم يأت ذكر للقاتل فيروز في هذه الرواية ، بل كان الحوار مع هذين الرجلين : (ماذا تصنعان بهذا السكين ؟ قالا : نقطع بها اللحم ...) لا ذكر لأبي لؤلؤة

---

(١) ٤/٢٤٣.

هنا ، ولذا فإن رواية ابن الهرمزان جاءت لمحاولة تبرئة أبيه مما كان ، ولسوء حظه فإن روايته تتناقض مع شهادة الرحمانين ، وهما أشد عدالة من غيرهما.

أما قوله : (فتركته لله) ردا على عرض عثمان بقتل عبيد الله قاتل أبيه فغير صحيح ، إذ إن عثمان (ﷺ) كان عازما على قتل عبيد الله قصاصا من قتله الثلاثة الذين قتلهم ، ولكن الصحيح أيضا أن الذي لفته وحرفه عن الصواب هو عمرو بن العاص كما سيأتي.

لكن ابن الهرمزان يقر بأن العجم في المدينة كان يستروح بعضهم إلى بعض ويأنسون ، لم يندمجوا بشكل كامل في مجتمع المدينة ، بل كانت لهم جاليتهم التي يستريحون إليها ويستروحون.

رد الفعل على مقتل الثلاثة : لكن ترى ما رد الفعل على ما قام به عبيد الله من مقتل جفينة والهرمزان وابنة فيروز قاتل عمر ؟ لقد تباينت ردود الأفعال ، كيف ؟

أبرز رد فعل كان من عثمان بن عفان الذي بدا كأنه الخليفة لعمر ، أو بدأ يتصرف في مسألة قتل الثلاثة باعتباره الحاكم الآمر ، فكان يرى قتل عبيد الله قصاصا على ما فعل ، وقد وافقه على رأيه وجهاء المهاجرين وكبراؤهم ، ولكن عمرو بن العاص تمكن بدهائه من تغيير هذا الاتجاه الصحيح للأمور والأحداث ، كيف ؟ هذا ما نفصل فيما يلي :

أول شيء كان على القوم في المدينة فعله هو نزع سيف عبيد الله من بيده ، لأنه كان على استعداد ليطيح برقاب كل من يعترضه أو يعارضه ، فهذا عثمان يرسل إليه ليأتيه عبيد الله فيسأله عثمان : (ما حملك على قتل هذين الرجلين وهما في ذمتنا) ولا يسكت الفتى على هذا السؤال ، بل ينقض على عثمان فيصرعه على

الفور ، ويجتمع الناس ليحجزوا هذا الأسد الغاضب عن عثمان.

ولكن عبيد الله ما يزال متقلدا سيفه ، ويمكن أن يصيب به ويقتل ، ولذا فإن أول شيء وجب على القوم فعله أن يضع الفتى سيفه ، وقد قام بهذه المهمة عبد الرحمن عوف الذي عزم عليه - أقسم - أن يضع السيف ، فاستجاب الفتى.

وفي رواية أخرى ، وربما في مكان آخر : أرسل إليه - إلى عبيد الله - صهيب عمرو بن العاص فأخذ السيف من يده ، وهنا وثب عليه سعد بن أبي وقاص ؟ ولكن لماذا أنت يا سعد ، رحمك الله ؟.

وثب عليه سعد فتناصيا ، أي أمسك سعد وعبيد الله كل منهما بناصية الآخر يريد أن يصرعه ، قال ابن أبي وقاص : (قتلت جاري وأخفرتني) يقصد قتل جفينة الذي كان جارا ، وكان قبل ذلك زوج مرضعة أولاده في الحيرة ، وسعد هو الذي سعى لدى عمر ليقيم هذا الرجل في المدينة استثناء من قرار عمر بعدم إقامة من بلغ من السبى ، وكان جفينة يعلم الكتابة في المدينة ، بعد الصلح الذي تم بين سعد ، وبين نصارى الحيرة ، كما سلف.

أي أن جفينة كان في ذمته وحمايته ورعايته ، ولا يصح أن يقتل ، ولذا غضب سعد لمقتله ، وهجم على قاتله بهذه الصورة.

وبعد الاستيلاء على سلاح عبيد الله - سيفه - حبسه صهيب إلى أن اختير عثمان خليفة - رسميا - وبايعه الناس فسلمه إلى الخليفة الجديد.

عبيد الله لم يكتف بما فعل من مقتل الثلاثة ، بل أراد أن لا يترك سبيا في المدينة إلا قتله ، ولكن المهاجرين الأولين نهوه وتوعدوه ، إلا أن الفتى الغاضب أصر قائلا : (والله لأقتلنهم) أي الأعاجم (وغيرهم) يعرض ببعض المهاجرين الذين

عارضوه ، وقفوا بوجهه في هذه السورة من الغضب.

لقد أظلمت الأرض على الناس في مدينة الرسول (ﷺ) لما فعل عبيد الله ، ولما فعل مع كبار الصحابة ، وعلى رأسهم عثمان الخليفة المؤكد لعمر ، لقد رأى الصحابة (ﷺ) - عثمان وعبيدا - يتناصيان ، حتى لقد رأى الناس ونظروا إلى شعر رأس عبيد الله في يد عثمان ، يعنفه قائلا : (قاتلك الله ، قاتلت رجلا يصلي ، وصبية صغيرة ، وآخر من ذمة رسول الله (ﷺ) ما في الحق تركك).

كان عثمان وسعد من أشد الغاضبين على عبيد الله ، أما الأول فقد كان يرى أنه من الثابت المؤكد أنه سيخلف عمر ، فأما سعد فلأن جفينة كان جاره ، وكان زوج مرضعته ، وهو الذي توسط لدى عمر ليقيم جفينة في عاصمة الخلافة.

وكانت المفاجأة عندما حكم عثمان وأصبح رسميا على رأس الدولة ، لقد دعا المهاجرين والأنصار قائلا : (أشيروا عليّ - أيها الناس - في هذا الذي فتق في الدين ما فتق) وكانت هذي خطوة جديرة بالاحترام والتقدير.

أما المهاجرون فاجتمعوا على كلمة واحدة ، يشايعون عثمان ويؤيدونه في قتل عبيد الله ، أما غيرهم ، غير المهاجرين - أو جل الناس - الأعظم ، فقد فشا فيهم رأي آخر ، سنعرف مصدره قريبا ، هذا الرأي هو : (هل تريدون أن تتبعوا عمر ابنه) قتل عمر بالأمس ، وتريدون قتل ابنه اليوم.

وهنا كثر اللغط والاختلاف - وربما بفعل فاعلين وقصد - ولكن أين الإمام عليّ ؟ وما رأيه ؟ لقد كان حاضرا ، أدلى لهم بالرأي الصواب ، وأشار على عثمان الخليفة : (أرى أن تقتله) وكان هذا نعم الرأي منك يا أمير المؤمنين ، ونعم الحزم.

إلا أن بعض المهاجرين قالوا : (قتل عمر أمس ، ويقتل ابنه اليوم) وهنا قام

داهية العرب ابن العاص الخيط ، فقال لعثمان : (يا أمير المؤمنين ، إن الله أعفاك أن يكون هذا ولك على المسلمين سلطان ، إنما كان هذا الحدث ، ولا سلطان لك).

وفي طبقات [1] ابن سعد : قال عمرو بن العاص لعثمان : يا أمير المؤمنين ، إن هذا الأمر قد كان قبل أن يكون لك على الناس سلطان ، فأعرض عنهم ، وتفرق الناس عن خبطة عمرو ، وانتهى عثمان إلى رأي عمر ، وودى الرجلين الجارية ، بنت أبي لؤلؤة.

قال عبد الله بن عمر : يرحم الله حفصة فإنها ممن شجع عبيد الله على قتلهم.

ويبدو أن حسابات الخليفة اختلفت بعد أن أصبح على رأس الدولة ، إذ مال عن رأي أمير المؤمنين الصائب إلى رأي عمرو بن العاص ، فأصدر عثمان حكمه التالي : (أنا وليهم) أي ولي القتلى الثلاثة الذين قتلهم عبيد الله : (وقد جعلتها دية ، واحتملتها في مالي).

وهكذا انتهى الرأي إلى إعفاء القاتل من القصاص ، أما استرضاء أولياء الدم فكان شيئا يسيرا وممكنا ، ورضُوا بالدية وانتهت القصة ؟ كلا .

إن عمرو بن العاص عندما أحل هذا الفتى من القتل فقد قدم للخليفة معاوية فيما بعد قائد فرسانه ، إذا عندما استعرت الحرب بين ابن عم الرسول (ﷺ) ومعاوية كان عبيد الله بن عمر قائد خيالة المعسكر المحارب لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب.

وكان هذا الموقف إيذانا بعصر يسمع فيه لابن العاص ، ويعصى أمير المؤمنين ، عليّ بن أبي طالب ، كما سيأتي في قصة : (التحكيم) والتي هندسها وأخرجها

---

(١) ٣٠٧/٣.

عمرو ، ودفع الناس إلى عصيان أميرهم الذي اختاروه طواعية واختيارا ، وبملء إرادتهم.

إن قتل عبيد الله لهؤلاء الثلاثة لم يك فقط تعديا وقتل للنفس دون دليل ضدها وتحديا للمجتمع ، بل كان سببا في تدمير خيط كان يمكن أن يؤدي إلى معرفة المتآمرين الذين وراء القاتل والذين دفعوه دفعا إلى هذه الجريمة الشنعاء التي لا أراها جريمة فردية قام بها أبو لؤلؤة ، وإن كان مؤهلا لها بسبب شدة تعصبه ضد العرب وهوسه عليهم.

ويمتد العمر بالفتى عبيد الله حتى ربيع الأول ٣٧ هـ حيث قتل في معركة صفين ، وكان قبل مقتله نادى علي محمد بن الحنفية يريد مبارزته ، ولكن أباه عليا منعه ، وخرج لمبارزته ، ولكن قائد الفرسان كان واقعيا بدرجة كافية تجعله يقول لأمير المؤمنين عليّ : (لا حاجة بي إلي مبارزتك) وهو يعلم أن الإمام سوف يجيبه إلى ما طلب ، ولن يريق دمه.

ولكن في النهاية قتل قاتل الثلاثة ومدمر خيط مهم من خيوط التحقيق في هذه الجريمة ، فالمثل يقول : (القاتل يقتل ولو بعد حين) أي قتل البغى والتعدي ، بدون وجه حق.

إن الجرائم الصغرى الجزئية يحقق فيها ، كما أن الذي يقيم الحد هو ولي الأمر المختص ، أو من ينيبه أو يجيزه ، ولذا كان عمل الفتى عبيد مضرا من جميع النواحي.

في عهد عثمان وقعت جريمة زنا ، وسيقت المرأة ليقام عليها الحد ، ويسأل عليّ : (ما هذا ؟) امرأة زنت يقام عليها الحد.

ويعجب عليّ ببصيرته النافذة المستبصرة قائلا للقوم : أفلا سألتموها لماذا زنت ؟ ويترك القوم الإمام عليّ يسألها : لماذا زنت ؟ تقول : يا أبا الحسن ، كان لي خليط - شريك - فظمئت ، طلبت منه أن يسقيني ، فأبى إلا أن أمكنه من نفسي فأبيت... ثم طلبت ثانية فأبى إلا أن أمكنه من نفسي ... ثم ظننت أن كبدي ستنشق من شدة العطش ، فمكنته من نفسي فسقاني ، فكبر على قائلا : (إلا من اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم ...) خلى سبيل المرأة ، وأحضر الخليط فأقيم عليه.

هذه جريمة أدنى بكثير من مستوى الجريمة الشنعاء التي أودت بحياة عمر (ﷺ) وهو في محراب صلاته ، أو في الطريق إليه.

والآن عرفنا أبا لؤلؤة منفذ الجريمة ، وعرفنا جفينة ، فمن هو الهرمزان ؟ لحسن الحظ هناك معلومات وافرة عنه ، أحد قادة الجبهة الفارسية الذين ابتليت بهم مدينة الرسول (ﷺ) كيف ؟ وهل للمغيرة ذكر في تاريخ هذا الهرمزان ، وكيف وافق عمر على إقامته في المدينة ؟ هذا ما نحاول إيضاحه فيما يلي :

كانت الأهواز تتاخم حدود البصرة - إلى الشمال الشرقي منها - وكان الهرمزان من بيوتات فارس العريقة ومن قادتها الكبار ، فلما انهزم يوم القادسية ، أقام بالأهواز فجعل يغير على أطراف البصرة ، فلما علم بذلك عتبة أمير البصرة ، استمد سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة فأمده بنعيم بن مقرن وتميم بن مسعود ، وأمرهما أن يأتيا أعلى ميسان ودستمسان حتى يكونا بين الأعاجم وبين نهر تيري.

وأرسل عتبة بن غزوان سلمى بن القين وحرملة بن مريطة في جمع من الجند ، وأمرهما أن يكونا بين ميسان ودستميسان وبين مناذر ، ودعوا بني العم ابن مالك ، وكانوا من حاضري تلك الجهة ، فأجاب رؤساؤهم : إنهم سيكونون عونا

للمسلمين ، واتفقوا على إحداث ثورة بين مناذر ونهر تيري وبين دلثُ.

وفي الموعد اشتد القتال بين الفريقين ، وأتى الخبر الهرمزان بأن مناذر وأهل تيري قد أخذتا ، ففت ذلك في عضده ، ثم هزم جنده ، فقتل من قتل وأسر من أسر ، وتراجعوا حتى وقفوا على شاطئ دُجيل ، وأخذوا ما دونه ، وعسكروا بحيال سوق الأهواز ، وقد عبر الهرمزان جسر سوق الأهواز وأقام بها.

ولما رأى الهرمزان أن لا طاقة له على الحرب طلب الصلح ، فأجابه إلى ذلك عتبة ، وصالحه على الأهواز كلها ـ ما خلا نهر تيري ومناذر ـ وما غلبوا عليه من سوق الأهواز ، مما أخذه المسلمون عنوة ، فإنه لا يرد إليهم ، وجعل عتبة سلمى بن القين على مناذر ، وحرملة على نهر تيري ، ووكل إليهما مسالح البصرة ، وأخذت طوائف بني العم تنزل البصرة.

ولكن شجر خلاف بين بعض رؤساء بني العم وبين الهرمزان حول حدود الأراضي بينهما ، كان من نتيجته أن نقض الهرمزان الصلح ومنع ما قِبَله ، واستعان بالأكراد فكثف جنده ، وانتهى الأمر إلى عتبة بن غزوان ، فكتب بهذا إلى عمر ، الذي أمده بحُرقوص بن زهير السعدي ، وكانت له صحبة من رسول الله (ﷺ) وأمّره على القتال ، وعلى ما غلب عليه ، ثم انضم حُرقوص إلى سلمى وحرملة ، وعلم الهرمزان بهذي التطورات ، فنهض إليهم بجنوده.

انتهى المسلمون إلى جسر سوق الأهواز فأرسلوا إلى الهرمزان ، إما أن تعبر إلينا ، وإما أن نعبر إليكم ، فقال : اعبروا إلينا ، فعبروا من فوق الجسر ، ثم اقتتلوا من فوق الجسر مما يلي سوق الأهواز حتى هزم الهرمزان ، وفر إلى رامهرمز.

افتتح حرقوص سوق الأهواز فأقام بها ، ونزل الجبل ، واتسقت له بلاد

سوق الأهواز إلى تستر ، ووضع الجزية ، وكتب بالفتح والأخماس إلى عمر ، وأرسل إليه وفدا بذلك ، فحمد الله ، ودعا له بالثبات والزيادة [1].

وجاء في الطبقات الكبرى [2] لابن سعد : الهرمزان أحد قادة الفرس ، وعندما خرج يزدجرد ملك فارس من حلوان [3] إلى أصفهان ، ثم أتى إلى اصطخر ، ومنها وجه الهرمزان إلى (تستر) فضبطها ، وتحصن في قلعتها ، ومعه الأساورة وجمع كبير من أهل (تستر) في إقليم خورستان ، وكانت القلعة تقع على أطراف تستر مما يلي الجبل ، والماء يحيط بها ، كما كانت مدينة أصبهان القريبة تمد المحاصرين في القلعة.

حاصر القلعة أبو موسى الأشعري سنتين إلى أن نزل المتحصنون في القلعة على حكم عمر ، وهنا بعث أبو موسى بالهرمزان ومعه ١٢ أسيرا من القادة عليهم الديباج والحرير ومناطق الذهب وأساور الذهب ، قدموا بهم المدينة في هيئتهم هذه فجعل الناس يعجبون ويعجبون.

ذهب الأسارى الثلاثة عشر إلى منزل عمر فلم يجدوه ، فبحثوا عنه ، فقال الهرمزان بالفارسية : (قد ضل ملككم) أي تاه ، وفي النهاية وجدوا عمر في المسجد نائما متوسدا رداءه ، فتساءل الهرمزان متعجبا : (أهذا ملككم ؟!) قالوا : (الله حارسه حتى يأتي عليه أجله) فقال الهرمزان : (هذا الملك الهنيء).

وعندما رأى عمر الهرمزان انتفض صارخا : (أعوذ بالله [4] من النار) ثم

---

(١) أيام العرب في الإسلام لمحمد جاد المولى وآخرين ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص٢٠٤ ، ٢٠٥.
(٢) ١٠٢/٥.
(٣) مدينة حلوان العراقية والتي تقع شرق بغداد ، وليس حلوان المصرية.
(٤) هل كان عمر يتوسم في الهرمزان الشر من تعبيرات وجهه وعينيه ؟؟ ربما.

أضاف : (الحمد لله الذي أذل هذا وشيعته بالإسلام) بعدها قال عمر لوفد الأسارى : (تكلموا ، وإياكم وتشقيق الكلام والإكثار).

وعلى الفور دار الحوار التالي - عبر مترجم - بين عمر والهرمزان :

- عمـــــر : كيف رأيت صنع الله بكم ؟ فلم يجب الهرمزان ، وهنا قال له عمر : مالك لا تتكلم ؟.
- الهرمزان : أكلام حي أكلمك أم كلام ميت ؟
- عمـــــر : أو لست حيا ؟

وعلى الفور استسقى الهرمزان - طلب الماء - فقال عمر :

- لا نجمع عليك القتل والعطش.

جاء الماء إلى الهرمزان فأمسكه بيده فقال عمر :

- اشرب ، لا بأس عليك ، إني غير قاتلك حتى تشربه.

رمى الهرمزان بالماء من يده ، ثم قال :

- يا معشر العرب ، كنتم وأنتم على غير هذا الدين نتعبدكم ونقتلكم ، وكنتم أسوأ الأمم عندنا ، وأخسها منزلة ، فلما كان الله معكم لم يكن لأحد بالله طاقة.

ولكن عمر أمر بقتله ، فانقلب على الفور إلى مجلس عمر قائلا :

- أو لم يؤمني ؟!.
- وكيف ؟
- قلت تكلم ، لا بأس عليك ، وقلت اشرب ، لا بأس عليك ، لا أقتلك حتى تشرب.
- قال حضور المجلس : صدق.
- عمر : قاتله الله ، أخذ أمانا ، ولا أشعر.

ولكن الخليفة يعرض الإسلام على الهرمزان ومن معه إلا أنهم أبوا ورفضوا.

الإمام عليّ كان حاضرا ، فنصح إلى عمر أن يفرق بين هؤلاء الأسارى وبين إخوانهم من الكفار ، خاصة من غير العرب.

وحمل عمر الهرمزان وجفينة وغيرهم من العلوج والكفار في البحر قائلا : (اللهم اكسر بهم) وقد أراد عمر أن يسيرهم إلى الشام ، فكسر بهم ولم يغرقوا ، فرجعوا وأسلموا ، وتسمى الهرمزان عرفطة.

شهد من رأى الهرمزان - أو عرفطة - مهلا بالحج مع عمر وعليه حَبِرة - ثوب موشى مخطط - ويبدو أن هذا الهرمزان كان ذا جسم رياضي ، إذ قال أنس بن مالك : ما رأيت أحدا أخمص بطنا ، ولا أبعد ما بين المنكبين من الهرمزان [1].

والآن نتساءل : هل تشاءم عمر من الهرمزان حين رآه ، هل رأى في وجهه وعينه الشر والشرر ؟ يبدو هذا واضحا من انطباع عمر الأول حين رآه ، إذ قال : (أعوذ بالله من النار).

نعم هذا صحيح ، وصحيح أيضا وصواب رأي الإمام عليّ بأن يفرق بين هؤلاء الناس ، وأن يباعد بينهم حتى لا يتفقوا على المسلمين أو قادتهم ويتآمروا ، نعم الرأي يا ابن أبي طالب.

ولكن متى جاء الهرمزان ومن معه ؟ لقد كان هذا عام ١٧ هـ ، أنه مكث في المدينة قرابة ٦ سنوات ، فترة كافية للإعداد لمؤامرة كبرى بمثل مقتل عمر بن الخطاب.

(١) ابن سعد ٥/١٠٤.

سؤال أيضا : أين المغيرة من هذه القصة ؟ لقد كان حاضرا ، وفي موقع مهم وحساس ، كيف ؟ في تاريخ الطبري يسرد حكاية الحوار بين عمر والهرمزان ، ويضيف الطبري [1] : (كان الترجمان يوم الهرمزان المغيرة بن شعبة - إلى أن أتى المترجم - وكان المغيرة يفقه شيئا من الفارسية ، فقال عمر للمغيرة : قل له ، من أي أرض أتى ؟ فقال المغيرة : (أركدام أرضي) فقال : مهرجاني ، فقال عمر : تكلم بحجتك.

وإذا كان المغيرة يفقه شيئا من الفارسية وكان المسلمون على الجبهة الفارسية يكلفونه بالتفاوض مع قادة الفرس ، إذا كان الأمر كذلك فلابد أنه كان على صلة بالجالية الفارسية في المدينة ، إذ هو يعرف - أو يفقه - شيئا من لغتهم ، تماما كما يأنس متكلم اللغة الأجنبية بمن يعرفها ليتكلمها وليمارسها معهم.

وهو ما يجعل من اشتراك المغيرة - أو على الأقل معرفة المغيرة - بحادث اغتيال عمر أمرا واردا ومقبولا ، فقد سبق أنه أول من قام بالاختراق والالتفاف حول قرار عمر بعدم إقامة الأعلاج في المدينة ، ليدخل غلامه أبو لؤلؤة الذي نفذ الاغتيال بخنجره المميز ، والذي رؤى قبيل الحادث مع فيروز بحضور الهرمزان وجفينة.

ولكن ، ولكن ماذا نقول لك يا عبيد الله ؟ لقد أحرقت خيطا مهما بعملك المتهور - في قتل الهرمزان وجفينة - كان يمكن أن يؤدي إلى كشف المستور الغامض في هذه الجريمة المروعة.

---

(١) ٨٧/٤.

وقبل أن نترك حوار عمر مع هرمزانه نشير إلى أن الخليفة حاول استشارة الهرمزان بعد أن أمنه ، كيف ؟ :

- عمـــــر : لا بأس ، انصح لي ، إن فارس اليوم رأس وجناحان.
- الهرمزان : وأين الرأس ؟
- عمـــــر : الرأس نهاوند ، وهي مع القائد (بندار) يعاضده أساورة كسرى وأهل أصبهان.
- الهرمزان : وأين الجناحان ؟
- عمـــــر : يسمى الجناحين.
- الهرمزان : فاقطع الجناحين يهن الرأس.
- عمـــــر : كذبت ـ يا عدو الله ـ بل أعمد إلى الرأس فأقطعه ، فإذا قطعه الله لم يعص علينا الجناحان.

وقد جاءت هذه الاستشارة في رواية أخرى ، وفي ذات المصدر (تاريخ الطبري [1]) كما يلي :

- عمـــــر : ما ترى ، أبدأ في فارس بأذربيجان ، أم بأصبهان ؟
- الهرمزان : إن فارس وأذربيجان الجناحان ، وأصبهان الرأس ، فإن قطعت أحد الجناحين ، قام الجناح الآخر ، فإن قطعت الرأس ، وقع الجناحان ، فابدأ بالرأس.

ولعل الاستشارة الأولى كانت بعد فترة من إقامة الهرمزان في المدينة ، والله أعلى وأعلم.

---

(١) ٤/٤٢.

وقبل أن نتحدث عن وصية عمر ودفنه نشير إلى شيء مهم ، إن آخر مشهد ظهر فيه المغيرة بعد طعن عمر هو رشوة حاجبه بخمسة دراهم كي يرى عمر بعد طعنه ، ومن حسن حظه أن غلامه القاتل قد انتحر ، كما أن عبيد الله بن عمر قدم خدمة جليلة لطمس الحقيقة ، وهي قتل الهرمزان وجفينة.

ومن اللافت اللافت أن المغيرة لم يظهر مطلقا في حوادث القتل التي ارتكبها عبيد الله بن عمر ، والجدل والنقاش والاضطراب الذي أثاره ، وتوابع ذلك القتل ، وما كان من المهاجرين وغيرهم ، ومن سعد بن أبي وقاص وعثمان ، وما ذهب إليه عمرو بن العاص ، ومن لفت عثمان عن قتل عبيد الله ... في كل هذا لم يصدر من المغيرة قول ولا فعل ولا تعقيب ، وهو من أمر ليس من عادته.

والمغيرة سوف يظهر مع عمرو بن العاص بمجرد أن تبدأ مشاورات الستة الذين عينهم عمر لتسمية الخليفة من بعده ، والذي مارس مهامه منذ لحظة طعن عمر ، وهو عثمان بن عفان ، ظهر هذا التصرف من عثمان جليا في التعامل مع قضية عبيد الله ، وظهر أيضا في هذا المشهد التالي :

لما قدم عمر للصلاة عليه أراد عليّ بن أبي طالب أن يصلي عليه فعارضه عثمان ، وهنا أسرع عبد الرحمن بن عوف قائلا : تقدم يا صهيب ، فصل عليه ، فصلى صهيب.

وكان في هذا وغيره إشارة إلى اختيار عثمان لخلافة وعمر ، ومن جانب آخر إبعادها عن عليّ بن أبي طالب ، بل إبعاده حتى عن الصلاة على عمر الذي كان يردد ويقول :

- اللهم لا تنزل بي نازلة إلا وأبو الحسن إلى جانبي.
- قضية ولا أبا حسن لها.

ولكن عمر قبل أن يدهمه الأجل سمى الستة الذين يختارون الخليفة من بينهم ، عدا ابنه عبد الله الذي يشترك في المشاورات ، لكن دون أن يخلف أباه ، وهم (عليّ - عثمان - سعد - عبد الرحمن - طلحة - الزبير) وسنعود لهذه النقيطة فيما بعد.

لكن عمر أوصى بعدة أشياء هي :

١- أن لا يحمل الخليفة من بعده أقاربه وعشيرته على رقاب الناس ، كيف ؟ لقد كان أبرز المرشحين لخلافته عليّ وعثمان وسعدا ، ولذا حذر عمر عليا من أن يحمل بني هاشم على رقاب الناس ، فإن كان عثمان فلا يحملن بني أبي معيط على رقاب [1] الناس ، وكان من هؤلاء عقبة بن أبي معيط الذي قتله محمد (ﷺ) بعد أسره في بدر ، فالويل الويل لمن قتل نبيا أو قتله نبي.

وكذا الشان مع سعد أن لا يجعل بني وقاص يتسلطون على رقاب الناس.

٢- كما أوصى بعزل المغيرة وتولية سعد بن أبي وقاص مكانه.

وفي يوم الأحد الأول ، أو مستهل محرم ٢٤ هـ ، اليوم الأول من هذه السنة ٢٤ هـ ، دفن عمر بعد استئذان عائشة أم المؤمنين في مسجد الرسول (ﷺ) مع محمد وأبي بكر ، ولم يسمح لأحد بعد عمر أن يدفن في مسجده (ﷺ) وعلى هذا ففي المسجد النبوي المبارك محمد ثم أبي بكر ، ثم عمر ، ولا أحد غيرهم ، حتى من أبناء الرسول (ﷺ) وأحفاده.

والآن نعود مرة أخرى إلى قضية الأعلاج في المدينة ، لقد قلت يا صاحب هذه السطور بأن عمر لم يسمح قبل أبي لؤلؤة غلام المغيرة لأحد من الأعلاج أن يقيم في حاضرة الخلافة ، مع أن الهرمزان قد جيء به أسيرا إلى المدينة عام ١٧ هـ

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢/٤٧٠.

أي في وقت مبكر عن ولاية المغيرة على الكوفة ٢١ هـ ؟.

نعم لقد جاء الهرمزان إلى المدينة عام ١٧هـ ، ولكن عمر لم يسمح له بالإقامة بالمدينة ، لا هو ولا جفينة أو غيرهما ، لكن عمر أخذ بنصيحة مشيره عليّ ابن أبي طالب في أن يفرق بينهم - الهرمزان ومن معه - وبين إخوانهم من غير المسلمين في المدينة ، ويبدو أنهم كانوا ساعتها - الهرمزان والأسرى الاثنا عشر الذين كانوا معه - إضافة إلى جفينة ، حيث بدأ يظهر اسمه مع الهرمزان.

على أية حال فإن عمر أراد طرد كل هؤلاء أجمعين ، وعلى رأسهم جفينة والهرمزان ، ودعا عليهم أن يكسر الله بهم ، أن يفرقوا في البحر ، ولا يعودوا إلى المدينة ، ولكنهم عادوا مرة أخرى إلى المدينة وأعلنوا إسلامهم ، ولذا قبلهم عمر ، وسمي الهرمزان باسم عربي (عرفطة).

أي أن الرجلين وغيرهما من العلوج لم يقيموا في المدينة إلا بعد أن أسلموا أو أعلنوا إسلامهم ، فهل راجعوا موقفهم عندما ركبوا البحر ، أم هم - أو على الأقل هما الهرمزان وجفينة - أزمعا أمرا أو رتبا شيئا ، أم أنهما بقيا حتى جاء أبو لؤلؤة فكان ما كان ؟.

الحقيقة أن انتحار أبي لؤلؤة ومقتل الهرمزان وجفينة قد أحرق جميع الخيوط التي كان يمكن أن تزيل الغموض عن هذه الجريمة الشنعاء ، أما المغيرة فإن أحدا - لا على أيامه ولا بعدها - لم يوجه له كلمة اتهام بخصوص هذه الجريمة ، لا من بعيد ولا من قريب.

والآن نراجع بعض التواريخ المهمة في نهاية حديثنا عن مقتل عمر وعن المغيرة ، فنقول :

١ـ تولى المغيرة البصرة من ١٥هـ إلى ١٧هـ حيث عزله عمر بعد اتهامه بالزنا ، صحيح أنه درأ عنه الحد ، ولكنه عين مكانه أبا موسى الأشعري.

ثم تولى المغيرة الكوفة ٢١هـ إلى ٢٣هـ حيث عزم عمر على عزله ، وتولية ابن أبي وقاص مكانه ، وعندما طعن الخليفة أوصى بهذا العزل والتعيين ، وهو ما استجاب له من جاء بعد عمر.

٢ـ جاء الهرمزان ومن معه أسيرا إلى المدينة ١٧هـ ، وكان المغيرة يترجم بين الأسرى وبين عمر ، ولكن لم يظهر المغيرة بعد ذلك ـ على الأقل في المدينة ـ ربما انصرف إلى الجبهة الفارسية ، ثم في ٢١هـ عاد واليا ، لكن هذه المرة على الكوفة ، وليس على البصرة.

٣ـ أصيب عمر مصدرا الحاج ـ الحجاج ـ أي عند عودتهم من موسم حج ٢٣هـ إلى ديارهم ، وهذا وقت مناسب للمؤامرة ، فإن الناس سوف ينشغلون بالعودة إلى أهليهم وأوطانهم ، وسيقضون فترة منشغلين مع الناس فرحين بالعودة إلهم ، ما يقلل من اهتمام هؤلاء المسافرين بالقضية ، فضلا عن التدخل فيها بشكل من الأشكال.

وفي هذه الأثناء كان المغيرة في المدينة بدليل ما ذكرناه قبلا من رشوة حاجب عمر ـ عندما طعن ـ بخمسة دراهم حتى يرى ما حل بالخليفة.

٤ـ طعن عمر فجر الأربعاء ، أربع ليال بقين من ذي الحجة ، أي ٢٦ ذو الحجة ٢٣هـ ، لكنه دفن يوم الأحد الذي تلاه ، هلال المحرم ـ أول المحرم ـ عام ٢٤هـ.

توفي عمر (ﷺ) عن ٦٣ عاما ، وقد تولى الخلافة عشرة أعوام تقريبا ، فور وفاة أبي بكر الذي لقي ربه بين مغرب وعشاء ليل الثلاثاء لثمان بقين من

جمادى الآخرة عام ١٣هـ ، لقد تولى الخلافة في صبيحة الثلاثاء مباشرة ، وذلك بوصية من أبي بكر ، كما سبق.

٥- كان من سنة عمر وسيرته - كما سبق - أن يأخذ عماله بموافاته في موسم الحج من كل عام للسياسة ، أي لكي يناقشهم في أمور الحكم وسوس الرعية ، وليحجزهم بهذا عن رعيتهم ، وأيضا ليكون لدى الناس وقت محدد في كل سنة يتقدمون فيه بشكاياتهم إلى الرئيس الأعلى للدولة.

وفي عام ٢٢هـ حج عمر بالناس ، وكان عماله على الأمصار هم هم الذين في العام الذي سبق ٢١هـ اللهم إلا البصرة والكوفة ، فقد كان على الأولى أبو موسى الأشعري ، وعلى الثانية المغيرة بن شعبة ، لكنه كان عازما على إرسال سعد ابن أبي وقاص ، وعندما طعن أوصى من يأتي بعده بهذا.

فماذا فعل خليفته ، لقد نفذ الأمر والوصية ، لقد كلف سعدا بأن يتولى الكوفة بدل المغيرة ، هذا الأخير عرف بوسائله الخاصة بالقصة ، وعندما افتضح السر الذي كان بين سعد وبين عثمان وحدهما ، عجب عثمان من أين اكتشف ، فاستدعى سعدا فسأله : (هل حدثت أحدا بما كان بيننا ؟) كلا ، إن سعدا لم يحدث أحدا البتة ، وحقق عثمان في القضية فعرف أن المغيرة كان يتجسس عليه ، كيف ؟ هذا ما سوف نعرفه بالتوكيد عند الحديث عن عصر عثمان الذي جاء موعده الآن ، وانتهى الآن الآن عصر عمر (ﷺ) أو انتهى بالأحرى ما لدينا من معلومات وروايات وتحليلات عن الخليفة الشهيد.

رابعا ـ عصر عثمان

أول شيء نبدأ به الحديث ونفتتح حول هذا العصر هو كيف وصلت الخلافة إلى عثمان بن عفان ، فنشير إلى أن بيعة أبي بكر كانت فلتة كما قال عمر ، ولكن الله وقى شرها ، أي لم يك مخططا لها ، بل جاء بمبادرة من عمر في السقيفة ، وتسلم أبو بكر مهامه على الفور ، وأصبح خليفة محمد (ﷺ) الأول ، وذلك صباح أول يوم مات فيه سيد الخلق (ﷺ) وقبل أن يوارى الثرى ، لقد مات محمد (ﷺ) نصف نهار يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول ١١هـ ، وبويع أبو بكر ، وتولى الخلافة في ذات اليوم الذي قبض فيه النبي (ﷺ) الذي ووري الثرى ليلة الأربعاء ، كما تقول أم المؤمنين : "وما علمنا به حتى سمعنا صوت المساحي والفنوس".

وتوفي أبو بكر (ﷺ) ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة ١٣هـ ، وتولى عمر صبيحة الثلاثاء نفسه ، مر فقط سواد الليل فقط ، وكان هذا بوصية من أبي بكر.

وكان بوسع عمر أن يفعل الشيء ذاته اقتداء بصاحبه الذي سبق ، وهو أن يوصى كما أوصى أبو بكر ، إلا أنه عين ٦ أسماء يختارون من بينهم من يخلفه ، مع استثناء ابنه عبد الله الذي يحضر كمراقب ، ولا يكون خليفة لأبيه ، هذا رأيه ، رحمه الله.

وهذا تفصيل ما سبق من مجلس الشورى الذي أوصى به عمر ، أوصى بهم إنهم :

- عبد الله بن عمر (مراقبا) فقط.

١ـ علي بن أبي طالب.

٢ـ عثمان بن عفان.

٣ـ سعد بن أبي وقاص.

٤ـ عبد الرحمن بن عوف.

٥ـ طلحة بن عبيد الله.

٦ـ الزبير بن العوام.

بدأ الستة الذين اختارهم عمر مشاوراتهم ، وهنا خرج المغيرة عن صمته ، واعتكافه ، منذ أن رشا حاجب عمر ليراه بعد طعنه ، إلى أن دفن عمر بدء المحرم ٢٤هـ في هذه الفترة لم يظهر له أثر ولا رأي ولا كلمة حتى جاءت مشاورات الستة لقد ظهر مع من ؟ ظهر مع عمرو بن العاص أمام مجلس الشورى.

جاء الرجلان (المغيرة وعمرو) ولا ندري : ما الذي جمع الشامي على المغربي ؟ فجلسا بالباب عند تشاور الستة ـ بعد مقتل عمر ـ فحصبهما سعد بن أبي وقاص وأقامهما (طردهما) لماذا يا سعد ؟ قال : (تريدان أن تقولا : حضرنا ، وكنا مع أهل الشوري [1] ؟!).

ومع كل التوقير والإجلال لفطنة سعد وبعد بصيرته وحسن تصرفه فإنهما لم يقصدا الادعاء بأنهما كانا في أهل الشورى ، بل هما يتحسسان الأخبار لتوجيه مجلس الشورى إلى الشخصية والطريق الذي يريدان وما يخدم مصالحهما.

ولا تنس ـ عزيزي القارئ ـ أن عمرو بن العاص ظهر دون صاحبه المغيرة في قضية عبيد الله بن عمر ، ولكنهما الآن ظهرا معا.

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٣٠.

تفاصيل تشاور الستة على أي حال مبسوط في المصادر المختلفة ، ولكن الحوار كان يدور حول الاتجاه إلى عثمان والابتعاد عن الإمام عليّ ، بل منذ طعن عمر نهاية عام ٢٣ هـ وعثمان يتصرف ليس كأنه الخليفة ، بل يتصرف على أنه الخليفة لعمر ، بدليل ما كان منه في قضية عبيد الله ، ومنعه علي بن أبي طالب من الصلاة على عمر.

ولكن ، ولكن : لا بأس من إيراد طرف من مشاورات القوم ، أو قل نطلع على مشهد من مشاهد مجلس الستة.

اقترح عبد الرحمن بن عوف أن يجعلوا أمرهم - أي أمر الخلافة - إلى ثلاثة منهم ، كيف ؟ جعل الزبير أمره إلى عليّ ، وجعل طلحة أمره إلى عثمان ، وجعل سعد أمر إلى عبد الرحمن بن عوف.

وكان من الواضح أن الأنظار كلها تتجه نحو اثنين من هؤلاء الثلاثة : (عليّ - عثمان - ابن عوف) هذان الاثنان هما عليّ وعثمان ، ليس إلا ، وقد دخل عبد الرحمن في حوار طويل مع الرجلين ، فكان من هذا الحوار :

١ - أخذ بيد عثمان قائلا له : عليك عهد الله وميثاقه لئن بايعتك لتقيمن لنا كتاب الله وسنة رسوله وسيرة صاحبيك - أي أبي بكر وعمر - وشرط عمر أن لا تجعل أحدا من بني أمية على رقاب الناس ، فقال عثمان : (نعم) أي وافق على ما سبق ، دون قيد أو شرط.

لاحظ أن عبد الرحمن بدأ بعثمان ، ولم يبدأ بعليّ ، ولكنه ثني به.

٢ - أبايعك على شرط عمر ، أن لا تجعل أحدا من بني هاشم على رقاب الناس ؟ فقال عليّ : (مالك ولهذا ، إن قطعتها في عنقي ، فإن على الاجتهاد لأمة محمد ، حيث

علمت القوة والأمانة استعنت بها ، كان في بني هاشم) أو في غيرها ، منطق حق وصدق ومصارحة.

ولكن ابن عوف أصر : (لا والله حتى تعطيني هذا الشرط) قال عليّ : (والله لا أعطينه أبدا) وكان بإمكان عليّ لو كان يطمع في الخلافة أن يوافق على شرط عبد الرحمن ، ولكنه ما فارق صراحته المعهودة والوضوح.

ومن هنا خرج ابن عوف ليعلن للناس قراره : (إني نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان) مع أنه اختلف مع عليّ فيما ذكر ، كما ذكر آنفا.

ثم التفت إلى عليّ مهددا : (فلا تجعل يا عليّ سبيلا إلى نفسك ؛ فإنه السيف لا غير) وما كان ابن عم النبي (ﷺ) ليحمل السيف طمعا في الخلافة ، ولو فكرّ في هذا لحمل السيف من أول يوم تولى فيه الصاحبان أبو بكر وعمر ، بل كان أقرب المستشارين لديهما ، خاصة لدى عمر.

ثم أخذ ابن عمر بيد عثمان فبايعه ، وبايع الناس بعده ، ولكن لماذا عثمان دون عليّ ؟

لقد كان عمر (ﷺ) رجلا شديد - حازما - قد ضيق على قريش أنفاسها ، لم ينل أحد من الدنيا شيئا إعظاما له وإجلالا ، وتأسيا به واقتداء ، بل قل : فرقا منه وخوفا.

هذا رأي ابن قتيبة في الإمامة والسياسة [1] الذي يضيف : (فلما وليهم عثمان ولي رجل ولين ... فكان عثمان (ﷺ) ست سنين في ولايته ، وهو أحب إلى الناس من عمر).

---

(١) ص٢٧.

يقول الإمام الحسن البصري : شهدت عثمان وهو يخطب - وأنا يومئذ قد راحقت الحلم - فما رأيت قط ذكرا ولا أنثى أصبح وجها ، ولا أحسن نضرة منه.

صدقت - أيها الإمام - فلقد عثمان في بداية عهده بالخلافة ، تطل السعادة من وجهه ، ما بدأت المصاعب والاحتقانات التي تجبه أصحاب المناصب والمسئوليات ، كما كان (ﷺ) ثريا سخيا ، ولابد أن ينعكس ما سبق على وجهه ، إنها نضرة الغنى والنعيم والسعادة.

ويضيف الحسن البصري : سمعت عثمان يقول : أيها الناس ، اغدوا على أعطياتكم ، فيأخذونها وافية ، أيها الناس : اغدوا على كسوتكم ، فيغدون ، فيجاء بالحلل فتقسم بينهم ، يوكد الحسن البصري : حتى - والله - سمعت بأذناي : يا معشر المسلمين ، اغدوا على السمن والعسل ، فيغدون فيقسم بينهم السمن والعسل ، ثم يقول : يا معشر المسلمين : اغدوا إلي الطيب ، فيغدون فيقسم بينهم الطيب من المسك والعنبر وغيره ، والعدوان - الاعتداء - والله منفى ، غير موجود ، والأعطيات دارة ، والخير كثير ، وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنا ، من لقي في أي البلدان فهو أخوه وأليفه ، وناصره ومؤدبه ، فلم يزل المال متوفرا حتى بيعت الجارية بوزنها ورقا - فضة - وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار ، وبيع البعير بألف ، والنخلة الواحدة بألف [1].

هذه مرحلة شهر العسل لحكم عثمان حيث الرخاء وكثرة المال ، شهادة له من الإمام الحسن البصري التابعي العالم المجاهد القارئ الذي توفي ١١ هـ ، وهي شهادة لها قيمتها ووزنها المعتمدة على قيمة الإمام ووزنه المهم علميا وجهاديا ومن رام مزيد تفاصيل عن حياة الإمام الحسن رجع إلى رسالتي للدكتوراه ، فقد

(١) السابق.

قدمت له ترجمة وافية في مقدمات الرسالة [1].

ولكن أين المغيرة من قرار ابن عوف ومن مبايعة عثمان ؟ لا تعجل على أيها القارئ سأقول ذلك :

١- بمجرد أن أعلن عبد الرحمن قراره باختيار عثمان حتى قام المغيرة خطيبا : (يا أبا محمد ، الحمد لله الذي وفقك ، والله ما كان لها غير عثمان) وعلى جالس لا يتكلم ، ولكن عبد الرحمن بن عوف كان من الشجاعة والصراحة ليرد عليه :

يا أبا الدباغ ، ما أنت وذاك

والله ما كنت أبايع أحد إلا قلت فيه هذه المقالة

فهمك أبو عوف - ورب الكعبة - نعم الفهم يا عبد الرحمن.

٢- وفي رواية أخرى للطبري [2] أيضا قال المغيرة : (يا أبا محمد ، قد أصبت إذ بايعت عثمان) ثم التفت إلى الخليفة الجديد قائلا له : (لو بايع عبد الرحمن غيرك ما رضينا).

ويرد عبد الرحمن بذات الصراحة : (كذبت - يا أعور - لو بايعتُ غيره لبايعته ، ولقلت هذه المقالة) نعم أصبت يا سيدي كبد الحقيقة ، لو بايعتم غير عثمان لقال المغيرة ذات المقالة.

وهذا يعني أن المغيرة لم يستطع أحيانا كثيرة أن يلعب الأدوار المخفاة المموهة بشكل كامل ، بل انكشفت بعض أقواله وأفعاله ، ولم تنطل على غيره ، وهذه طبيعة الأشياء ، تستطيع أن تخدع الناس بعض الوقت ، ولكنك لا تستطيع خداع الناس كل الوقت ، حكمة لا بأس بها.

---

(١) قراءة الأربعة الشواذ ... دار العلوم ١٩٨٣.
(٢) راجع ٢٣٩/٤ ، ٢٣٤.

وكان على عثمان في بداية منصبه الجديد أن يعالج مشكلة عبيد الله ، لقد كان كل الناس على يقين أن الخليفة الجديد سوف يبدأ حكمه بقتله ، لكن عمرو بن العاص تمكن من لفته عن هذا الرأي ، والذي كان رأي الإمام عليّ أيضا.

وهذا ما يدل على سهولة التأثير على عثمان ، خاصة من دهاة العرب المعدودين الموصوفين ، ومنهم عمرو ، ولهذا قدم عثمان على غيره من المرشحين لخلافة عمر.

لقد انتهت قضية عبيد الله الذي قتل ثلاث أنفس دون وجه حق ، ودون تفويض من السلطة ، وقد انتهى عثمان إلى درء الحد ـ أي القتل ـ بدفع الدية للثلاثة من مال عثمان ، لا بأس ، المهم نجا عبيد الله ـ مؤقتا ـ من القتل حتى وافته منية القتل في صفين على رأس فرسان معاوية.

ثم بدأ عثمان بداية غير صحيحة ، ولكن أبا سفيان لفته ـ ولكن هذه المرة إلى الرأي الصحيح ـ كيف ؟ إليك القصة من ألفها حتى أصل معك ـ أيها القارئ ـ إلى يائها.

إذ يحكى أن عمر استعمل عتبة بن أبي سفيان على كنانة ـ إحدى القبائل العربية ـ فقدم معه بمال ، فسأله عمر : ما هذا يا عتبة ؟ قال : مال خرجت به معي ، وتجرت ـ تاجرت ـ فيه ـ فرد عمر : (ومالك تخرج المال معك في هذا الوجه ؟) ثم أصدر الخليفة عمر قرارا بمصادرة المال وضمه في بيت مال المسلمين.

وذهب عثمان إلى أبي سفيان يعرض رد المال قائلا : (إن طلبت ما أخذ عمر من عتبة رددته عليه) وكان أبو سفيان من الدهاء والحصافة ليرفض هذا ، حيث ظاهره المكسب ، وباطنه ومستقبله ومن قبله الخسارة ، لقد قال أبو سفيان ـ أبو

عتبة ـ قال لعثمان محذرا : (إياك أن ترد على من كان قبلك فيرد عليك من بعدك).

نصيحة مهمة نفعية وعملية ـ يا أبا سفيان ـ وبدهية أيضا ، ولكن كم من التضحيات نقدمها لنصل إلى ما هو بدهي من الأمور ، وخاصة أنه أخذ عليك ـ يا عثمان ـ قبل البيعة أن تسير على خط عمر (ﷺ).

والشيء بالشيء يذكر ، فلا يعاب من أحد ـ بتة ـ ولا ينكر ، فإن أبا سفيان وابنه معاوية صنعا شيئا في محضر عمر ، تجعله هو أو غيره قريبا من معاوية وأبيه ، كيف بالله عليك ؟.

كان عمر يحاسب عامليه على مصر والشام ، وهما عمرو بن العاص ومعاوية ، فماذا حدث ؟ يا للهول !! (ﷺ) فوجد عنده عمرو بن العاص لنفس الغرض ، أي الحساب في يوم الحساب والمحاسبة ، أقعد عمر الرجلين بين يديه ، وأخذ يسألهما عن أعمالهما بالدقة والحزم المعهودين لدى الخليفة.

ولكن عمرو بن العاص يعترض على معاوية في بعض كلامه ، فما كان من ابن أبي سفيان إلا أن وجه كلامه لعمرو قائلا : (أعملي تعيب ، وإياي تقصد ؟ هل نخبر أمير المؤمنين عن عملي وعملك ؟!) وعندها فاجأ عمرو بن العاص عمر ومعاوية وكل من حضر ، وكل من سمع وعرف هذه الشخصية بشيء ما كان ـ البتة ـ متوقعا منه ، فماذا صنع ، يا للهول ؟!.

لقد قام إلى معاوية فلطمه على وجهه أمام عمر الذي رد عليه بقوله : (ما رأيت رجلا أسفه منك ، قم يا معاوية فاقتص منه) وكان من المنتظر من معاوية وكان أصغر منه سنا أن يقوم فيقتص من ابن العاص في ساعتها ، لكنه تصرف بشكل مبدع ومفلق ، برغم فارق السن بينهما ، إذا كان عمرو أسن وأكبر من معاوية.

فماذا صنع معاوية أمام ابن الخطاب وبمحضره بعد لطمة عمرو وطلب الخليفة أن يقتص منه ؟ لقد قال عجبا ونطق بشيء فاجأ الجميع ، لقد قال لعمر : (إن أبي أمرني أن لا أقضي شيئا دونه) إنه يظهر أمام الخليفة باحترام أبيه وتوقيره برغم أن يحكم ولاية مهمة من ولايات المسلمين هي الشام ، وهو رجل بالغ عاقل راشد ، مستقل الرأي والإرادة ، ولكنها السياسة والدهاء ، ودهاليز الحكم والزعامة.

ليس هذا فقط ، بل إن أباه سوف يتحرى - بطريقته - الإفادة من هذا الموقف ، بهدوء ودون انفعال لأن معاوية منفعل ومتأثر بهذه اللطمة المفاجئة ، ولذا استدعى أبو سفيان على عجل ، جاء إلى عمر ليقص عليه ما جرى ، وكانت المفاجأة أن قال الداهية المخضرم لعمر : (لهذا بعثت إليّ ؟ أخوه وابن عمه - يقصد ابن العاص - وقد أتى غير كبير ، وقد وهبت ذلك له [1]).

وهنا كسب الرجلان - معاوية وأبوه - ثقة عمر ، وتثبت موقع وموقف معاوية في ولاية الشام ، وهو ما يرومه أبو سفيان ، إذ من المرجح أن الأب كان على اتفاق مع ابنه معاوية على التشاور في الصغير وفي الكبير والفتيل والقطمير في كل أمر من الأمور ، ولا بأس من لطمة في طريق السعي نحو الهدف المحوري والمركزي ، أي (الملك والزعامة) وفي عصر عمر كان استرضاؤه بدهية وضرورة لا محبص ولا مناص عنهما.

ولكن لماذا تحالف معاوية مع عمرو بن العاص بعد ذلك ؟ يرى أستاذنا الدكتور محمد حلمي - رحمه الله - أنه تحالف الصبية الأشقياء دعت [2] المصلحة المشتركة لكليهما ضد الإمام عليّ بن أبي ، كما سيأتي تفصيله.

---

(١) الخلافة والدولة للدكتور محمد حلمي ، ص٩٦.
(٢) السابق.

والآن حان الأوان والزمان للإشارة إلى شان المغيرة ، فقد عزم عمر على عزله ، ولكن المنية عاجلته فأوصى به من يخلفه ، وهذا عين ما فعل ابن عفان - عليه الرضوان - كيف يا يرحمك الله ؟.

طعن عمر في الأيام الأخيرة من عام ٢٣هـ ، دفن في مستهل محرم العام التالي ٢٤هـ ، في هذا العام بدأ عثمان في تنفيذ وصيته عمر ، خاصة فيما يتصل بابن شعبة الذي عزله وولى مكانه سعد ابن أبي وقاص ، كما أوصاه سلفة عمر ، ولكن الداهية عرف ؟ كيف ؟ لقد جعل لبحران حاجب عثمان جعلا مقابل أن يأتيه بخبر من يستعمل على الكوفة ، حيث كان يعلم أن عمر أوصى بهذا ، ولا يسع عثمان إلا الاستجابة لوصية سلفه.

تماما كما فعل قبل مع (يرفأ) خادم عمر ، عندما رشاه بعمامته ليجلس معه خلف باب عمر ، وكما رشاه بخمسة دراهم ليرى عمر بعد طعنه ، لقد فعل نفس الشيء ، فهو أول من رشا في الإسلام ، ولذا فقد رشا (بحران) خادم عثمان ليأتيه بخبر من يولى مكانه في الكوفة.

وعندما علم من الخادم بعزله وتولية سعد ذهب على الفور إلى عثمان ليفاجئه بقوله : يا أمير المؤمنين ، هل شكاني إليك أحد ، أو بلغك عني أمر كرهته ؟ قال : وما ذاك ؟ قال المغيرة : لم عزلتني ووليت سعدا ؟ قال عثمان : وكان ذاك ؟ قال المغيرة : نعم ، قال عثمان : ومن أخبرك ؟ قال : الأمر أشيع من ذلك.

وهنا أرسل الخليفة إلى سعد على وجه السرعة ليسأله : هل أعلمت أحدا ؟ قال سعد : لا ، ثم استدعى المغيرة الذي قال له عثمان : لتخبرني من أخبرك أو لأسيلن دمك ؟ وعلى الفور ، ودون برهة تفكير أجاب : (بحران).

وعلى الفور أمر عثمان بحاجبه فضرب ٦٠ سوطا ، وحلق رأسه ، وطافوا به في السوق ، ولكن القلوب الرحيمة لأصحاب نبي الرحمة ما رضيت بهذا العقاب القاسي فعابته ، فما كان من عثمان إلا أن أعتق المرتشي بحران [١].

المغيرة أول من رشا في الإسلام ، وثاني من رشا ، مرة عمامة ومرة خمسة دراهم لحاجب عمر ، وثالث من رشا ، هذه الثالثة كانت لبحران حاجب عثمان ، وإن كان مقدار الرشوة لم يذكر ، كما ذكر في المرتين الأوليين.

كل هذا يعني أن الراشين هم أولى الناس بعذاب الله ، وهم الذين يسعون إلى المرتشين ، وليس العكس ، ولذا كان من المنطقي ما ذكره سيد الخلق (ﷺ) : (لعن الله الراشي) أولا ، (المرتشي) وحتى (الرائش) الذي يتوسط بين الطرفين ، الراشي والمرتشي ، لعنهم الله كما ذكر رسوله (ﷺ) بدأ بالمعطي الساعي إلى الرشوة ، ثم بعد ذلك (المرتشي) الذي يأخذ الرشوة ، فلولا سعى المغيرة وغيره إلى (يرفأ) و(بحران) خادمي عمر وعثمان ما أخذ المسكينان الرشوة ، بل ربما ما فكرا بها ، بل لعلهما لم يفكرا في شيء مما حدث ، والله تعالى أعلى وأعلم.

هذا ما فعل عثمان مع المغيرة ، فماذا فعل مع الآخرين ؟ هذا ما سوف نشرحه الآن ، الآن الآن ، وليس بعد الآن من آن :

أقر عثمان عمرو بن العاص على مصر ٤ سنوات أو نحوها ، ثم اختلفا ، كيف ؟ طالب عثمان عمرو بن العاص بزيادة خراج مصر ، لكن الرجل بين خطورة هذا على القدرة الإنتاجية لمصره ، إلا أن عثمان أصر ، ولما رفض عمرو عين آخر على خراج مصر ، أي ترك عمرو في إدارة البلد ، ونقل اختصاصاته المالية إلى رجل

---

(١) تاريخ المدينة لابن شبة ١٠٣/٣.

آخر ، وهنا أطلق ابن العاص كلمته الشهيرة : (وأكون كماسك البقرة بقرنيها ، وغيري يحلبها) فعزله عثمان ، وولى مكانه عبد الله بن سعد ابن أبي السرح ، فمن هو ابن أبي السرح هذا ، وما الذي حدث بين عمرو وعثمان ؟ لقد ساءت إلى حد كبير ، حتى قال له عثمان : (والله لو أخذتك بما أخذك به عمر لاستقمت ، ولكني كنت لك لينا فاجترأت عليّ).

وأصبح عمرو بن العاص من كبار المحرضين على عثمان (ﷺ) حتى يحرض الراعي في غنمه ، أي من ليس له صلة لا بالسياسة ، ولا بالإدارة ولا بالأمور ، من بعيد أو قريب.

وقبل أن نستمر في تناول دور عمرو المحرض على عثمان أن نسأل من هو عبد الله ابن سعد بن أبي السرح ؟ إنه ابن عم عثمان ، وأخوه في الرضاعة ، فقط ؟ كلا ، بل إن هذا الرجل أسلم ، ثم ارتد عن الإسلام ، فلما فتحت مكة ٨ هـ لجأ إلى عثمان ، فشفع له عند النبي (ﷺ) الذي لم يقبل الشفاعة إلا بعد إلحاح كبير وجهد عظيم.

قد يكون عزل ابن العاص أو الاختلاف معه شيئا عاديا أو منطقيا ، ولكن إحلال رجل مثل ابن أبي السرح جر على الخليفة الجديد كثيرا من المشكلات والانتقادات المريرة.

لم يك هذا الرجل فقط ، بل إن مجموعة من الأعوان والملتفين حول عثمان كانت على هذا الحال ، بل كانوا أسوأ من هذا بكثير وكثير ، يقول أستاذنا الدكتور محمد حلمي : هؤلاء وأمثالهم كانوا رجال عثمان وأعوانه في إدارة الدولة ، إن في العاصمة أو الأقاليم ، ولكنهم حديثو عهد بالإسلام ، لم يسلموا إلا عند الفتح ٨هـ أو

بعده ، فهم طلقاء أو أبناء طلقاء ، أما قبل ذلك فكانوا أشد الناس على الإسلام والمسلمين ، بل كانت إليهم قيادة قريش في مقاومتها للرسول (ﷺ) [1].

على أي الأحوال فإن مجموعة من الرجال التفوا حول عثمان كانوا وبالا عليه ، ونقمة سنتحدث عن أبرز هؤلاء لاحقا ، وعلى رأسهم الحكم بن أبي العاص وابنه ، ولكن ليس قبل أن نذكر موقف أبي سفيان من اختيار الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان ، ثم نعرض شيئا من سيرته :

كان أبو سفيان قائد قريش في الحرب ضد الرسول (ﷺ) ، خلفا لأبي جهل الذي قتل في بدر ، وهو يحمل على ظهره سبعين عاما من العمر ، وعند فتح مكة وجد أن الهزيمة حلت على قريش ، وعندما رأي جيش محمد (ﷺ) لم يملك إلا أن قال للعباس : (أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما) ، فرد العباس : إنها النبوة ، وليس الملك.

وعندما أسلم كان يرى لنفسه الزعامة ، سواء على هذا المعسكر أو ذاك ، دخل معسكر الإسلام ، ولكن الزعامة نصب عينيه ، على أية حال بعد فتح مكة مباشرة عرض على محمد (ﷺ) أن يتخذ ابنه معاوية كاتبا له ، اشترك الشقيقان معاوية ويزيد ابنا أبي سفيان في حركة الفتوح منذ أيام أبي بكر ، كما توليا بعض جهات الشام ، فلما توفى يزيد أسند لمعاوية ما كان لأخيه.

ويحكى أنه لما مات يزيد دخل أبو سفيان على عمر بن الخطاب ـ لاحظ هو الذي ذهب إليه ـ فقال له عمر : (أحسن عزاءك في يزيد ، رحمه الله) يبادر أبو سفيان قائلا : (من وليت مكانه ؟) قال عمر : معاوية ، ويطمئن الوالد قائلا : (وصلتك رحم يا أمير المؤمنين).

---

(١) الخلافة والدولة ، ص٨٩.

مات يزيد ١٩هـ في خلافة عمر - كما هو ظاهر - وكان - رحمة الله عليه أفضل بني أبي سفيان ، وكان يقال له يزيد الخير ، لقد كان أخا غير شقيق لمعاوية ، أم يزيد (زينب بنت نوفل) من بني كنانة ، أما أم معاوية فهي هند بنت عتبة آكلة كبد أسد الله الحمزة ، عم الرسول (ﷺ) والساعية المحرضة على اغتياله.

أسلم يزيد يوم فتح مكة ، شهد حنينا ، وأعطاه سيد الخلق (ﷺ) من الغنائم ، استعمله أبو بكر على جيش وسيره إلى الشام ، وخرج يشيعه راجلا ، ولما مات (ﷺ) حل مكانه أخوه معاوية ، وهنا نقف - فللحديث بقية عن معاوية - لنكتب ونستمر في الكتابة عن الأب الذي قدم أبناءه وتأخر هو قليلا ، فقد كان قائد الحرب ضد المسلمين ، فلا يصح أن يزاحمهم في إدارة الدولة ، بل قدم أبناءه ، خاصة يزيد ثم معاوية ، حيث لم يكن من أحدهم سابقة عداوة ظاهرة ضد المسلمين ، وهذا لا يعني أنه كان بعيدا عن سوح الأحداث ومجريات الأمور ، كما أتصور أن أبناءه كانوا على تنسيق كامل وتام مع أبيهم ، كما حدث عند لطم عمرو ابنه معاوية أمام عمر ؟ لقد تصرف الرجلان الأب والابن تصرفا لائقا جديرا بالاحترام.

على أي الأحوال ماذا كان موقف أبي سفيان من اختيار عثمان ؟ لقد دخل على الخليفة ليقول له : (قد صارت إليك بعد تيم وعدي) يقصد آل أبي بكر (تيم) وآل عمر (عدى) ثم يطلب منه ما يلي : (فأدرها كالكرة) وهذا اهتمام بالكرة منذ القديم ، وليس الآن ، وإن كان الاهتمام بالكرة الآن أصبح هوسا في هوس في هوس ، يدخل في صناعة الهوس ، وصرف الناس عن المشكلات والبلايا والمصائب التي تحاصرهم.

ونعود إلى أبي سفيان فالعود في كل الأمور أحمد ، إذ ينصح عثمان (فتزقفوها تزقف الكرة) الكرة مرة أخرى يا أبا سفيان ، ثم يضيف : (فاجعل أوتادها

في بني أمية ، فإنما هو الملك ، وما أدرى : ما جنة ولا نار [1]).

ولم يكتف الرجل بهذا ، إنما ذهب إلى قبر حمزة قائلا : (رحمك الله أبا عمارة ، لقد قاتلتنا على أمر صار إلينا) ويقال أيضا إنه أتى قبر حمزة حين آل الأمر إلى عثمان فركل القبر ، ثم قال : (يا حمزة ، إن الأمر الذي كنت تُقاتِلنا عليه بالأمس قد ملكناه اليوم ، وكنا أحق به من تيم وعدي [2]).

والآن ما هي سياسة عثمان ، أو الخط العام لسياسة الخليفة الجديد ؟ يرى أستاذنا الدكتور محمد حلمي أن مفتاح سياسة عثمان قوله في مجلس الستة : (لأن تعينوا حجرا خير من أن تولوا رجلا مثل عمر) لأن عمر اتخذ سياسة الحزم في إدارة الدولة ، كما شدد الرقابة على كبار الصحابة ، وحرم عليهم التغيب عن المدينة بغير إذن ، ولأجل مسمى محدد ، فجاء عثمان في مجلس الستة ـ وقبل اختياره ـ ليعبر عن رغبته ورغبة بعض القادة في التخفف من القيود التي حدت من حركتهم في العصر العمري.

برغم أن بيعة عثمان كانت على العمل بكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) وسيرة الخليفتين من قبله ـ خاصة عمر ـ إلا أنه خالف سياسة عمر في إطلاق الحرية لكبار الصحابة للانطلاق إلى الأمصار ، فانصرفوا إلى التجارة والزراعة والثروة والقصور فتكونت طبقة واسعة الغنى والمال ، والتفت حولهم جماعات من أصحاب المصالح.

وفي المقابل نما تجمع معارض يدعو إلى الزهد والمساواة بين الناس ، أما الأخطر الأخطر فكان ولاة عثمان ومستشاريه المقربين في المدينة ، وكانوا جميعا عن بكرة أبيهم من بني أمية ، سبب رئيس ومحوري من أسباب الفتنة التي بدأت في

---

(١) المقريزي : ص٥٦.
(٢) السابق ، ص٨٤.

عهد عثمان ، ثم انتهت إلى وضع حد لحكم الراشدين ... انتهى كلام أستاذنا الدكتور محمد حلمي [1].

أول اصطدام للخليفة كان مع عامله على مصر ، ابن العاص ، بعد ٤ سنوات ، عزله ، ولكن ولى مكانه ابن أبي السرح ، وقد ذكرنا طرفا من سيرته ، ولكن عمرو ابن العاص ظل متربصا محرضا - ما وسعه - على عثمان.

فمنذ عزل عن مصر ، اعتزل في فلسطين ، وكان يأتي المدينة أحيانا ، ولكنه في كل الأحوال كان يتابع ما يجري في عاصمة الخلافة ، وعندما حوصر عثمان ، وطلع عليه راكب من الحجاز ، قال له عمرو : ما وراءك ؟ قال : (تركت عثمان محصورا) فكان رد عمرو : (قد يضرط العير - الجمل - والمكواة في النار [2]) أي هذا الحصار مقدمة لشيء وإعداد له ، شيء له ما بعده.

ولما قتل عثمان قال ابن العاص : (أنا أبو عبد الله ، إذا حككت [3] قرحة نكأتها) أي إذا سعيت لشيء وتدخلت فيه ، وصلت إلى ما أريد ، وما فيه أرغب.

وليت الأمر اقتصر لدى عثمان على تولية الأقارب من بني أمية ، ولكن الخليفة اختار نماذج كانت رموزا للكفر والعداء ضد الرسول والمسلمين ، فهذا ابن أبي السرح ابن عمه ، وأخوه من الرضاعة ، لكنه - كما سلف - أسلم ، ثم ارتد ، ولم يقبله الرسول (ﷺ) أو لم يقبل شفاعة عثمان فيه إلا بعد إلحاح وجهد كبير بذله ابن العم عثمان.

زد على هذا أنه لم يستعملهم فقط ويوليهم ، بل ترك العنان والحبل على الغارب

---

(١) الخلافة والدولة ... ص٨٨.
(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة.
(٣) الخلافة والدولة ... ص٩٦.

لهم ، خاصة الحكم بن أبي العاص وابنه مروان - طريد رسول الله (ﷺ) ولعينه ، هذا في المدينة ، أما في الشام فقد استفحل أمر معاوية حتى غدا خطرا كبيرا على الخليفة وعلى حياته.

أولا - الحكم وابنه : قدم الحكم بن أبي العاص بن أمية ، قدم المدينة على عثمان ، كان هذا الحكم وهو عم عثمان يطالع الأعراب والكفار بأخبار الرسول (ﷺ) فقط ؟ كلا ، إذ بينما رسول الله (ﷺ) يمشي ذات ، إذ بهذا اللعين - الحكم - يمشي خلف محمد (ﷺ) فجعل يختلج بأنفه وفمه يحاكي رسول الله (ﷺ) ويتفكك ويتمايل ، فالتفت الرسول (ﷺ) فرآه ، فقال : كن كذلك ، فمازال بقية عمره على هذا.

اطلع يوما على رسول الله (ﷺ) وهو في حجرة بعض نسائه ، فخرج إليه بعنَزَة - رمح قصير - فقال : من عزيري من هذه الوزغة - البُرص السام أو الحشرة الضارة - لو أدركته لفقأت عينه.

مر الحكم فقال الرسول (ﷺ) : (ويل لأمتي مما في صلب هذا) لعن رسول الله (ﷺ) هذا الرجل وما ولد ، ونفاه عن المدينة ، فلم يزل خارجا عنها بقية حياة النبي الأكرم (ﷺ) فلما جاء أبو بكر رفض رده إلى عاصمة الخلافة قائلا : (ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله (ﷺ)) وعندما جاء عمر لم يسطع أحد أن يكلمه.

فلما استخلف عثمان رده إلى المدينة وولده زاعما أن الرسول (ﷺ) وعده برده ، فكانوا أعظم الناس شؤما على ابن أخيه عثمان ، ورأى الناس أن إدخال الحكم بعد اطراد النبي إياه وامتناع الشيخين عن ذلك من أكبر الحجج والإنكار على ابن الأخ عثمان ، وبرغم هذا عندما مات الحكم ضرب عثمان على قبره فسطاطا [1].

---

(١) المقريزي ، ص٤٠.

جعل رسول الله (ﷺ) يكثر النظر إلى مروان بن الحكم هذا ، فقيل له : يا رسول الله ، إنك لتكثر النظر إلى هذا الشاب ، فقال : (أليس هذا ابن المخزومية ؟ أليس هذا ابن المخزومية ؟) قالوا : بلى ، قال : (إذا بلغ بنو هذا أربعين رجلا كان الأمر ـ الحكم ـ فيهم) لذا كان مروان إذا جرى بينه وبين معاوية كلام ، قال : إني والله لأبو عشرة ، وأخو عشرة وعم عشرة ، وما بقي إلا عشرة حتى يكون الأمر فيّ.

روى أبو هريرة عن النبي (ﷺ) قال : (رأيت في النوم بني الحكم وبني أبي العاص ينزون على منبري ، كما تنزو القردة) تثب وتقفز ، قال أبو هريرة : فما رؤي (ﷺ) مستجمعا ضاحكا حتى توفى.

وفي رواية أخرى أن النبي (ﷺ) رأى بني أمية على منابره ، فساءه ذلك فأوحي إليه : (إنما هي دنيا أعطوها) فقرت عينه ، قال تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ [1]).

وروي أبو هريرة أيضا عن سيد الخلق (ﷺ) : (إذا بلغ بنو أبي العاص أربعين رجلا ، اتخذوا دين الله دغلا ، وعباد الله خولا ، ومال الله دولا) هذا مروان ابن الحكم يخلو بعمر بن عثمان بن عفان وهو مريض ليقول له : (ما أخذ هؤلاء ـ معاوية وأسرته ـ الخلافة إلا باسم أبيك) هذا صحيح مائة في المائة : (فما يمنعك أن تنهض بحقك ، فنحن أكثر منهم رجلا) ثم عدد فضول ومناقب بني أبي العاص على بني حرب ـ آل معاوية ـ فكتب معاوية إلى مروان : (وأشهد يا مروان أني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : إذا بلغ ولد الحكم أربعين رجلا ، اتخذوا دين الله دغلا ، وعباد الله خولا ، ومال الله دولا) فكتب مروان : يا معاوية ، إني أبو عشرة وعم ... الخ.

---

(١) الآية ٦٠ ، الإسراء.

وينهض معاوية إلى عبد الله بن عباس يسأله : أنشدكم الله يا ابن عباس ، أما تعلم أن رسول الله (ﷺ) ذكر هذا - أي مروان بن الحكم - فقال : أبو الجبابرة الأربعة ؟ قال ابن عباس : اللهم نعم.

نعم أبو الجبابرة الأربعة ، فهذا معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية جدع أنف عم الرسول (ﷺ) الحمزة ، ومثل به فيمن مثل ، فلما هزم يوم أحد [1] ، دخل على عثمان ليجبره ، فوهبه (ﷺ) إلى عثمان ، لكنه أقسم إن وجده في المدينة وما حولها بعد ثلاث ليال ليقتلنه ، فجهزه عثمان وسار في اليوم الرابع ، فقال (ﷺ) : إن معاوية أصبح قريبا ، لم ينفذ ، فاطلبوه ، واقتلوه ، وقتل بالفعل ، معاوية هذا هو أبو عائشة أم عبد الملك بن مروان - أحد الجبابرة الأربعة - فعبد الملك هذا أحد أبويه - أجداده - الحكم طريد الرسول ، والآخر معاوية قتيل رسول الله.

مروان بن الحكم كان يوصف بأنه رجل لا فقه له ولا رواية - كما يقول المقريزي [2] - لقد قال لخالد بن يزيد بن معاوية ، وأمه عنده ، تزوجها بعد وفاة زوجها يزيد ، وفي مرة قال لخالد ابنها : (اسكت يا ابن الرطبة الاست) فكان حتفه في هذه الكلمة ، إذ يقال : إنها سمته ، ويقال قعدت عليها باستها - المقعدة - حتى مات ، أو كتمت أنفاسه بوسادة بعد أن أسكت به جواريها ، فهو معدود فيمن قتلته النساء ، حكم سنة واحدة ، كانت - كما وصف الإمام عليّ - كلعقة الكلب أنفه ، أي كانت مدة حكمه قصيرة جدا.

ولد مروان هذا سنة ٢ هـ ، وطالت به الأيام حتى تمكن من انتزاع الخلافة من بني معاوية ، فتولى ٦٤ هـ ، وفي العام التالي مباشرة ٦٥هـ هلك.

---

(١) المقريزي ص٥٦.
(٢) السابق.

وعندما جاء مروان لأخذ البيعة ليزيد بن معاوية في المدينة اعترض عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقال مروان : (ألست الذي قال لوالديه : أف لكما ؟) قال عبد الرحمن : ألست اللعن ابن اللعين ، لعن رسول الله (ﷺ) أباك ، قالت عائشة : كذب مروان ، ما فيه ـ في أخيها عبد الرحمن ـ نزلت ، إنما نزلت في فلان بن فلان ، ولكن رسول الله (ﷺ) لعن أبا مروان ـ ومروان في صلبه ـ فمروان من لعنه الله.

فدك ـ وما أدراك ما فدك ـ صالح رسول الله (ﷺ) أهل فدك على نصف هذه القرية ، فصارت لرسول الله (ﷺ) يصرف ما يأتيه منها على أبناء السبيل ، وعندما جاء معاوية أقطعها مروان ـ أبي الجبابرة ـ الذي وهبها لأبنائه الجبابرة.

فدك التي ضنوا بها على بضعة الرسول من ميراث أبيها فاطمة التي قال عنها أبوها : (من أرضاها فقد أرضاني ، ومن أسخطها فقد أسخطني) قد أسخطوها وأغضبوها ، وغصبوا حقها في ميراث أبيها (ﷺ) ومع هذا أقطعت فدك لابن عدو الله ولعينه وطريده.

لم يك الخطأ في بر القرابة وصلتها أو مجاملتهم ، وإنما كان بعض هؤلاء الأقارب لعثمان ممن لهم باع كبير في معاداة المصطفى (ﷺ) ولعنه وطرده ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء أساءوا إلى الخليفة إساءات بالغة ، وكانوا نذر شؤم عليه ، كما سيأتي.

فهذا مروان بن الحكم برغم كل هذا كان وزير عثمان الأول ومستشاره الأقرب الذي أطلقت يده في إدارة شئون الدولة ، بل اجتمعت في يده كل السلطات الفعلية ، أخوه الحارث بن الحكم تولى الإشراف الإداري على أسواق المدينة.

الأب الحكم أسلم فقط يوم الفتح فهو طليق من الطلقاء ، اسمع ـ عزيزي القارئ ـ إلى هذا الحوار بين هذا الحكم وبين ابنته ماذا تقول له ؟ تقول ـ يا رحمك

الله ـ ما نصه :

ما رأيت قوما كانوا أسوأ رأيا وأعجز في أمر محمد منكم يا بني أمية !!
والحق يا ابنة الطريد اللعين الطليق أن القوم ما قصروا في عداوتهم لسيد الخلق (ﷺ) ولكن أباك سوف يدافع عن نفسه وعن قومه ويترافع عنهم ، كما يفعل عتاة المحامين ، يا ابنة الحكم ، إذ يقول في مرافعته :

لا تلومينا ـ يا بنية ـ إني لا أحدثك إلا بما رأيت بعينيّ هاتين ، قلنا : والله ، ما نزال نسمع قريشا تقول : يصلي هذا الصابئ في مسجدنا ـ الكعبة ـ فتواعدوا له تأخذوه ، فتواعدنا إليه ، فلما رأيناه ، سمعنا صوتا ، ظننا أنه ما بقي في تهامة جبل إلا تفتت علينا ، فما عقلنا حتى صلاته ـ أي في الكعبة ـ ورجع إلى أهله.

ولكن القوم لم ييأسوا ، تواعدوا ليلة أخرى لقتله وفي الكعبة ، فلما جاء نهضوا إليه ، يقول الحكم صادقا مصدقا : (فرأيت الصفا والمروة التقتا ، إحداهما بالأخرى ، فحالتا بيننا وبينه ، فوالله ما نفعنا ذلك ، فلا تلومينا بالعجز [1]).

وفي كل الأحوال فإن محمدا (ﷺ) على طول حلمه وجميل إغضائه ، ما ترك هذه الوزغة ، بل طرده إلى المدينة ، ولعن ما في صلبه ، ولكن عثمان تعلل بأنه شفع له عند الرسول (ﷺ) فوعد برده إلى المدينة ، ولكنه لم يرده يا سيدي ، لا ولا خليفتاه من بعده ، ألم تسمع إلى نصح أبي سفيان لك ـ يا عثمان ـ عندما أردت أن تعيد إليه المال الذي صادره عمر من ابنه عتبة ، لقد محض النصح بأن لا ترد على من سبقك شيئا صنعه حتى لا يرد عليك سلفك ومن يأتي بعدك ، وهذا ما حدث في رد الحكم إلى المدينة.

(١) أسد الغابة ٣٦/٢.

إذا كان الناس أقداما وأعتابا ، فإن عودة هذا الحكم إلى المدينة كان قدم شؤم وندامة على عثمان أولا ، وعلى الأمة أيضا ، ولله في خلقه شئون وشئون.

إذن المسألة ليست في صلة رحم ، أو مجاملة أقارب ، وإنما هي مجاملة لرموز معادية للنبي (ﷺ) ولدينه ، وفي ذات الوقت فإن هذه الرموز استغلت قربها من الخليفة ، فأساءت إليه إساءات بالغة ، وكانت السبب في قتله في نهاية المطاف.

هذا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يهجو عبد الرحمن [1] بن الحكم :

اللعين أبوك فارم عظامه ... إن ترم ترم مخلجا مجنونا

يمشي خميص البطن من عمل التقى ... ويظل من عمل الخبيث بطينا

ونكتفى بما سبق عن الحكم وأبنائه خاصة مروان ، لننتقل إلى النقطة التالية :

ثانيا ـ معاوية : ذكرنا أن يزيد بن أبي سفيان كان أفضل أبناء أبيه ، مات في عهد عمر ، فولى مكانه أخوه معاوية ، وهو أخ من الأب ليزيد هذا ، إذ الأم ـ كما سلف ـ تختلف ، أم معاوية هند بنت عتبة ، وأم يزيد (زينب بن نوفل) الكنانية ، توفي يزيد ١٩ هـ ، فتولى مكانه أخوه من الأب معاوية.

إذن فمعاوية أمير على الشام ، أو أمير في الشام منذ مات أخوه يزيد ١٩ هـ مات عمر أواخر عام ٢٣ هـ ، جاء عثمان فأقر معاوية على ما كان عليه ، إلا أن عثمان (ﷺ) منح ولاة الأقاليم قدرا كبيرا من الحرية ، أوهم أعطوا أنفسهم مزيدا من الحريات ، في حين كان عمر يرى نفسه مسئولا عن الصغير والكبير والفتيل والقطمير ورغم هذا كان معاوية يعطي نفسه قدرا كبيرا من الحرية في تصريف أمور نفسه في إمارته ، أو في تصريف شئون مملكته (إمارته).

(١) السابق.

وكان شعار عثمان (ﷺ) في الرد على كل الاتهامات : (وصلت رحما ، وسددت خلة ، ووليت من كان يوليهم عمر) ولكن سلوك من ولاهم عمر اختلف الآن ، ومنهم معاوية الذي تجرأ على كبار الصحابة فضلا عن غيرهم ، عند حصار عثمان يدعو إليه عليا وطلحة والزبير ليجدوا عنده معاوية الذي قال لهؤلاء الثلاثة ، وعثمان ساكت :

(أنتم أصحاب رسول الله (ﷺ) وولاة أمر هذه الأمة ، لا يطمع فيه) في الحكم (أحد غيركم ، اخترتم صاحبكم) عثمان (من غير غلبة ، ولا طمع ، وقد كبر وولى عمره ، ولو انتظرتم به لكان قريبا) بقصد موت الخليفة (وقد فشت مقالة خفتها عليكم ، فما عبتم فيه من شيء ...).

ويعجب الثلاثة لسكوت عثمان وتركه معاوية يتحدث إليهم ، وبهذه الطريقة ويجيبه عليّ ، فتى بني هاشم : (مالك ولذاك ، لا أم لك !؟) ويرد معاوية : (دع أمي ، فإنها ليست بشر أمهاتكم ، قد أسلمت ، وبايعت النبي (ﷺ) وأجبني عما أقول).

يقول أستاذنا الدكتور محمد حلمي [1] : وتشتد الفتنة ، وتهدد حياة عثمان ، فلا يتحرك معاوية لإزالة أسباب والفتنة والشر ، وينصرف إلى توطيد أقدامه وتعزيز سلطته ، واضعا عينه على تطورات الحجاز حول الخليفة ، وكأنما يريد نفس النتيجة ، هذا ابن عباس يدخل على معاوية في خلافته فيقول له : (وأما أنت يا معاوية فزينت له) عثمان (ما صنع حتى إذا طلب نصرتك أبطأت عنه وتثاقلت ، وأحببت قتله ، وتربصت لتنال ما نلت).

والشيء بالشيء يذكر فلا يعاب من أحد ولا ينكر ، هذا مروان بن الحكم وزير عثمان ومستشاره الأقرب حين رأى الثائرين حول دار عثمان يقول لهم :

---

(١) الخلافة والدولة ... ص٩٣.

ما شأنكم ، قد اجتمعتم ، كأنما جئت لنهب !؟ شاهت الوجوه ، أجئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ، ارجعوا إلى منازلكم ، فإنا ـ والله ـ ما نحن بمغلوبين عما في أيدينا [(١)] صدقت يا ابن الحكم ، ما سنك يا رجل ؟ ٣٥ سنة تقريبا.

ولا يكتفي معاوية بهذا بل يأتي مجلسا فيه عليّ وطلحة والزبير وسعد وعمار وابن عوف ليقول لهم : (يا معشر الصحابة : أوصيكم بشيخي هذا) عثمان (فوالله لئن قتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلا ورجالا) ثم أقبل على عمار : (يا عمار ، إن بالشام ١٠٠ ألف فارس ، كل يأخذ العطاء ، مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم ، لا يعرفون عليا ولا قرابته ، ولا عمار ولا سابقته ، ولا الزبير ولا صحابته ولا طلحة ولا هجرته ، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله ، ولا يتقون سعدا ولا دعوته فإياك يا عمار أن تقعد غدا في فتنة ، فيقال : هذا قاتل عثمان ، وهذا قاتل علي) صدقت يا معاوية إن جندك المجندة لا يعرفون شيئا من هذا.

وفي الإمامة والسياسة لابن قتيبة بقية الحوار [(٢)] ، قال معاوية : (يا ابن عباس ، إنا كنا وإياكم في زمان لا نرجو فيه ثوابا ، ولا نخاف عقابا ، وكنا أكثر منكم ـ فوالله ـ ما ظلمناكم ، ولا قهرناكم ، ولا أخرناكم عن مقام تقدمناه ، حتى بعث الله رسولا منكم ، فسبق إليه صاحبكم ، يقصد عليّ بن أبي طالب (فوالله مازال يكره شركنا ويتغافل به عنا حتى ولي الأمر علينا وعليكم ، ثم صار الأمر إلينا وإليكم ، فأخذ صاحبنا على صاحبكم لسنه ، ثم غير فنطق ونطق على لسانه ، فقد أوقدتم نارا لا تطفأ بالماء).

فقال ابن عباس : (كنا كما ذكرت حتى بعث الله رسوله منا ومنكم) وليس منا

---

(١) السابق.
(٢) ص٢٨ وبعدها.

فقط (ثم ولي الأمر علينا وعليكم ، ثم صار الأمر إلينا وإليكم ، فأخذ صاحبكم على صاحبنا لسنه وما هو أفضل من سنه ، فوالله ما قلنا إلا ما قال غيرنا ، ولا نطقنا إلا بما نطق به سوانا ، فتركتم الناس جانبا ، وصيرتمونا بين أن أقمنا متهمين ، أو نزعنا معتبين ، وصاحبنا من قد علمتم ، ولا يهجهج مهجهج إلا ركبه ، ولا يرد عوضا أفرطه ، وقد أصبحت أحب منك ما أحببت ، وأكره ما كرهت ، لا ألقاك إلا في خير).

ويخرج ابن عباس إلى المسجد ، وبعد صلاة العصر جلس مع علي بن أبي طالب ، وإذ برسول عثمان يدعو عليا ، فلما ذهب الرسول سأل عليّ ابن عمه : لم تراه دعاني؟ قال ابن عباس : دعاك يكلمك، قال انطلق معي، وعند عثمان كان طلحة والزبير وسعد وبعض المهاجرين ، فجلس الجميع ، قال ابن عباس : فإذا عثمان عليه ثوبان أبيضان ، فسكت القوم ونظر بعضهم لبعض ، ولكن عثمان تكلم ، حمد الله ، ثم قال : أما بعد ، فإن ابن عمي معاوية قد كان غائبا عنكم ، وعما نلتم مني ، وما عاتبتكم عليه وعاتبتموني ، وقد أراد أن يكلمكم ، وأن يكلمه من أراد ، فقال سعد بن أبي وقاص : وما عسي أن يقال لمعاوية أو يقول إلا ما قلت - يا عثمان - أو قيل لك ؟!.

فقال عثمان تكلم يا معاوية ، وتكلم معاوية فقال :

يا معشر المهاجرين وبقية الشورى ، إياكم أعني وإياكم أريد ، فمن أجابني بشيء فمنكم واحد ، فإني لم أرد غيركم ، توفي رسول الله (ﷺ) فبايع الناس أحد المهاجرين التسعة ، ثم دفنوا نبيهم ، فأصبحوا سالما أمرهم ، كأن نبيهم بين أظهرهم ، فلما أيس الرجل - أبو بكر - نفسه بايع رجلا من المهاجرين - يقصد عمر - فلما احتضر ذلك شك في واحد أن يختاره ، فجعلها في ستة نفر ، بقية المهاجرين ،

فأخذوا رجلا منهم يسألون عن الخير فيه فبايعوه ، وهم ينظرون إلى الذي كائن بعده لا يشكوّن ، ولا يمترون ، مهلا مهلا معشر المهاجرين ، فإن وراءكم من إن دفعتموه اليوم اندفع عنكم ، ومن إن فعلتم الذي أنتم فاعلوه ، دفعكم بأشد من ركنكم ، وأعد من جمعكم ، ثم استن عليكم بسنتكم ، ورأى أن دم الباقي ليس بممتنع بعد دم الماضي ، فسددوا وارفقوا ، لا يغلبنكم على أمركم من حذر.

فقال عليّ بن أبي طالب : كأنك تريد نفسك يا ابن اللخناء ، لستَ هنالك ، فرد معاوية : مهلا عن شتم بنت عمك ، فإنها ليست بشر نسائك ، يا معشر المهاجرين ، وولاة هذا الأمر ، ولاكم الله إياه فأنتم أهله ، وهذان البلدان مكة والمدينة مأوى الحق ومنتهاه ، إنما ينظر التابعون إلى السابقين ، والبلدان إلى البلدين ، إن استقاما استقاموا ـ وأيم الله الذي لا إله إلا هو ـ لئن صفقت إحدى اليدين الأخرى ، لا يقوم السابقون للتابعين ، ولا البلدان للبلدين ، وليسلبن أمركم ، ولينقلن الملك من بين أظهركم ، وما أنتم في الناس إلا كالشامة السوداء في الثوب الأبيض ، فإني رأيتكم نشبتم في الطعن على خليفتكم ، وبطرتم معيشتكم وسفهتم أحلامكم ، وما كل نصيحة مقبولة ، والصبر على بعض المكروه من تحمله كله.

خرج القوم جميعا ، ولكن عثمان تشبث بابن عباس قائلا : يا ابن خالتي ، فإنه لم يبلغني عنك في أمري شيء أحبه ، ولا أكرهه ، وقد علمت أنك رأيت بعض ما يرى الناس ، فمنعك عقلك وحلمك من أن تظهر ما أظهروا ، وقد أحببتُ أن تعلمني رأيك فيما بيني وبينك فأعتذر.

قال ابن عباس : يا أمير المؤمنين ، إنك ابتليتني بعد العافية ، وأدخلتني في الضيق بعد السعة ـ والله ـ إن رأيي لك أن يجل سنك ، ويعرف قدرك وسابقتك.

كلام جميل يا ابن عباس ، يا داهية بني هاشم ، ولكن ؟ ولكن يضيف ابن عباس ويكمل : (والله لوددت أنك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك ، فإن كان شيئا تركاه لما رأيا أنه ليس لهما ، علمت أنه ليس لك ، كما لم يكن لهما ، وإن كان ذلك لهما فتركاه خيفة أن ينال منهما مثل الذي نيل منك تركته لما تركاه ، ولم يكونا أحق بإكرام أنفسهما منك بإكرام نفسك.

قال عثمان : فما منعك أن تشير عليّ بهذا قبل أن أفعل ما فعلت ؟ قال ابن عباس : وما علمي أنك تفعل ذلك قبل ؟ قال عثمان : فهب لي صمتا حتى ترى رأيي ثم خرج ابن عباس.

وبمجرد خروجه أسرع عثمان إلى معاوية يستفتيه في الأمر ويستشيره ، قائلا : ما ترى في هؤلاء المهاجرين ، قد استعجلوا القدر ، ولابد مما في أنفسهم.

والحق أن هؤلاء المهاجرين كانوا مخلصين لدينهم وخليفتهم وقيمهم ، وليس لاستعجال القدر والعمر محل من الإعراب ، يا سيدي.

وينبري معاوية لتقديم الاقتراحات التالية :

الاقتراح الأول : الرأي أن تأذن لي فأضرب أعناق هؤلاء القوم ، ويسأل عثمان : من ؟.

- معاوية : عليّ وطلحة والزبير.
- عثمان : سبحان الله !! أقتل أصحاب رسول الله (ﷺ) بلا حدث أحدثوه ، ولا ذنب ركبوه.
- معاوية : فإن لم تقتلهم ، فإنهم سيقتلونك.
- عثمان : لا أكون أول من خلف رسول الله (ﷺ) بإهراق الدماء.
- معاوية : فاختر مني إحدى ثلاث خصال.
- عثمان : وما هيه ؟

الاقتراح الثاني :

- قال معاوية : أرتب لك هاهنا أربعة آلاف من خيل الشام.
- عثمان : أرزقهم من أين ؟
- معاوية : من بين المال.
- عثمان : أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرز دمي ، لا فعلت هذا.

الاقتراح الثالث لمعاوية :

- معاوية : نفرقهم عنك ، فلا يجتمع منهم اثنان في مصر واحد ، واضرب عليهم البعوث ، حتى يكون دبر بعير أحدهم أهم عليه من صلاته.
- عثمان : سبحان الله !! شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول (ﷺ) وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم ، وأفرق بينهم وبين أهليهم وأبنائهم ؟! لا أفعل هذا.

وكل ما سبق من مقترحات هي أمر من المرار والحنظل ، وأشد من رمضاء النيران ، وكان المطلوب أن ترفض جميعا ، وقد أصاب الخليفة ورشد ووعى حين رفض كل ما سبق ، ولم يبق في الجعبة إلا مقترح واحد سيرضى به ، وهو ما يريده معاوية ويبتغيه وإليه يرنو ويتطلع ، ما هو ؟ إنه :

الاقتراح الرابع : ما هو يا داهية العرب والعجم ؟ يقول معاوية لعثمان :

- معاوية : اجعل لي الطلب بدمك إن قتلت.
- عثمان : نعم هذه لك ، إن قتلت فلك أن تطالب بدمي.

وكان خطأ كبيرا استغل أسوأ استغلال ، كما سترينا الأحداث ومجرياتها ، على أية فإن الخليفة خرج من هذه الحوارات خاصة مع معاوية بنتيجة مؤسفة هي

الاندفاع في ذات الطريق الخاطئ ، وكأن القطار قد انطلق ثم انفلت من عقاله وسائسيه ليندفع نحو هاوية المجهول ، الذي لم يك يتصوره أحد في المدينة ، ولا يريده.

ومن ناحية أخرى لا ننسى أن عثمان لو لم يعط هذا الحق لمعاوية فإن هذا الأخير لم يك ليتنازل عنه أو يتركه ، وهذا ما كان منه ، حتى استتب له الأمر بعد موت عليّ وتسليم الحسن وإبرامه الصلح ، بعدها نسيت القضية ، وبدأت عملية توطيد الملك والنفوذ ، وأخذ البيعة قسرا للابن يزيد.

وكان يكفي فقط لحماية عثمان مائة فارس فقط ، يدفع معاوية أرزاقهم ، لكنه بمجرد أن حصل على تفويض المطالبة بدم عثمان حتى رأي أن على الخليفة أن يموت حتى يطالب بدمه إلى أن يصل إلى الحكم ، ثم يغلق الملف ، وينصرف الرجل إلى أعماله وقضايا الحكم وهمومه ومسئولياته.

نعود إلى عثمان الذي تركه معاوية إلى المنبر فصعده ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إن نصيحتي كذبتني ، ونفسي منتني ، وقد سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : لا تتمادوا في الباطل ، فإن الباطل يزداد من الله بعدا ، من أساء فليتب ، ومن أخطأ فليتب ، وأنا أول من اتعظ ، والله لئن ردني الحق عبدا لأنتسبن إلى العبيد ، ولأكونن كالمرقوق الذي إن مُلك صبر ، وإن أعتق شكر.

ثم نزل ودخل على زوجه السيدة الفضلى نائلة بنت القرافصة ، ودخل معه مروان بن الحكم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أتكلم أو أسكت ، فقالت له السيدة نائلة : بل اسكت ، فوالله إن تكلمت لتغرنه ولتوبقنه ، ويلتفت عثمان إليها مغضبا قائلا : اسكتي.

لكنها كانت على الحق ، هذه سيدة تساوي الكثير ، لقد رأيت في بعض

الشعوب المرأة وهي تساوي ألفا أو أكثر من الرجال ، والرجل لا يساوي شيئا إلى جانب المرأة ، حتى أنني قرأت أن ثلاث ملكات دافعن دفاع الإبطال عن مملكتهن ، فلما هلكن ، وخلفن من بعدهن خلف من الرجال ، أضاعوا المملكة وإلى الأبد.

في كل هذي الأحداث أين المغيرة ، وماذا كان دوره ؟ هذا ما سوف نتناوله بعد أن نتحدث عن :

نذر العاصفة : اتضح أن عاصفة قاصفة تتجه نحو المدينة ، وكان وقود هذه العاصفة مجموعة من الرجال :

- الحكم وأبناؤه ، خاصة مروان.
- عبد الله بن أبي السرح.
- معاوية الذي تخلى عنه في الوقت المطلوب.

بدأت العاصفة تتجه بسرعة جنونية نحو عاصمة الخلافة ، لقد قتل عمر (رضي الله عنه) نتيجة مؤامرة مفاجئة لم يتوقعها أحد ، ولم يكن لها أية مقدمات باستثناء تهديد القاتل لعمر الذي لم يك يتصور أن يحدث له ما حدث.

الأمر في عهد عثمان اختلف ، إن الأحداث كانت تتجه نحو التصاعد ، والمعارضة تزداد شراسة ضد الخليفة ، وأتصور أن منع الكارثة كان ممكنا لو أن أمير الشام ـ معاوية ـ قدم مائة فارس لحراسة الخليفة ، أو قبل عثمان شيئا مما عرض عليه ، ولكن الرجل لسبب أو لآخر ، ربما بسبب مستشاريه وعلى رأسهم مروان رفض كل المقترحات والحلول ، وهذا ما يظهر من مناقشتنا للأحداث.

وفي كل الأمور ، كما كان في عهد الشيخين كان الإمام عليّ حاضرا في جل

الأحداث وجليلها ، يقول الطبري [1] : لما كانت سنة ٣٤ هـ أكثر الناس على عثمان ، ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد ، وانتهوا بأن كلموا عليا الذي ذهب إلى عثمان ، فكان مما قال له :

أحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول ، فإنه يقال : يقتل في هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، وتلبس أمورها عليها ، ويتركهم شيعا ، فلا ينصرون الحق لعلو الباطل ، يموجون فيه موجا ، ويمرَجون فيه مرجا.

- قال عثمان : أنشدك الله - يا عليّ - فتعلم أن عمر ولي المغيرة ؟ فلم تلومني أن وليته ؟
- قال عليّ : إن عمر كان يطأ على صماخ [2] كل من ولاه ، إن بلغ عنه حرف جلبه - أحضره - ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل ، ضعفت ورققت على أقربائك.
- عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ؟ فقد وليته !!.
- عليّ : أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من (يرفأ) غلام عمر ؟؟.
- عثمان : نعم.
- عليّ : فإن معاوية يقتطع الأمر دونك ، فيبلغك ، ولا تغير على معاوية.

وانتهى هذا الحوار الذي وضع يد الإمام عليّ الجرح ، أقارب عثمان الذين تصرفوا بهذي الطرق ، ولم يغير عليهم عثمان (رضي الله عنه).

وكان رأي الخليفة وتصوره أن الناس عابوا عليه ما كان يفعل عمر (رضي الله عنه)

(١) تاريخ الطبري ٣٣٦/٤.
(٢) أذنه ورأسه.

لكنهم لم يجرءوا على معارضته ، في حين تجرءوا على عثمان (ﷺ) وهذا فحوى ما قاله في إحدى خطبه :

إن لكل شيء آفة ، ولكل نعمة عاهة ، آفة هذا الدين وعاهة هذه الملة قوم عيابون طعانون ، يظهرون ما تحبون ، ويسرون ما تكرهون ، أما ـ والله ـ يا معشر المهاجرين والأنصار ، لقد عبتم عليّ أشياء ، ونقمتم أمورا قد أقررتم لابن الخطاب مثلها ، ولكنه وقمكم [1] وقمكم ، ولم يجتري أحد يملأ بصره منه ، ولا يشير بطرفه إليه ، أما ـ والله ـ لأنا أكثر من ابن الخطاب عددا ، وأقرب ناصرا وأجدر.

ولم ينس أن يذكر الناس بما يلي :

أتفقدون من حقوقكم شيئا ، فما لي لا أفعل في الفضل ما أريد ، فلم كنت إماما إذن ؟! أما ـ والله ـ ما عاب عليّ من عاب منكم أمرا أجهله ، ولا أتيت الذي أتيت إلا وأنا أعرفه.

وهكذا كانت وجهة نظر عثمان أنه ولى من ولي ابن الخطاب ، ولكن أحدا لم يجرؤ على معارضته ، في حين عارض الناس عثمان ، لكن الأمر ليس على هذه الصورة ، كيف ؟.

١ ـ إن عمر (ﷺ) لم يول أحد من أقاربه البتة ، ومعاوية والمغيرة وعمرو بن العاص ، وغيرهم لم يكونوا ـ من بعيد أو قريب ـ ممن يمتون إلى الرجل بقرابة أو مصاهرة.

٢ ـ كان عمر شديد المحاسبة لعماله ، إذا حدث من العامل شيئا أحضره وأقعده وحاسبه حسابا شديد دقيقا.

---

(١) قمعكم.

٣- وهي ثالثة الأثافي ، وإنها لإحدى الكبر أن رموزا من رموز الكفر وعدم التقصير في عداوة محمد (ﷺ) والتصدي لدعوته جاءت لتلعب دورا في إدارة الدولة ، على رأسهم الحكم وابنه مروان وعبد الله بن أبي السرح ، أمثال هؤلاء ليسوا أقارب الخليفة فقط ، بل كانوا رموزا لا تحظى برضا سيد الخلق (ﷺ) والشيخين من بعده وعامة المسلمين ، فالقضية ليست قضية قرابة وصلة ، وإنما اختيار هؤلاء الأقارب ، وطبيعة هذا الدور الذي لعبوه في عصر محمد (ﷺ) ثم تأكد هذا الدور في عهدك يا سيدي يا ابن عفان.

ولكن في كل هذه الأحداث أين المغيرة ودهاؤه وأفكاره وتأثيره في سير الأحداث ؟ وقبل أن نذكر هذا نتساءل : هل كان المغيرة من المحرضين على عثمان ؟؟.

لا توجد رواية تشير من قريب أو بعيد بأن الرجل حرض على الخليفة ، بل إنه حاول التفاهم مع الثائرين المحاصرين ، كما عرض بعض المقترحات على عثمان للخروج من هذا المأزق ، كيف ؟ هذه هي الإجابة :

١- ذهب المغيرة إلى الخليفة وهو محصور ، فقال له : (دعني آت القوم ، فأنظر ماذا يريدون ؟) فلما دنا منهم واقترب ، صاحوا به :

- يا أعور وراءك.
- يا فاجر وراءك.
- يا فاسق وراءك.
- إليك عنا يا أعور ثقيف.

وفشلت المحاولة التي كان يمكن أن تؤدي إلى إنقاذ الخليفة.

٢- وعندها حاول المغيرة التفاهم مع عثمان نفسه ، فدخل عليه وهو محصور ، فقال له : (نزل بلك ما ترى وإنّا مخيروك بين ثلاث).

يلاحظ أن الرجل يقول : مخيروك ، بصيغة الجمع ، هل كان على تنسيق مع رجالات أخرى كعمرو ومعاوية ، فقد سلف أن أحد العلماء السعوديين قال : (إن المغيرة كان يعمل لحساب معاوية ، لا دليل) ولا خيط يقود إلى هذا الرأي.

على أي الأحوال هات أيها المغيرة ما عرضت عن عثمان :

١- إن شئت خرقنا لك بابا في الدار سوى الباب الذي هم عليه ، فتقعد على رواحلك ، فتلحق بمكة ، فإنهم لن يستحلوك وأنت بها.

٢- أو أن تلحق بالشام ، فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية.

٣- أو تخرج بمن معك فنقاتلهم - لاحظ صيغة الجمع - فإن معك عددا وقوة وأنت على حق ، وهم على باطل.

مقترحات واجتهادات لا بأس منها ، ولكن بماذا رد عليك الخليفة يا مغيرة ؟ لقد قال ما يلي الذي أمليه عليك يا كاتب السطور :

لقد رفضها كلها جملة وتفصيلا ، فماذا كانت حججه ؟ كانت :

١- قال (ﷺ) : يلحد رجل من قريش بمكة ، عليه نصف عذاب العالم ، فلن أكون المتأسي بهذا الرجل ، هذا الرد على المقترح الأول.

٢- الرد على المقترح الثاني : لن أفارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله (ﷺ) وحزبه فيها.

٣- المقترح الأخير رده عثمان بما يلي : لن أكون أول من خلف رسول الله (ﷺ) في أمته بإهراق دم مسلم بغير حق.

وبذا يكون عثمان قد رفض جميع المقترحات المقدمة إليه من محبيه

والمقربين إليه ، ولكن لا يوجد مشكلة لا حل لها ، ولا مرض لا دواء له - إلا الموت - ومن ناحية أخرى فإن الخليفة نفسه لم يتقدم نحو المعارضين والمحاصرين بأي حل أو مبادرة حل.

ومن ثم لم يعد حل إلا إطلاق نداءات الاستغاثة للناس في الحج وإلى أهل الشام ومعاوية على وجه الخصوص :

١- كان ابن عباس على موسم الحج أميرا من قبل عثمان ، فأرسل إلى أمير على الحج نداء الاستغاثة التالي :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عثمان ، أمير المؤمنين إلى من حضر الحج من المسلمين ، فإني كتبت إليكم كتابي هذا وأنا محصور ، أشرب من بئر القصر [1] ، وآكل من الطعام ما يكفيني ، خيفة أن تنفد ذخيرتي ، فأموت جوعا أنا ومن معي ، لا أدعي إلى توبة أقبلها ، ولا تسمع مني حجة أقولها ، فأنشد الله رجلا من المسلمين بلغة كتابي إلا قدم عليّ ، فأخذ الحق فيّ ومنعني من الظلم والباطل.

ولكن ابن عباس الذي سمح بقراءة رسالة الخليفة ، استمر في خطبته ، ولم يعرض لأمر عثمان ، لا من قريب ، ولا من بعيد.

٢- رسالة الاستغاثة الثانية إلى معاوية ، وفيها يشير إلى بعض المقترحات التي عرضت عليه ، وبطبيعة الحال رفضها ، على أية حال هذا نص الرسالة :

إلى أهل الشام عامة ، وإلى معاوية وأهل دمشق خاصة :

فإني في قوم طال فيهم مقامي ، واستعجلوا القدر فيّ - الموت - وقد خيروني

(١) لاحظ أنه يقول القصر ، وليس البيت.

بين أن يحملوني على شارف من الإبل الدحيل ، وبين أن أنزع لهم رداء الله الذي كسانيه ، وبين أن أقودهم ممن قتلت ، ومن كان على سلطان يخطئ ويصيب ، فيا غوثاه يا غوثاه ، ولا أمير عليكم دوني ، فالعجل العجل يا معاوية وأدرك ثم أدرك ، وما أراد تدرك [(١)].

هذا نداء الاستغاثة الأخير من الخليفة إلى عامله على الشام ، هذا النداء يحتاج إلى مناقشة هذه العروض التي ذكرها عثمان نفسه ، إلا أننا قبلها نتساءل : تاء الفاعل في قول الخليفة : (أن أقدهم ممن قتلت) هل هي مضمومة للمتكلم ، أي عثمان هو الذي قتل ، أم هي مفتوحة لمخاطبة معاوية ، أما أن بعض عماله ارتكب جرائم قتل ، والمطلوب من عثمان أن يقتص أو يدفع الدية بوصفه أمير المؤمنين ؟ أميل إلى هذا الرأي الأخير.

ولما لا يا سيدي ، لماذا لا تقيد الرعية ممن قتل ؟ مهما كان هذا القاتل أو أن تدفع ديته ، أو تأمر بدفع ديته ، لم لا يا سيدي ، لما لا ؟.

والحق يا سيدي أن الذي ولاك أو الذين ولوك وفضلوك على غيرك من الستة والناس بعدهم هم من اختاروك ، ومن حق هؤلاء جميعا بمقتضى ماسبق أن يقيلوك ، وأن يختاروا غيرك ، ليس لصالح الأمة وحسن سير الأمور فقط ، ولكن لكي تنجو - أنت نفسك - مما أنت فيه.

ولو أن عثمان استجاب لبعض المبادرات التي قدمت إليه ، ربما لو فعل هذا لتغير سير الأحداث ، وقبل أن نعرف ماذا صنع عثمان (ﷺ) نذكر بعض ما جاء من أحاديث رسول الله (ﷺ) والتي رواها الخليفة نفسه.

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ، ص٣٦.

إن عثمان روى عن رسول الله (ﷺ) :

١- (سيقتل أمير ، وينتزى منتز) وإني أنا المقتول ، وليس عمر ، وإنما قتل عمر رجل واحد ، وإنه يجتمع عليّ [(١)].

نعم يا سيدي ، رجل واحد هو الذي نفذ الجريمة ، نفذها وحده بمبادرة منه فقط ، دون مشاركة من أحد ؟ هذا ما أشك فيه ، ولكن عبيد الله أحرق الدليل والخط الذي كان يمكن أن يؤدي إلى تحقيق مثمر وحاسم في قضية مقتل عمر (ﷺ).

٢- عن أبي موسى الأشعري أن عثمان بن عفان استأذنه على رسول الله (ﷺ) فقال المصطفى (ﷺ) : (ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه) يقول أبو موسى راوي الحديث : (فجئته - أي عثمان - فقلت له : ادخل وبشرك رسول الله (ﷺ) بالجنة على بلوى تصيبك [(٢)]).

هذه البلوى يراها بعض الناس ما حدث لعثمان (ﷺ) من المحاصرة ، ثم الشهادة يوم الدار.

إن أحدا من الخلفاء الراشدين لم ينج من القتل غير أبي بكر (ﷺ) وربما لقصر المدة التي قضاها في الحكم ، إذ كانت في حدود السنتين فقط ، ليس إلا ، ولذا لا أرى البلوى في القتل ، فإن معظم أصحاب رسول الله (ﷺ) ماتوا شهداء ، رأيت من خلال إحدى الإحصائيات التي أجريتها في حدود الستين في المائة.

الاستشهاد سمة مهمة من سمات الصحب الكرام ، ولكن المصيبة التي وقع فيها عثمان هو إرجاعه للحكم - وابنه - وقد نفاه النبي الأكرم ، ورفض إرجاعه الشيخان أبو بكر وعمر ، وهو ما كان وبالأعلى الحاكم والمحكوم على السواء.

---

(١) جميع الجوامع للسيوطي ، ص٢٥٥٥.
(٢) صحيح البخاري ٦/٩١٠٩٠

المسألة ليست مسألة صلة رحم ، أو استعانة بالأقارب ، هذا ليس فيه شيء يشين ، الأمويون أنفسهم الذين ما قصروا في عداوتهم لرسول الله (ﷺ) والتصدي له ، كما قال الحكم بن أبي العاص نفسه ، وبرغم هذا كان منهم فضلاء شهد لهم الناس بالكفاءة والتقى والصلاح ، مثل يزيد بن أبي سفيان ، الذي توفى في عهد عمر ١٩هـ.

ولكن المشكلة التي أجلبت على عثمان وعلى الأمة والبلوى التي أصابت خليفة المسلمين هي إرجاع هذا الرجل وأبنائه ، ثم اختيار رموز أخرى لا تناسب خلق الصحابة وقيمهم وما عليه تربوا ، فقد ذكرنا أن من حق الخليفة أن يقيل ابن العاص ، لكن المصيبة أنه ولى مكانه عبد الله بن أبي السرح ، لقد كان مروان بن الحكم وابن أبي السرح سببا مباشرا وأكيدا لمقتل الخليفة ، إضافة إلى ما سبق من رفض الخليفة لكل المقترحات والمبادرات ومحاولات الحلول.

٣- بقي في جعبتي حديث واحد ، إذ تروي أم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن الرسول (ﷺ) قال : ادعوا بعض أصحابي ؟ ... فلما جاء عثمان قال (ﷺ) (تنحى) وجعل يساره ، وعثمان وجهه يتغير ، فلما كان يوم الدار ، وحصر فيها قالوا : يا أمير المؤمنين ، ألا تقاتل ؟) قال : (لا ، إن رسول الله (ﷺ) عهد إليّ عهدا ، وإني صابر نفسي عليه) فكانوا يرونه ذلك اليوم ، أي يوم حصر في الدار ، أو يوم [1] قتل.

لقد وفيت بما عاهدت به النبي الأكرم (ﷺ) نعم الوفاء ، ونعم العهد ، ولكن كانت هناك حلول أخر ، كان يمكن أن تخرج الأمة من محنة القتل ، ولكن للأسف لم تعها أذن واعية.

---

(١) السابق ، مسند أحمد ٤/٢٢٥.

مقتل الخليفة : كانت الشرارة التي أودت بالخليفة من مصر ، أو بمعنى كانت بسبب عبد الله بن أبي السرح والى مصر من قبل عثمان ، لقد ذهب أهل مصر إلى المدينة يشكون عاملهم هذا ، فكتب إليه عثمان يتهدده فيه ، فأبى هذا الرجل أن يقبل ما نهاه عنه عثمان ، بل تمادى به الحمق والطيش أن ضرب بعض من أتاه من قبل عثمان من الوفد المصري ، فمات المصري من فرط الضرب ، فخرج أهل مصر إلى المدينة ٧٠٠ رجل ، نزلوا المسجد النبوي ، وشكوا إلى أصحاب رسول الله (ﷺ) في مواقيت الصلاة والجماعات ، شكوا ما صنع فيهم ابن أبي السرح.

قام طلحة فتكلم بكلام شديد ، وأرسلت عائشة إلى عثمان أنه تقدم إليك أصحاب رسول الله (ﷺ) وسألوك عزل هذا الرجل ، فأبيت إلا واحدة ، فهذا قد قتل منهم رجلا ، فأنصفهم من عاملك.

ودخل ابن أبي طالب على عثمان فكان متكلم القوم ، فقال له عليّ : إنما يسألونك رجلا مكان رجل ، وقد ادعوا قبله دما فاعزله ، واقض بينهم ، فإن وجب لهم عليه حق ، فأنصفهم منه ، فقال عثمان للوفد : اختاروا لي رجلا أوليه عليهم ، فرشحوا له محمد بن أبي بكر ، رضي الله عنهما.

ولد محمد بن أبي بكر عام حجة الوداع ١١هـ ، تربى في حجر عليّ - رضي الله عنهما - وشهد معه الجمل وصفين ، ولاه الإمام مصر ، فقتل بها ٣٨هـ قتله معاوية بن حديج قائد جيش [1] معاوية.

كتب قرار التعيين لوالي مصر الجديد (ابن أبي بكر) ذهب الوالي وذهب معه عدد من المهاجرين والأنصار لينظروا فيما وقع بين ابن أبي سرح وبين أهل مصر ،

---

(١) الخلافة والدولة ... ص٩٦.

وسار الوفد حتى إذا كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة ، إذا هم بغلام أسود على بعير يخبط البعير ، ويحثه على الإسراع ، كأنه يطلب أحدا ويطارده ، أو يطلبه أحد ويطارده ، فقال مرافقو محمد بن أبي بكر : ما قصتك وما شانك ؟ كأنك طالب أو هارب !! قال : أنا غلام أمير المؤمنين ، وجهني إلى عامل مصر ، قال له رجل : هذا عامل مصر معنا ، قال : ليس هذا أريد.

وجاء محمد بن أبي بكر ليسأل الفتى : غلام من أنت ؟ فاقبل مرة يقول : أنا غلام مروان ، ومرة يقول : أنا غلام أمير المؤمنين ، ولكن أحد الرجال تعرف عليه : إنه غلام عثمان ، فسأله محمد : إلى من أرسلك ؟ قال : إلى عامل مصر ، قال : بماذا ؟ قال : برسالة ، قال : أما معك من كتاب ؟ قال : لا ، ففتشوه فلم يجدوا معه كتابا ، ولكن وجد معه إداوة قد يبست فيها شيء يتقلقل ، فحركوا هذا الشيء كي يخرج ، فلم يخرج ، فشقوا الإداوة ، فإذا فيها كتاب من عثمان إلى عبد الله بن أبي السرح.

وهنا تصرف الفتى محمد بن أبي بكر بحكمة شديدة ، لقد جمع من كان معه من المهاجرين والأنصار ليفك الكتاب بمحضر من هؤلاء جميعا ، ثم قرأه ، فإذا فيه :

إذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاقتلهم وأبطل كتابهم
وقر على عملك حتى يأتيك رأيي

فلما رأوا الكتاب فزعوا منه ، وأسرعوا راجعين إلى المدينة ، ولكن الفتى ابن أبي بكر ختم كتاب عثمان بخواتيم الرجال الذين كانوا معه ، ثم دفعه إلى رجل منهم.

وبمجرد العودة إلى المدينة اجتمعوا مع طلحة والزبير وعليا وسعدا ، ومن كان من أصحاب رسول الله (ﷺ) ثم فتح الكتاب بحضور هذا الجمع ، وأخبرهم محمد بقصة الغلام ، وأقرأهم الكتاب ، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على عثمان ،

وقام أصحاب النبي (ﷺ) فاعتزلوا في منازلهم ، وحصر الناس عثمان ، وأحاطوا به ، ومنعوه الماء والخروج ، هو ومن كان معه ، وأجلب عليه محمد بن أبي[1] بكر.

فما كان من الناس إلى أن لجأوا إلى عليّ مرة أخرى - وفي كل مرة - أنت يا عليّ (حمال الأسية) والمتصدي للمشكلات والمعضلات ، ذهب إلى عثمان فأنكر عثمان الكتاب المزعوم عليه ، سأل الإمام عليّ :

- الغلام غلامك ؟.
- الراحلة راحلتك ؟.
- الكتاب عليه ختمك ؟.

فحلف عثمان أنه لم يكتب شيئا ، فقال الإمام عليّ : إنه صادق ، فذكر بعض الحضور أن الخط هو خط مروان بن الحكم ، وعندها طلب ابن أبي طالب من عثمان أن يمثل مروان للتحقيق معه ، فرفض عثمان خوفا على ابن عمه ، فطلب الناس أن يقيل نفسه من الخلافة ، فرفض أيضا ، فتصاعد الشر والشرر ، وتفاقمت الأمور ، ولم يعد إلى لجمها والوقوف أمامها من سبيل.

وعطش عثمان ومن معه ، وأرسل الإمام على أبناءه بالماء إلى المحصورين ولكن بعض السهام المجهولة الخبيثة أطلقت على أبناء عليّ ، ما دعا المحاصرين إلى اقتحام القصر وقتل عثمان (ﷺ).

وقد ادعى بعض الناس أن محمد بن أبي بكر هو الذي قتله ، ولكن الإمام عليّ ساءله فأجاب بأنه أمسك عثمان من لحيته ، إلا أنه ذكرني أبي فتركته ، ومن ثم فإن فرية تستر الإمام عليّ على قتلة عثمان هي محض إفك وافتراء ، فإن هذا ليس من شيم الإمام وأخلاقه.

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ، ص٣٧.

كان عمرو في فلسطين يستطلع أخبار عثمان باستمرار ، طلع عليه راكب فسأله ما الخبر ؟ قال : قتل عثمان ، سأل : فما فعل الناس ؟ فقال : بايعوا عليا ، قال فما فعل عليّ ؟ قال : آوى ولم يرض ، قال عمرو : خلط ـ والله ـ أبو الحسن.

كلا يا عمرو ، إن أبا حسن لا يخلط أبدا ، وإنما وصلك الخبر مغلوطا أو متعمدا ، ما كان أبو حسن ليؤوي قتلة عثمان مهما كانت المسئوليات والنتائج.

وصب الناس جام غضبهم على مروان ـ وكان طويلا مضطربا ـ فضربوه على قفاه ، فقطع إحدى علباويه ـ عرقا رقبته ـ فعاش أو قص ، أي قصرت عنقه ومالت من إحدى [1] النواحي.

وأستطيع أن أحدد سبب مقتل عثمان (رضي الله عنه) وبشكل مباشر إلى ابن أبي سرح عامله على مصر الذي كان سببا مباشرا في الثورة على الخليفة ، ومروان بن الحكم الذي سطر الكتاب المزعوم على عثمان ما تسبب في هياج الناس على عثمان (رضي الله عنه) وأرضاه ، أما معاوية فقد تخلى عنه مكتفيا بحقه في المطالبة بدمه.

في مقتل عمر القاتل أمسك به وعرف (أبو لؤلؤة) لكن لم يعرف من وراءه بسبب مقتلة عبيد الله للهرمزان وجفينة ، مما أحرق الخيط الذي كان يمكن أن يكشف جذور المؤامرة من الأساس والقواعد.

أما في مقتل عثمان فإن المقدمات أدت إلى النتيجة الفاجعة ، لكن لم يعرف من الذي امتدت يده ـ أيديهم ـ الآثمة فاغتالت الرجل أمام زوجته السيدة الفاضلة نائلة بنت القرافصة ، هل قتله أعلاج من مصر ـ كفار ـ كما قتل عمر هذا العلج (أبو لؤلؤة) ؟ هذا أمر وارد ، ولكنني أترك تفصيل هذا الاغتيال لدراسة قادمة ، بمشيئته تعالى.

---

(١) راجع في تاريخ مروان وأبيه الحكم : أسد الغابة ٣٧/٢ ، ٣٨ ، ١٤٤/٥ ، ١٤٥.

ويذكر أن من مآثر هذا الرجل على الأمـة الإسلامية جمعه للقرآن الكريم ، كيف بالله عليك ؟ اجتمع أهل الشام وأهل العراق في غزو أرمينيـة ، قرأت كل طائفـة بما روي عن الصحابي الذي أخذت عنه ، فاختلفوا وتنازعوا ؛ بل كفر بعضهم بعضا وحين رأى ذلك الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان أشفق عليهم ، رجل إلى المدينـة ، لم يدخل بيته ، بل فزع إلى عثمان قائلا : (أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك) قال عثمان : في ماذا ؟ قال : (في كتاب الله) ووصف له اختلاف المسلمين ، ثم قـال : إنـي أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم اختلاف اليهود والنصارى).

بل روي أن مثل هذا الخلاف حدث في المدينـة أيضا ، فقد جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الصبيان يلتقون فيختلفـون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، وكفر بعضهم بعضا ، فبلغ ذلك عثمان ، فقام خطيبا ، فقال : أنتم عندي تختلفون ، فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافا.

ولذا جمع عثمان الصحابة فقال لهم : (ما ترون في المصاحف ، فإن النـاس قد اختلفوا في القراءة حتى إن الرجل ليقول : قراءتي خير من قراءتك ، وهذا شبيه الكفر) فقال الصحابة : (ما الرأي عندك يا أمير المؤمنين ؟) فقـال : الرأي عنـدي أن يجتمع الناس على قراءة ، فإنكم إذا اختلفتم اليوم ، كان من بعدكم أكثر اختلافا ، قـال الصحابة : الرأي رأيك يا أمير المؤمنين.

ومن ثم أرسل عثمـان إلى أم المؤمنين : (أرسلي إلـيّ بالـصحف ننسخها ثم نردها إليك) هذه هي الصحف التي جمعت على عهد أبي بكر (ﷺ) بسبب استشهاد كثير من القراء فـي حروب الردة ، ولـذا جمعوه مكتوبـا ، وفـي مكـان واحد ، هذه الصحف وضعت عند أبي بكر حتى مات ١٣ هـ ، ثم عند عمر إلى أن توفي ٢٣ هـ ، ثم عند ابنته حفصة (ﷺ) أجمعين.

جاء عثمان بنفس اللجنة التي جمعت القرآن على عهد أبي بكر برياسة زيد ابن ثابت ، وعضوية :

- عبد الله بن الزبير.
- سعيد بن العاص.
- عبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

هذه اللجنة قامت بنسخ ما جمع على عهد أبي بكر في خمسة مصاحف ، أو خمس نسخ ، واحد منها في المدينة ، وسُمي المصحف المدني ، ثم :

- مصحف أرسل إلى مكة (المصحف المكي).
- مصحف أرسل إلى البصرة (المصحف البصري).
- مصحف أرسل إلى الكوفة (المصحف الكوفي).
- مصحف أرسل إلى دمشق (المصحف الدمشقي) أو الشامي ، ولا تزال دمشق إلى الآن تسمى بالشام ، كما نسمي نحن القاهرة باسم مصر.

ثم أحرق عثمان ما عدا هذه النسخ من المصاحف الخاصة التي كان كتبها الصحابة ، واعتمد فقط (المصحف العثماني) أو (المصحف الإمام) وما عداه لم يعد يعتد به [1].

وقد حظيت هذه الخطوة بمباركة الإمام عليّ الذي حذر من الخوض في عثمان واتهامه بأنه حراق المصاحف (فوالله ما فعل هذا إلا عن ملأ منا ، أصحاب محمد) وأعلن الإمام عليّ أنه لو كان مكانه لفعل الذي فعل عثمان في المصاحف.

هذه مأثرة ومكرمة لعثمان على أمته ، ولذا يسمى (المصحف العثماني - الرسم العثماني) نسبة إلى عثمان بن عفان ، مع ملاحظة أن الصحابة كتبوا المصاحف

(١) أبو الخير : المدخل إلى علم اللغة ، ص٧٢ وبعدها.

بطريقة الكتابة التي كانت على أيامهم متواضعة جدا قياسا لما هي عليه الآن.

لكن يبدو سؤال : هل تكتب المصاحف بنفس الطريقة التي انكتبت بها على عهد عثمان ؟ أو بمعنى آخر ، ألم تدخل تطويرات على كتابة المصحف منذ عثمان إلى الآن ؟ بكل توكيد دخلت تطويرات كثيرة ، لذا فالكتابة المصحفية الآن هي في الأصل ما كتب على أيام عثمان ، لكنها تطورت كثيرا.

سؤال آخر : لماذا يختلف الآن الرسم المصحفي (العثماني) عن الرسم الإملائي العادي ؟ السبب أن الناس تسرع في الأخذ بأي تطور في الكتابة العادية ، في حين تتحرج كثيرا عند الأخذ بنفس الأشياء في الرسم المصحفي ، لكن هل عندك أمثلة ؟ نعم ، عندي مثالان :

١- الآن في المصحف رمز السكون رأس خاء صغيرة بدون نقطة ، هكذا (حـ) هي اختصار خفيف ، في مقابل رأس الشين بدون نقط (سـ) اختصار شديد ، أي سكون شديد ، لكنا في الرسم الإملائي العادي طورنا رأس الخاء هذه إلى دائرة هكذا (ه) ، لكن في الرسم المصحفي أبقينا على الرمز القديم ، وتحرجنا من تطويره تحرجا وظنا أن هذا هو الرسم الذي كان على عهد عثمان.

٢- مثال آخر ، لقد ميزت ألف القطع عن ألف الوصل ، بوضع رأس صاد صغيرة على ألف الوصل ، كما في (أسم) هذه الصاد الصغيرة اختصار كلمة : (وصل) في حين ميزت ألف القطع برأس عين صغيرة (ء) اختصار (قطع) هذا تطوير في الرسم المصحفي جاء بعد عثمان بقرون ، ولم تعرفه الكتابة على عهد الصحابة.

فهذان المثالان من اختراع الخليل بن أحمد علامة العربية (ت ١٧٠هـ) أي

في نهاية القرن الثاني الهجري ، إلا أننا في الرسم الإملائي استغنينا تماما عن رأس الصاد ، أصبحت ألف الوصل بلا رأس صاد أو غيره عليها ، هكذا (اسم) وليس (آسم) ولكننا في الرسم المصحفي لم نأخذ بهذا التطوير الأخير ، ولذا اختلف الرسم العثماني عن الرسم الإملائي العادي.

ونختم الحديث عن عثمان (ﷺ) بكليمة تدوي في سمع الزمان ، إنها كليمة عبقرية في غاية العبقرية ، هي قوله : (إن في الكتاب شيئا سوف تصلحه العرب) المقصود بالكتاب هنا (الكتابة) وليس المقصود القرآن الكريم وأن فيه شيئا سوف تصلحه العرب ، كلا إنه يقصد الكتابة.

فهذا سيد الخلق (ﷺ) كلف زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب يهود ، فتعلمها في شهر ، أي تعلم الكتابة العبرية في هذا الشهر ، وليس اللغة العبرية ، إذا لا يعقل أن يتعلم أحد ما لغة ما - مهما كانت قدراته - في شهر واحد.

وبالفعل يا عثمان طورت هذه الكتابة منذ عصر الصحابة إلى الآن ، وأصلحت العرب ما كانت عليه الكتابة الأولى للمصاحف ، حيث إن أصحاب الحبيب (ﷺ) كتبوه بذات الطريقة البسيطة البدائية التي كانوا بها يكتبون (ﷺ).

جيل الصحابة كان جيلا مميزا فريدا ، ولكنه أيضا كان بسيطا في معيشته ، فإذا قيل إن عثمان عاش في قصر - أو أبا هريرة أو سعدا - فإن هذه القصور لا تقارن بقصور الأغنياء والحكام الآن ، بل ربما لا تقارن ببيوت الناس الفقراء البسطاء الآن إن كلمة قصر كانت تعني شيئا واحد أن هذه الدار ، أو هذا البيت مقصور على أصحابه ، لا تجاوره بيوت أخرى ، وهكذا.

والآن فرغنا من الحديث عن عصر عثمان لندخل سراعا سراعا إلى عصر أمير المؤمنين ، عليّ بن أبي طالب ، وخاصة دور المغيرة بن شعبة ، إذ هو دائما حاضر في تسيير الأحداث وصبغها وتوجيهها إلى حيث يريد.

خامسا ـ عصر أمير المؤمنين
عليّ بن أبي طالب

أنكر كبار الصحابة على عثمان ما أنكروا ، عارضوا ما عارضوا ، ولعل بعضهم حرض عليه ، لكنهم في جميع الأحوال لم يكونوا ليشتركوا في قتله ، أو يتستروا على قتلته ، حاولوا جهدهم معالجة الأمر إلا أنهم فجنوا - في النهاية - وفجعوا بمقتله.

كانوا يرون أنه بإمكان هذا الرجل القوي بالشام وعنده جيوش جرارة يفخر بها ويتيه ، أن ينجد الخليفة من هذا المصير المخيف ، هذا الصحابي الجليل أبو الطفيل ، عامر بن وائلة يقول لمعاوية بعد أن استقر به الأمر : (فما منعك - يا أمير المؤمنين - من نصر عثمان ، ومعك أهل الشام ؟) فقال معاوية : (أما طلبي بدمه نصرة له ؟) أي لقد نصره بالمطالبة بدمه ، ضحك أبو الطفيل ، ثم قال : أنت وعثمان ، كما قال الشاعر :

ألفيتك بعد الموت تندبني *** وفي حياتي ما زودتني [1] زادا

وعندما قتل الخليفة لم يجد الناس أمامهم غير عليّ الذي رفض في البداية ، ثم قبل بعد طويل إلحاح ، يقول عثمان [2] بن فودي (ت ١٨١٧م) : (تعين على عام ٣٥هـ بعد إذ لم يبق مثله ، فبايعه من آثر الحق على الهوى والآخرة على الدنيا ، ثم الحسن كذلك) أي بايعه من آثر الحق والآخر ، ويضيف ابن فودى : (ثم كان معاوية أول من حولها ملكا - يعني الاصطلاحي - فجعله ميراثا بعد سياسة أميره المغيرة ...)

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي .
(٢) الوصية الرضية ... تقديم وتعليق د. أحمد أبو الخير ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص٨٣.

قضية المغيرة لها تتمة في مكان آخر ، لكنا نتساءل من هذا القادم الجديد إلى الخلافة ، من هو عليّ.

نبدأ من وقت باكر جدا منذ طفولة عليّ ، حيث كان عمره أقل من تسع سنوات ، وقبل تكليف محمد (ﷺ) بالرسالة ، لقد أصابت قريش أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثار ، محمد بن عبد الله ذهب إلى عمه العباس - وكان أيسر وأغنى بني هاشم - يقترح عليه ما يلي :

إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى ، فانطلق بنا إليه ، فلنخفف عن عياله ، آخذ من بنيه رجلا ، وتأخذ من بنيه رجلا ، فنكلهما عنه ، قال العباس : (نعم) انطلقا ، أتيا أبا طالب ، قالا له : (إنا نريد أن نخفف عنك عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه).

فأخذ رسول الله (ﷺ) عليا فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرا فضمه إليه ، فلم يزل عليّ مع رسول الله (ﷺ) حتى بعثه الله نبيا ، فاتبعه عليّ ، آمن به ، وصدقه ، وبقي جعفر عند العباس حتى أسلم ، واستغنى عن عمه وكافله.

في بداية الدعوة إلى الله كان رسول الله (ﷺ) إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، ومعه عليّ مستخفيا من أبيه ، ومن أعمامه ، ومن سائر قومه ، يصليان معا ، فإذا أمسيا رجعا إلى مكة ، شرف ما بعده شرف لابن أبي طالب.

مكث النبي الأكرم (ﷺ) وابن أخيه عليّ ما شاء الله أن يمكثا ، وفي النهاية عرف الأب ما يفعله الابن ، وعليه فقد سأله : أي بني ، ما هذا الذي أنت عليه ؟ قال عليّ مصارحا أباه : آمنت بالله ورسول الله ، وصدقته بما جاء به ، صليت معه لله ، واتبعته.

فماذا كان رأي هذا الأب العظيم والعم الجليل ؟ قال لابنه : (أما إنه لم يدعك إلا إلى خير ، فالزمه [1]) موقف مميز وجريء ، يضاف إلى تالي مواقفه مع خاتم النبيين (ﷺ).

ومن ثم يقول عليّ : (اللهم لا أعترف أن عبدا لك من هذه الأمة عبدك قبلي غير نبيك) يكررها ثلاثا ، ثم يضيف : (لقد صليت قبل أن يصلي [2] الناس) أهذا فقط ؟ كلا ، كلا ، يروي عليّ (رضي الله عنه) :

دعا رسول الله (ﷺ) بني عبد المطلب - أي أعمامه - كلهم ، كل واحد منهم يسطيع وحده أن يأكل (جذعة) ما عمره من الضأن ٨ إلى ٩ أشهر ، ويشرب - أي وحده - الفَرَق ، ما يساوي ½ صفيحة ماء ، أو ١٠ لترات.

لقد صنع لكل هؤلاء الرجال العشرة مدا واحدا من طعام ، ما يساوي ½ قدح مصري ، لكلهم أكلوا جميعا من هذا المد حتى شبعوا ، بل بقى الطعام كأنه لم يمس ، هذا فقط ؟ كلا ، لقد دعا (ﷺ) بـ (غُمَر) إناء صغير للماء ، بيد أنهم شربوا جميعا حتى ارتووا ورووا جميعهم ، والماء بقي كما هو كأنه لم يمس ، إذ لم ينقص شيئا.

تكلم سيد الخلق (ﷺ) إلى أعمامه ، قال :

(يا بنى عبد المطلب : إني بعثت لكم خاصة ، وإلى الناس بعامة ، وقد رأيتم من هذه ما رأيتم) أي من هذه المعجزة ، عشرة من الرجال الأشداء يتمكن الواحد منهم بسهولة أن يأكل ضأنة يبلغ عمرها تسعة أشهر ، ويشرب وحده ½ صفيحة من الماء ، كل هؤلاء الرجال الأشداء ما اسطاعوا أن يأكلوا هذا الكم القليل من الطعام ، وأن يشربوا هذا القدر الضئيل من الماء ، تيك معجزة قدمها سيد الخلق لأعمامه ،

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٤٥.
(٢) قلعجي : مناقب على ... ص٢٦.

بنيّ الجد العظيم عبد المطلب ، معجزة قدمها ابن أخيهم ونبي هذه الأمة ، ونبيهم ، وعليه فقد تابع الخطاب لهم مضيفا : (فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ؟) يقول عليّ : فلم يقم إليه أحد ، فقمت ، وكنت أصغر القوم ، فقال : اجلس ، ثم قمت الثانية ... وفي المرة الثالثة ضرب بيده على يدي [1].

شرف كبير عظيم أن يشترك في اللقاء مع أعمامه ، وأن يشهد هذه المعجزة الساطعة ، وفي النهاية كان وحده الفائز في هذا اللقاء ، أصبح أخا النبي وصاحبه ، وأعمامه العشرة قعود شهود على هذه الأخوة والصحبة.

وقبل أن نتحدث عن فضائل الإمام عليّ وما قدمه لابن عمه نبي الأمة ، وما قدمه لهذه الأمة ، نتركه (ﷺ) يحكي بعض ذكرياته مع أخيه :

١- انطلقت أنا والنبي (ﷺ) حتى أتينا الكعبة ، فقال لي رسول الله (ﷺ) : اجلس ، وصعد على منكبي ، فذهبت لأنهض ، فرأى مني ضعفا ، فنزل ، وجلس لي نبي الله ، ثم قال : اصعد على منكبي ، فصعدت على منكبيه ، ثم نهض بي ، يعلق عليّ : فإنه يخيل إليّ أني لو شئت لنلت أفق السماء حتى صعدت على البيت - الكعبة - وعليه تمثال من نحاس ، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه ، حتى إذا استمكنت منه ، قال رسول الله (ﷺ) : (اقذف به) فتكسر كما تكسر القوارير [2].

٢- روى عليّ : كان رسول الله (ﷺ) في جنازة ، فقال : أيكم ينطلق إلى المدينة ، فلا يدع فيها وثنا إلا كسره ، ولا قبرا إلا سواه ، ولا صورة إلا لطخها ؟ فقال رجل : أنا يا رسول الله ، فانطلق ، لكنه هاب أهل المدينة فرجع ، فقال عليّ : انطلق يا

---

(١) السابق ، ص٢١.
(٢) السابق ، ص١٥٠.

رسول الله ؟ فانطلقت ، ورجعت ، فقلت : يا رسول الله ، لم أدع بها وثنا إلا كسرته ، ولا قبرا إلا سويته ، ولا صورة إلا لطختها ، وعندها قال رسول الله (ﷺ) : من عاد لصنع شيء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد [1].

٣- عندما نزلت سورة براءة أرسل النبي الأكرم (ﷺ) أبا بكر ، فلما كان في بعض الطريق إلى مكة هبط جبرائيل ، قال : يا محمد ، لا يبلغن رسالتك إلا رجل منك ، فأرسل عليا.

أخذها الرسول من أبي بكر وأعطاها - أي سورة براءة - إلي عليّ ، أبو بكر تساءل منزعجا : (نزل فيّ شيء ؟) أي شيء يقدح فيّ ، قال سيد الخلق (ﷺ) : (لا ، ولكني أمرت أن أبلغها - أنا - أو رجل من أهل بيتي) وفي رواية أخرى أن الرسول أرسل عليا لكونه عصبة له ، كما سبق.

وقبل أن يذهب عليّ يدور بينه وبين المصطفى ابن عمه الحوار التالي :

- علـيّ : يا نبي الله ، إني لست باللسن ، ولا بالخطيب.
- محمد : لابد أن أذهب بها ، أو تذهب بها أنت.
- علـيّ : فإن كان لابد فسأذهب أنا.
- محمد : (انطلق ، فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك) ثم وضع يده الشريفة المباركة على فم ابن عمه عليّ.

لكن متى كان هذا ؟ كان في سنة ٩هـ ، عندما قفل (ﷺ) من غزوة تبوك ٨هـ إذا كان النبي الأكرم يروم الحج هذه السنة إلا أنه قال : (إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة ، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك) وبالفعل أرجأ سيد الخلق حجه أي حجة الوداع إلى العام التالي ١٠هـ.

---

(١) السابق ، ص١٥١ ، ١٥٢.

فماذا كان على عليّ أن يبلغ المشركين ؟ كان عليه أن يقرأ على المشركين السورة ، أو ما نزل منها من الآيات ، جاء في تفسير ابن كثير [1] : (بعث رسول الله (ﷺ) أبا بكر أميرا على الموسم سنة تسع ، وبعث عليّ بن أبي طالب بثلاثين أو أربعين آية من براءة ، فقرأها عليهم يوم عرفة ، أجلهم من ٢٠ من ذي الحجة ، مرورا بالمحرم وصفر ، وشهر ربيع الأول إلى عشر من ربيع الثاني ، قرأها عليهم في منازلهم ، وقال : لا يحجبن بعد عامنا هذا مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان).

وفي رواية أخرى : فانطلق عليّ إلى أهل مكة ، فقام فيهم بأربع :

- لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا.
- لا يطوف بالبيت عريان.
- لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.
- ومن كان بينه وبين رسول الله (ﷺ) عهد فعهده إلى مدته [2] ، أي إلى انتهائها فقط ، ولا تمدد.

وبعد هذا كله نذكر طرفة وملحة ذكر الكاتب المبدع المستشار عبد الحليم الجندي في كتابه [3] ، ما هي - يرحمك الله - ؟ قلت أو أقول : تربى عليّ منذ طفولته الباكرة في حجر ابن عمه (ﷺ) وأخيه ، أخوة هارون من موسى ، ولذا كان يعيا بعض البلغاء عن فهم المعنى اللغوي ، وكان عليّ يراه بادي الرأي ظاهرا.

هذا العباس بن مرداس يشكو إلى النبي (ﷺ) قسمه من الفيء منشدا :

أتجعل نهبي ونهب العبيـ *** ـد كنهب عيينة والأقرع

---

(١) ٢/٣٣٢.
(٢) السابق ٢/٣٣٣.
(٣) الإمام جعفر الصادق ، ص٢٩.

العبيد فرس الشاعر ، وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس من المؤلف قلوبهم.

المصطفى (ﷺ) الذي أوتي جوامع الكلم يصدر أوامره إلى أخيه : يا عليّ : اقطع لسانه.

يأخذه عليّ ويمضي ، الرجل يتساءل خوفا وفرقا : (أقاطع أنت لساني يا أبا الحسن ؟!) ويرد أخو النبي بكل حزم : (إني لممض فيك ما أمر) يذهب به عليّ إلى إبل الصدقة ، ثم يقول له : (خذ ما أحببت) فقطع لسانه.

صدق المصطفى حين قال :

- أنا مدينة العلم ، وعليّ بابها ، فمن أراد [1] العلم فليأت بابه.
- أنا دار الحكمة ، وعليّ بابها.
- عليّ عيبة علمي ـ موضع سري ـ ومعدن نفائسي [2].

وهذي بعض الأحاديث والروايات الشاهدة بفضله ومناقبه (ﷺ) وأرضاه :

١ـ هذا حوار بين سيد الخلق (ﷺ) وبين زوجه في الدنيا والآخرة :

- محمد : ادع لي سيد العرب.
- عائشة : ألست سيد العرب ؟
- محمد : أنا سيد ولي آدم ، وعليّ سيد العرب.

فلما جاء عليّ أرسل (ﷺ) إلى الأنصار فأتوه ، فقال لهم : يا معشر الأنصار ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال (ﷺ) يا معشر الأنصار : هذا عليّ فأحبوه بحبي ،

(١) جمع الجوا مع السيوطي ، ص٣٣٤٧.
(٢) قلعجي : مناقب على ... ص٣٢.

وأكرموه بكرامتي ، فإن جبريل أمرني بالذي قلت لكم عن الله عز وجل [1].

٢- المصطفى (ﷺ) يطلب من أنس (ﷺ) : اسكب لي وضوءا ، ثم قام فصلى ركعتين ، ثم قال : يا أنس ، أول من يدخل من هذا الباب أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وقائدا الغر المحجلين ، قال أنس : اللهم اجعله رجلا من الأنصار ، وكتمه ، إذ جاء عليّ فقام (ﷺ) مستبشرا فاعتنقه ، ثم جعل يمسح عرق وجهه (ﷺ) بوجه عليّ ، ويمسح عرق عليّ بوجهه الكريم (ﷺ).

ويعجب عليّ لكل هذا ، يتساءل : يا رسول الله ، لقد صنعت شيئا ما صنعت بي من قبل ؟ قال (ﷺ) : وما يمنعني وأنت تؤدي عني ، وتسمعهم صوتي ، وتبين لهم ما اختلفوا فيه من بعدي.

وفي رواية أخرى قال بعض الصحابة لنبيهم (ﷺ) : ألا تستخلف عليا ؟ قال : إن تولوا عليا تجدوه هاديا مهديا ، يسلك بكم الطريق المستقيم ، وفي إحدى الروايات : إن تستخلفوا عليا - وما أراكم فاعلين - تجدوه هاديا مهديا ، يحملكم على المحجة [2] البيضاء.

٣- سئل (ﷺ) عن عليّ ، فقال : قسمت الحكمة عشرة أجزاء ، فأعطي عليّ تسعة أجزاء ، والناس جزءا واحدا ، وفي رواية أخرى : يا عليّ لك سبع خصال ، لا يحاجك فيهن أحد يوم القيامة :

- أنت أول المؤمنين بالله إيمانا.
- وأوفاهم بعهد الله.
- وأقومهم بأمر الله.

---

(١) الحلية لأبي نعيم ٦٣/١.
(٢) السابق ٦٤/١.

- وأرأفهم بالرعية.
- وأقسمهم بالسوية.
- وأعلمهم بالقضية.
- وأعظمهم مزية يوم القيامة.

وفي رواية أخرى : أخصمك بالنبوة ، ولا نبوة بعدي ، وتخصم الناس بسبع ، ولا يحاجك فيها أحد :

- أنت أولهم إيمانا.
- وأوفاهم بعهد الله.
- وأقومهم بأمر الله.
- وأقسمهم بالسوية.
- وأعدلهم في الرعية.
- وأبصرهم بالقضية [1].
- وأعظمهم عند الله مزية.

٤- عن أبي برزه : قال (ﷺ) إن الله تعالى عهد إليّ عهدا في عليّ ، فقلت : يا رب ، بينه لي ، فقال : اسمع ، فقلت : سمعت ، فقال :

- إن عليا راية الهدى.
- وإمام أوليائي.
- ونور من أطاعني.
- وهو الكلمة التي ألزمها المتقين.
- من أحبه أحبني.

(١) الحلية ١/٦٦.

- ومن أبغضه أبغضني.
- فبشر بذلك.

فجاء عليّ (ﷺ) فبُشر بكل ما سبق ، فما كان منه إلا أن قال بكل تواضع : يا رسول الله ، أنا عبد الله وفي قبضته ، فإن يعذبني فبذنبي ، وإن يتم لي الذي بشرتني به ، فالله أولى به.

رسول الله (ﷺ) يدعو لعلي قائلا : قلت - يارب - اللهم أجل [1] قلبه ، واجعل ربيعه الإيمان ، فقال الله : قد فعلت ذلك ، يضيف الرسول (ﷺ) : ثم رفع إليّ أنه سيخصه من البلاء بشيء ، لم يخص أحدا من أصحابي ، فقال النبي الأكرم : يا رب أخي وصاحبي ؟ فقال الله : إن هذا شيء قد سبق ، إنه مبتلى ومبتلى به.

٥- عليّ نفسه يقول : أنا فقأت عين الفتنة ، ولو أكن فيكم ما قوتل فلان ، وفلان.

اشتكى بعض الناس عليا ، فماذا حدث من سيد الخلق ؟ سكت ؟ كلا ، قام في الناس على الفور خطيبا : (لا تشكو عليا ، فإنه لأخيشن في ذات الله تعالى).

وفي مناسبة أخرى قال (ﷺ) : (لا تسبوا عليا ؛ فإنه ممسوس في ذات الله) وهذا عبد الله بن عباس يقول : كنا نتحدث أن النبي (ﷺ) عهد إلى عليّ سبعين عهدا لم يعهد إلى غيره.

٦- عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : (من سره أن يحيا حياتي ، ويموت مماتي ، ويدخل جنة عدن ، غرسها ربي ، فليوال عليا من بعدي ، وليوال وليه ، وليعتد بالأئمة من بعدي ؛ فإنهم عترتي ، خلقوا من طينتي ، ورزقوا فهما وعلما ،

(١) السابق ٦٧/١.

وويل للمكذبين بفضلهم من أمتي ، القاطعين فيهم صلتي ، لا أنالهم الله شفاعتي[1]).

٧- عليّ (ﷺ) شهد المشاهد كلها ، من بدر إلى آخر موقعه ، وفي بدر اشترك مع عمه أسد الله الحمزة في قتل المبارزين الثلاثة عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وابن الأول الوليد ، كما خرج لعمرو بن عبد ود الذي تحدى جيش المسلمين كله من خلف الخندق ، خرج إليه الفتى عليّ وجندله.

والآن عليّ أن أمسك ـ وإن إلى حين ـ قلمي عن الاسترسال والاستمرار في الحديث عن مناقب أمير المؤمنين ، حيث إن بعض الناس لديه حساسية مفرطة تجاه ما يمدح به ابن أبي طالب ، بل لعله يرى أن من كمال الإيمان وصدق الإسلام والقربى إلى الله أن يكون شديد الصرامة والحزم تجاه كل ما يقال عن عليّ وبنيه وآله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وعلى أي الأحوال بويع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بعد مقتل عثمان عام ٣٥من الهجرة.

وبمجرد البيعة ظهر المغيرة بن شعبة على سطح الأحداث ، وبشكل عاجل آجل ، الشيء الثاني إعلان الحرب على الإمام ، بدءا من الجمل وصفين والنهروان ، ثم انتهاء بواقعة ، أو فاجعة التحكيم ، تلتها فاجعة أخرى هي مقتل الإمام ٤٠ هـ.

<u>أولا ـ ظهور المغيرة :</u> آخر ظهور للمغيرة في عهد عثمان وعند تفاقم الأزمة محاولة المغيرة التوسط لدى المحاصرين الغاضبين الذين رفضوا وساطته ثم عرض مقترحاته على الخليفة المحاصر الذي رفضها جميعا.

---

(١) الحلية ٨٦/١.

وبمجرد قتل عثمان وقبل أن يبايع على ظهر المغيرة على شاشة الأحداث ، ظهر أمام عليّ ناصحا بما يلي :

١- اقعد في بيتك.

٢- ولا تدع إلى نفسك.

٣- فإنك لو كنت في جحر بمكة لم يبايعوا غيرك.

فإن لم تطعني في هذه الرابعة لأعتزلنك ، فما هي يا مغيرة رابعة كلامك ؟ إنها :

٤- ابعث إلى معاوية عهده ، ثم اخلعه بعد ، فلم يفعل ، فاعتزله المغيرة باليمن ، فلما شغل عليّ ومعاوية فلم يبعثوا إلى الموسم - موسم الحج - أحدا ، جاء المغيرة ، فصلى بالناس ، ودعا لمعاوية.

تفاصيل ما جرى بين الإمام عليّ وبين المغيرة سوف نسرده تقريبا ، ولكن نشير إلى حوار بين المغيرة وبين عمار جرى في المدينة المنورة قبيل اندلاع الحروب بين العراق والشام :

لقي عمار المغيرة في بعض سكك المدينة ، وهو متوشح سيفا ، فناداه يا مغيرة ؟ فقال : ما تشاء ؟ قال عمار : هل لك في الله ؟ قال المغيرة : وددت - والله - أني علمت ذلك ، إني - والله - ما رأيت عثمان مصيبا ، ولا رأيت قتله صوابا ، ويضيف المغيرة :

فهل لك يا أبا اليقظان أن تدخل بيتك ، وتضع سيفك حتى تنجلي هذه الظلمة ، ويطلع قمرها ، فنمشي مبصرين ؟

يغضب عمار مجيبا المغيرة بما يلي : أعوذ بالله أن أعمى ، بعد إذ كنت بصيرا ، ولكن المغيرة يصر على رأيه محذرا عمارا : يا أبا اليقظان ، إذا رأيت السيل فاجتنب جِرْيته.

ويبدو أن الإمام عليّ كان حاضر فعلق قائلا : (دعه يا عمار ، فإنه لم يأخذ من الدين إلا ما قاربه من الدنيا ، وعن عمد لبس على نفسه ليجعل الشبهات عاذرا لسقطاته [1]).

على أية حال فإن المغيرة ـ كما رأينا ـ لم يضيع وقتا ، ولم يدخر وسعا في التدخل في الأحداث ، ذهب إلى الإمام عليّ بعد مقتل عثمان ـ رضي الله عنهما ـ بكم يا سادة يا كرام ؟ بيومين اثنين فقط ، قال لعلي : أخلني ، ففعل الإمام ، مرة أخرى يشير المغيرة على أمير المؤمنين بالإبقاء على معاوية وعلى باقي الولاة حتى يستتب الأمر.

لم يك هذا رأي المغيرة فقط ، بل كان أيضا رأي عبد الله بن عباس ، لكن المغيرة عاد في اليوم التالي وأقر الإمام عليّ على رأيه ، هاتفا : (نصحته فلم ينتصح غششته ، وهكذا كان رأي ابن عباس : نصحك في الأولى وغشك في الثانية [2] ، كما تنبأ ابن عباس وتوقع أن معاوية سيطالب عليا بدم عثمان ، ويهيج الناس على الإمام.

وفي رواية أخرى بذات المعنى : عندما بويع على عزم عليّ عزل عمال عثمان ورد الحقوق إلى أهليها ، جاء المغيرة ناصحا :

---

(١) نهج البلاغة ، ص٤١٨.
(٢) تاريخ الطبري ٤/٤٤٠.

إن لك حق الطاعة والنصيحة ، وإن الرأي اليوم تحوز به ما في غد ، وإن المضاع اليوم تدرك به ما في غد ، أقرر معاوية على عمله ، وأقرر ابن عامر على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى إذا أتتك طاعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت.

قال الإمام : والله لا أداهن في وزر ، ولا أعطي الرياء في أمري ، أتضمن لي عمري - يا مغيرة - فيما بين توليته إلى خلعه ؟ وأجاب الرجل بكل صراحة : لا ، قال الإمام : (وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً [1]).

بعدها ينشد المغيرة :

نصحت عليا في ابن هند مقالة	***	وزدت فلا يسمع لها الدهر ثانية
وقلت : أرسل إليه بعهده	***	على الشام حتى يستقر معاوية
ويعلم أهل الشام أن قد ملكته	***	وأن ابن هند عند ذلك هاوية
فتحكم فيه ما تريد فإنه لداهية	***	فارفق به أي داهية
فلم يقبل النصح الذي جئت به	***	وكانت له تلك النصيحة غالية

وفي النهاية لم يبايع المغيرة ، وغادر إلى مكة واعتزل بعد ذلك حتى كان التحكيم ، فأدرك أن الأمر سيصير إلى معاوية ، لكنه والحق يقال لم يذهب إلى الشام للقتال مع معاوية ضد أمير المؤمنين ، كما فعل غيره.

بعض الروايات أشارت إلى ظهوره قبل معركة الجمل المشئومة ، كان له موقف نفصله في مكانه.

---

(١) آية ٥١ ، الكهف.

يقول الدكتور محمد حلمي [1] : حاول المغيرة التقرب من أمير المؤمنين ، وعندما فشل اعتزل حتى يرى من الغالب ، أقام بالطائف يرقب تطورات الأحداث حتى بدأت لعبة التحكيم.

نعود سراعا سراعا إلى ابن عباس مرة أخرى ، كان في مكة عندما علم ببيعة الإمام ، أسرع إلى المدينة ، وجد المغيرة عند عليّ فجلس حتى خرج المغيرة وعندما خرج دخل إلى عليّ سائلا ، ما قال لك الخارج من عندك آنفا ؟ قال ـ المغيرة ـ أرسل إلى عبد الله بن عامر بعهده على البصرة ، وإلى معاوية بعهده على الشام ، فإنك تهدئ عليك البلاد وتسكن عليك الناس ، ثم أتاني الآن ، فقال لي : كنت أشرت عليك برأي لم أتعقبه ، فلم أر ذلك رأيا ، وإني أرى أن تنبذ إليهما العداوة ، فقد كفاك الله عثمان ، وهما أهون مؤنة منه.

وكان تعقيب ابن عباس : أما المرة الأولى فقد نصحك فيها ، وأما الثانية فقد غشك فيها [2].

وفي الأغاني [3] أيضا أن المغيرة جاء إلى عليّ فقال له : إني فكرت فيما أشرت به عليك أمس فوجدته خطأ ، ووجدت رأيك أصوب ، فقال له عليّ : لم يخف عليّ ما أردت ، قد نصحتني في الأولى وغششتني في الآخرة ، ولكني ـ والله ـ لا آتي أمرا أجد فيه فسادا لديني طلبا لصلاح دنياي ، فانصرف المغيرة.

وحاول الإمام عليّ معالجة أمر معاوية بمقترحين ، تولية الشام لأحد المرشحين ابن عباس والمغيرة ، فقال الإمام بادئا بالأول : (قد وليتك الشام ، فسر إليها) يرفض

---

(١) ص١٥٩.
(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ، ص٤٨.
(٣) ص٥٨٦٣.

ابن عباس قائلا : (ليس هذا برأي ، أترى معاوية وهو ابن عم عثمان مخليا بيني وبين عمله ، ولست آمن إن ظفر بي أن يقتلني بعثمان ، وأدنى ما هو صانع أن يحبسني ويحكم علي ، ولكن اكتب إلى معاوية فمنه وعده ، فإن استقام لك الأمر فابعثني).

أمير المؤمنين يرسل بالبيعة إلى جميع الآفاق ، وجميع الأمصار ، فجاءته البيعة من كل مكان إلا الشام ، ولكن الإمام عليّ لا ييأس ، يرسل إلى المغيرة فيقول له : (سر إلى الشام ، فقد وليتكها) ويرفض كما رفض ابن عباس ولنفس الحجة : (تبعثني إلى معاوية ، وقد قتل ابن عمه ، ثم آتيه واليا ، فيظن أني من قتلة ابن عمه ، ولكن إن شئت ، ابعث إليه بعهده ؛ فإنه بالحري إذا بعثت له بهذه يسمع ويطيع).

ومع إصرار المغيرة وابن عباس ، وربما غيرهما أرسل أمير المؤمنين إلى معاوية : (أما بعد فقد وليتك ما قبلك من الأمر والمال ، فبايع من قبلك ثم أقدم إليّ في ألف رجل من الشام) فلما وصل الكتاب دعا معاوية بطومار فكتب فيه : (من معاوية إلى عليّ : أما بعد فإنه :

ليس بيني وبين قيس عتاب *** غير طعن الكلى وضرب الرقاب

إذن هو إعلان الحرب من والي الشام على أمير المؤمنين الذي جاءته البيعة من جميع الآفاق والأرجاء باستثناء دمشق التي أعلنت الحرب على الإمام منذ اللحظة الأولى.

ولا يترك أمير المؤمنين المغيرة ، بل يحاوره مرة أخرى ، يقول الإمام : هل لك يا مغيرة في الله ؟ قال المغيرة : فأين هو يا أمير المؤمنين ، قال : تأخذ سيفك ، فتدخل معنا في هذا الأمر ؛ فتدرك من سبقك ، وتسبق من معك ، فإني أرى أمورا لابد للسيوف أن تشحذ لها ، وتقطف الرءوس بها.

قال المغيرة : إني ـ والله ـ ما رأيت عثمان مصيبا ، ولا قتله صوابا ، وإنها لظلمة تتلوها ظلمات ، فأريد يا أمير المؤمنين ـ إن أذنت لي ـ أن أضع سيفي ، وأنام في بيتي حتى تنجلي الظلمة ، ويطلع قمرها ، فنسري مبصرين ، نقفو آثار المهتدين ونتقي سبيل الجائرين.

قال عليّ : (قد أذنت لك ، فكن من أمرك على ما بدالك) وينضم عمار ، الشهيد ابن الشهيدين ـ ياسر وسمية ـ ليوجه سهامه قائلا : معاذ الله ، تقعد أعمى بعد أن كنت بصيرا ، يغلبك من غلبته ، ويسبقك من سبقته ، انظر ما ترى وما تفعل ، فأما أنا فلا أكون إلا في الرعيل الأول.

ويرد المغيرة : يا أبا اليقظان ، إياك أن تكون كقاطع السلسلة ، فر من الضحل ، فوقع في الرمضاء ، الإمام عليّ يعقب : دعه ـ يا عمار ـ فإنه لن يأخذ من الآخرة إلا ما خالطته الدنيا ، أما ـ والله ـ يا مغيرة ، إنها المثوبة المؤدية ، تؤدي من قام فيها إلى الجنة ، ولما اختار الله يعدها ، فنم ـ يا مغيرة ـ في بيتك.

آخر ما سمعه الإمام من المغيرة : أنت ـ والله ـ يا أمير المؤمنين أعلم مني ، ولئن لم أقاتل معك لا أعين عليك ، فإن يك ما فعلت صوابا فإياه أردت ، وإن يكن خطأ فمنه نجوت ، ولي ذنوب كثيرة ، لا قبل لي بها إلا الاستغفار [1].

وانصرف المغيرة إلى حيث اعتكف ، حيث جاءت مناسبة أخرى لظهوره قبل التحكيم ، كان هذا في :

فاجعة الجمل : عندما أعلنت الشام الحرب على أمير المؤمنين ، سارع إلى معاوية كثير من مبغضيه ومبغضي بيعته ، فمن منع أمير المؤمنين من الصلاة على

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ، ص٥٠.

عمر ـ رضي الله عنهما ـ ومن هدد عليا وبالسيف عند اختيار عثمان ، هذا وأمثاله لن يرضوا بقيادة أمير المؤمنين.

من لهم مصالح في الفرار من عدالة عليّ سوف يفرون إلى الشام ، عبيد الله ابن عمر فر إلى جيش الشام ليكون على رأس الفرسان ضد ابن عم النبي (ﷺ) وغيره وغيره كثر.

بعض الناس اعتزل الفريقين ، منهم المغيرة ، كما سبق ، ومنهم عبد الله بن عمر ، وغيرهما وغيرهما.

لقد بقي عمر عشر سنوات في الحكم ، لم يعترضه أحد ، حتى كانت هذه المؤامرة القذرة التي أودت بحياته ، بقي عثمان ١٢ سنة لم يحاربه أحد حتى كانت ثورة المصريين ، ليس ضده ، ولكن ضد عبد الله بن أبي السرح وإلى مصر التي تذكر عنه الروايات :

- أخو عثمان من الرضاعة.
- ارتد.
- أهدر النبي دمه.
- استأمن عثمان لابن أبي السرح يوم فتح مكة من النبي (ﷺ) وكان أمر بقتله.
- استوهبه عثمان من النبي (ﷺ) أي طلب أن يهبه له.

لكن باستثناء لم تجيش الجيوش ضد عثمان أو غيره ، ولكن حين بويع ابن أبي طالب جاءت كل هذي التحزبات ضده.

لم يجدوا في ابن أبي طالب أي عيب أو طعن عليه ، فعمدوا إلى من حاربه ، فعاضدوه ، وأيدوه ، ووقفوا معه كرها في عليّ ، وليس حبا في الآخر.

الجيوش المتحزبة كانت جاهزة على أهب السرعة وعلى جناح البرق ، فما إن أعلنت البيعة حتى تحركت كل هذه الأحزاب ، وقفت تدق أبواب العراق ، حيث تحرك الإمام عليّ من المدينة إلى الكوفة التي اتخذها حاضرة له.

وفي وقعة الجمل على حدود البصرة سنة ٣٦هـ جاءت عدة فواجع ، منها :

خروج أم المؤمنين : ومن عجب أن الرسول (ﷺ) ذكر هذا لأخيه عليّ ، كما أمره بما عليه أن يصنع ، كيف ؟ :

- قال النبي (ﷺ) لابن عمه : سيكون بينك وبين عائشة أمر.
- علـيّ : فأنا أشقاهم يا رسول الله (ﷺ).
- محمد : (لا) لست أشقاهم ، أي لست المخطئ ، أو لست في الجانب المخطئ ، (ولكن إذا كان ذلك فارددها إلى مأمنها [1]).

وهذا ما حدث من أمير المؤمنين ، كما أمره أخوه المصطفى (ﷺ) ردها عزيزة مصانة إلى المدينة المنورة ، هذه خلق ابن أبي طالب وطاعته لسيد الخلق (ﷺ).

وفي الطريق حدث ما تخوف منه الرسول (ﷺ) وحدث به ، وهو :

أمهات المؤمنين ، وعلى رأسهن العقيلة العاقلة أم سلمة ـ رضوان الله عليها ـ عارضن بشدة خروج السيدة عائشة ، أمهات المؤمنين شيعن عائشة إلى ذات عرق في طريقها إلى البصرة مع طلحة ومع الزبير ، بماذا شيع أمهات المؤمنين هذا الوفد ؟ بالبكاء المر على الإسلام ، حتى قيل : فلم ير يوم كان أكثر باكيا وباكية من ذلك اليوم وكان يسمى يوم البكاء ؟ كلا ، كان يسمى بيوم النحيب.

---

(١) جمع الجوامع ، ص٢٥٧٤.

يوم له من اسمه نصيب ، حري أن يجري فيه الدمع مدرارا مدرارا ، وليتني أقرض الشعر ، أو أجيد القريض ، كنت أخص يوم النحيب بمرثية خالدة كتائية دعبل ابن علي الخزاعي ، رحمه الله.

على أية حال ففي هذا المكان (ذات عرق) لقي المشيعين بالبكاء والعويل والنحيب سعيد بن العاص الذي خلا بطلحة والزبير :

- سعيد : (بعد أن خلا بطلحة والزبير) إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر ؟ أصدقاني.
- طلحة والزبير : نجعله لأحدنا ، أينا اختاره الناس.
- سعيد : بل تجعلانه في ولد عثمان ، فإنكم خرجتم تطلبون بدمه.
- طلحة والزبير : ندع شيوخ المهاجرين ، ونجعلها لأبنائهم الأيتام ؟!.
- سعيد : فلا أراني أسعى إلا لإخراجها من بني عبد مناف.

ثم رجع سعيد ، ورجع معه عبد الله بن خالد بن أسيد [1].

وهنا ظهر المغيرة من معتزله ومعتكفه ليوافق سعيد بن العاص على رأيه بالرجوع ، قائلا :

الرأي ما رأى سعيد ، من كان هنا من ثقيف فليرجع ، فرجع من كان معهم من ثقيف [2] وهنا تأكد سعيد بن العاص من أمرين :

١- إن طلحة والزبير يفكران في أن تؤول الخلافة إلى أحدهما ، هما يفكران في الأمر ، ويستشرفان له ، ولذا فإن معسكر الشام سيتخلص منهما حتما ولزما ولزبا ، وهو ما سيحدث.

(١) أيام العرب في الإسلام ، محمد جاد المولى وآخرون ، ص٣٣٩.
(٢) السابق.

٢ـ لقد عرف أن هذا الوفد كله لن يذهب مؤيدا وناصرا للإمام عليّ ، بل هو مع أعدائه ، ولذا تركهم سعيد ، لأنه كما قال يسعى فقط إلى إخراجها من بني عبد مناف ، أي من عليّ إلى غيره.

يكفي بني عبد مناف النبوة ، أما أن تجتمع فيهم النبوة والحكم ، فإن بعض الرجال والقبائل كانت تحارب من أجل صرف الخلافة عن بني عبد مناف ، أو صرفها عن علي بن أبي طالب إلى غيره ، مهما كان هذا الغير.

على أية حال فإن رواية أخرى أكثر تفصيلا ـ أو تضيف بعض التفاصيل ـ يذكرها ابن قتيبة [١] :

ولما نزل طلحة والزبير وعائشة بأوطاس ـ من أرض خيبر ـ شمال المدينة أقبل عليهم سعيد بن العاص على نجيب [٢] له ، فأشرف على الناس ومعه المغيرة ، فنزل سعيد وتوكأ على قوس له ، أتى عائشة فقال لها :

- أين تريدين ، يا أم المؤمنين ؟
- أطلب دم عثمان.
- فهؤلاء قتلة عثمان معك.

ثم أقبل على مروان بن الحكم ـ المسئول الأول عن قتل عثمان ـ فقال له :

- وأنت أين تريد أيضا ؟
- البصرة.
- وما تصنع بها ؟
- أطلب قتلة عثمان.

(١) الإمامة والسياسة ، ص٦٣.
(٢) جمل كان يركبه.

- فهؤلاء قتلة عثمان معك ، إن هذين الرجلين قتلا عثمان - يقصد طلحة والزبير - وهما يريدان الأمر لأنفسهما ، فلما غلبا عليه ، قالا : نغسل الدم بالدم ، والحوبة بالتوبة.
- ثم قال المغيرة للقوم : أيها الناس ، إن كنتم إنما خرجتم مع أمكم ، فارجعوا بها خيرا - نعم الرأي يا مغيرة الرأي - وإن كنتم غضبتم لعثمان ، فرؤساؤكم قتلوا عثمان ، وإن كنتم نقمتم على عليّ شيئا ، فبينوا ما نقمتم عليه ، أنشدكم الله فتنتين في عام واحد.

ولكن القوم - طلحة والزبير وعائشة ومروان - أبوا إلا أن يمضوا بالناس إلى البصرة ، ولكن سعيدا تركهم إلى اليمن ، ولحق المغيرة بالطائف ، فلم يشهد شيئا من حروب الجمل وصفين.

وسار الركب إلى أن انتهوا إلى ماء الحوأب نبحتهم الكلاب ، فقالت السيدة عائشة متسائلة :

- أي ماء هذا ؟
- ماء الحوأب.
- ما أظنني إلا راجعة.
- ولم ؟
- سمعت رسول الله (ﷺ) يقول لنسائه : (كأني بإحداكن قد نبحها كلاب الحوأب وإياك أن تكوني أنت يا حميراء).
- تقدمي ، ودعي هذا القول.

وجاء عبد الله بن الزبير - ابن أختها أسماء - فحلف لها بالله لقد خلفتِه - يا أم المؤمنين - وأتاها بشهود زور من الأعراب فشهدوا بذلك ، فزعموا أنها أول شهادة

زور شهد بها في الإسلام [1].

قصة ماء الحوأب مثبتة في عديد من المصادر ، منها مسند ابن [2] حنبل :

لما أقبلت عائشة بلغت مياه بني عامر ليلا ، نبحت الكلاب ، قالت :

- أي ماء هذا ؟

- ماء الحوأب.

- ما أظنني إلا راجعة.

- بل تقدمين ، فيراك المسلمون ، فيصلح الله (ﷻ) ذات بينهم.

- إن رسول الله (ﷺ) قال لها ذات يوم : كيف بإحداكن تنبحها كلاب الحوأب.

إذن فقد كانت الحجة التي استدرجوا بها أم المؤمنين أن تتقدم فيراها المسلمون فيكفوا عن القتال ، في حين أراد المعسكر المعادي للإمام عليّ إلهاب حماس المسلمين ليندفعوا لقتال الإمام ، فهذي زوجة محمد (ﷺ) في الدنيا والآخرة تقف في صفوفهم ، وعلى جملها الذي أعطى المعركة اسمها معركة الجمل.

السيدة عائشة نفسها عندما رأت الموقف ارتاعت وقالت فيما رواه محمد الزهر (ت١٢٤هـ) عنها :

إنما أريد أن يحجز بين الناس مكاني ، ولم أحسب أن يكون بين الناس قتال ، ولو علمت ذلك لم أقف هذا الموقف [3].

هيهات يا بنت أبي بكر ، لقد كانت المصيبة أعظم بسبب هذا الجمل ، لقد تجملت - ركبت الجمل - ظنا أن المتحاربين سيكفان ، ولكن من أخرجوك كانوا يعرفون

---

(١) السابق.
(٢) ٥٢/٦.
(٣) اعتقاد أهل السنة في الصحابة (ﷺ) للدكتور محمد الوهيبي ، الرياض ، ١٤٢٩هـ ، ص٥٣.

أن مجرد ظهورك معهم سيدفع أتباعهم إلى الموت دفعا ، وهذا ما كان.

ويصرخ عمار بن ياسر (ﷺ) في القوم : (إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه [1] ، أو لتتبعوها).

ويستمر القتل بين الناس حول الجمل وَدفاعا عنه ، ويأمر القائد ابن أبي طالب بعقر الجمل ، وتنجلي المعركة ، ويعيدها أمير المؤمنين إلى مأمنها ، كما أمره الرسول (ﷺ).

تلك المعركة التي لا يلقي إليها بعض المسلمين بالا أو بعض بال ، كانت وبالا شديدا على أمة الإسلام ، مات فيها من أمة سيد الخلق ثلاثون ألفا في معسكر معاوية ، وفقد الإمام عليّ ألفا وسبعمائة من رجاله.

أسر مروان بن الحكم : ومن الدلائل على هزيمة الجانب الشامي أن أحد أركانه المهمين ، مروان بن الحكم أخذ أسيرا فيّ هذه المعركة ، ولكن الحسن والحسين استشفعا له إلى أبيهم أمير المؤمنين ، فكلماه خلى سبيله ، ثم قال : يبايعك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : يبايعني بعد قتل عثمان ؟! لا حاجة لي في بيعته ، إنها كف يهودية ، لو بايعني بكفه لغدر بسُبَّتِه ـ استه ـ وما يحرص على إخفانه ـ إن له إمرة كلعقة الكلب أنفه [2] ، وهن أبو الأكبش الأربعة ، ويتلقى الأمة منه ، ومن ولده يوما أحمر [3].

وتمر الأيام سراعا وينتهي الأمر إلى معاوية ٤١ هـ ، ويحتضر الحسن (ﷺ) ٤٩ هـ يقول لأخيه الحسين : (وقد كنت طلبت من عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن أدفن

(١) البخاري ٦/١٤٢.
(٢) قصر المدة التي حكم فيها ، والتي كانت ٩ أشهر.
(٣) شديد ومر.

مع رسول الله (ﷺ) فقالت : نعم فإذا مت فاطلب ذلك منها ، وما أظن القوم إلا سيمنعونك ، فإن فعلوا ذلك ، فلا تراجعهم).

فلما مات الحسن (ﷺ) ذهب الحسين إلى أم المؤمنين عائشة ، فقالت له : حبا وكرامة ، فمنعهم مروان بن الحكم ، الذي كان ساعتها واليا على المدينة من قبل معاوية ، فدفن الحسن [1] بالبقيع إلى جانب أمه - فاطمة - رضي الله عنها ، ولم يسمح لأحد من أبناء الرسول (ﷺ) أو أحفاده أن يدفن إلى جوار جدهم.

مقتل طلحة والزبير : لقد كان من الثمار المرة لمعركة الجمل ، مقتل طلحة والزبير ، وهو ما كان شديد المرارة على نفس أمير المؤمنين عليّ ، حيث يذكر د. محمد الوهيبي أنه لما قتل طلحة بن عبيد الله ، ورآه عليّ مقتولا ، جعل يمسح التراب عن وجهه الكريم ، ويقول :

عزيز عليّ - أبا محمد - أن أراك مجدلا تحت نجوم السماء

إلى الله أشكو بثي وحزني

بكى عليه أمير المؤمنين هو وأصحابه ، وقال صادقا مخلصا : يا ليتني مت قبل هذا [2].

خطوتان في طريق كسب الصراع : اتخذ معاوية خطوتان مهمتان في سبيل كسب الصراع ضد الإمام علي :

١- وقع هدنة مع البيزنطيين ؛ يدفع بمقتضاها جزية سنوية للإمبراطور قنسطانز حتى يأمن ويؤمن الجبهة البيزنطية ليتفرغ لحرب أمير المؤمنين.

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٩٣ ، ١٩٤ ، أسد الغابة ١٦/٢.
(٢) اعتقاد أهل السنة ، ص٥٤.

٢- التحالف مع عمرو بن العاص : طريد عثمان ، يقول أستاذنا الدكتور محمد [1] حلمي : (وكان هذا أشبه بالتحالف بين الصبية الأشقياء ، فقد كان عمرو من أشد المحرضين على عثمان) الذي عزله عن مصر بعد ٤ سنوات من خلافته ، وولى مكانه ابن أبي السرح ، ولم يهنأ بال لعمرو قبل أن يقتل عثمان ليسعد عمرو فيقول : (أنا أبو عبد الله ، إذا حككت قرحة نكأتها).

ومن ناحية أخرى فإن معاوية قد نسي تلك اللطمة أمام عمر ، بل قد أحسن هو وأبوها استثمارها في نيل ثقة ابن الخطاب ، كما سبق.

وكان عمرو نعم المعين والمحالف ، فقد تمكن من عدة إنجازات على رأسها :

أ - استرداد مصر من محمد بن أبي بكر عامل عليّ عليها ٣٨هـ ، وبقي عليها حتى وافاه الأجل بعد خمس سنوات.

محمد بن أبي بكر ولد عام حجة الوداع ١١هـ تربى في حجر عليّ ، شهد معه الجمل وصفين ، وولاه مصر فقتل بها على يد معاوية بن حديج قائد جيش معاوية.

ليس ابن أبي بكر الوحيد من عمال عليّ ، بل مالك بن الحارث الأشتر أيضا دس له السم في الطريق ، فصاح صائحهم : إن لله جنودا في العسل ، كما سيأتي.

ب- الإنجاز الآخر الأهم الأخطر هو فكرة التحكيم التي حسمت الصراع لصالح معاوية ولهذا تفصيل سيأتي.

نترك صفين والتحكيم إلى مكانه قريبا قريبا ، قبلهما نستطلع رأي العلامة عثمان بن فودي مؤسس خلافة سكتو غرب القارة الإفريقية التي بقيت قريب مائة

(١) الخلافة والدولة ، ص٩٦.

عام (١٨٠٨ ـ ١٩٠٦) من القرن الماضي.

ماذا يقول عليّ ومعاوية ؟ يقول بعد الحديث عن أبي بكر وعمر وعثمان ... (ثم تعين عليّ (ﷺ) بعد إذ لم يبق مثله ، فبايعه من آثر الحق على الهوى ، والآخرة على الدنيا ، ثم الحسن كذلك ، ثم كان معاوية أول من حولها ملكا ـ يعني الاصطلاحي ـ فجعلها ميراثا ، بعد سياسة أميره المغيرة بن شعبة وهو أول من أفسد أمر الأمة ، فكلما أخرجت عن وضع الملك كانت [1] خلافة).

وفي موضوع آخر ينقل الإمام عثمان قول معاوية : (أنا أول [2] الملوك) وهي ذات الكلمة التي أطلقها أبو سفيان عندما رأي جيوش محمد (ﷺ) تطبق على مكة :

- أبو سفيان : لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما.
- العباس : ليس بملك ، إنها النبوة.
- أبو سفيان : فنعم إذا [3].

على أي الأحوال فإن الصراع يشتد بين العراق والشام ، ولكن جيوش الإمام عليّ نقلت المعركة إلى الشام إلى شمال حيث دارت رحى هذه المعركة الرهيبة التي سالت فيها دماء المسلمين مدرارا مدرارا ، إنها :

موقعة صفين : جرت المعركة الأولى بين الإمام عليّ وجيوش معاوية على حدود البصرة في موقعة الجمل ، لكن المعركة التي تلتها نقلت الحرب إلى الشام بل على مرمى حجر من عاصمة الأمويين آنذاك ، في هذا المكان الذي سمي

---

(١) الوصية الرضية ، ٨٤ ، ٨٥.
(٢) السابق ، ص٦٤.
(٣) السابق ، ص٧٤.

(صفين [1]) :

وبطبيعة الحال نحن لا نكتب تاريخ هذه الفاجعة وتفاصيلها ، حيث إن الغرض الرئيس من هذه الدراسة هو بيان دور المغيرة في مختلف الأحداث ، وبما أنه قد غاب تماما عن صفين ، واختفى معتزلا بعد نصحه لعائشة وطلحة والزبير ومن خرج معهم حتى جاءت أحداث التحكيم ، حيث برز وظهر ، كما سيأتي ، ولكن لدينا بضع لقطات من واقعة صفين ، منها :

١ـ مقتل عبيد الله بن عمر الذي كان على رأس فرسان معاوية.

٢ـ كانوا يعدون دهاة العرب حين ثارت الفتنة خمسة رهط ـ في بعض الأقوال ـ إذ يذكر أو يقال : ذوو رأي العرب ومكيدتهم :

- معاوية .
- عمرو.
- قيس بن سعد.
- عبد الله بن بديل بن ورقاء.

فكان قيس وابن بديل مع عليّ ، والمغيرة اعتزل بالطائف ، وكان عمرو مع معاوية.

قيس بن سعد كان يقول : لولا أنني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : المكر والخديعة في النار ، لكنت من أمكر هذه الأمة [2].

كان من أهم أركان قيادة عليّ (رضي الله عنه) لقد قال قيس يوم صفين :

---

(١) شمال دمشق عاصمة معاوية وقتها.
(٢) أسد الغابة ٤/٣٠٠.

هذا اللواء الذي كنا تحف به *** مع النبي ، وجبريل لنا مدد

ما ضر من كانت الأنصار عيبته *** أن لا يكون له من غيرهم أحد

قوم إذا حاربوا طالت أكفهم *** بالمشرفية حتى يفتح البلد

بقي مع عليّ حتى استشهد ، عام ٤٠ هـ ، ثم مع الحسن ، وعندما آل الأمر إلى معاوية عاد إلى المدينة ، حتى توفي ٥٩ هـ.

أما عبد الله بن بديل فقتل هو وأخوه عبد الرحمن في صفين مع الإمام عليّ ، وكان عبد الله على المشاة ، كان يرتدي درعين وسيفين ، يضرب أهل الشام قائلا :

لم يبق إلا الصبر والتوكل *** ثم التمشي في الرعيل الأول

مشي الجمال في حياض المنهل *** والله يقضي ما يشاء ويفعل

في صفين شق الصفوف والسيوف بسيفه حتى انتهى إلى معاوية ، فأحاط به جند الشام فقتلوه ، ولما رآه معاوية قال : (والله لو استطاعت نساء خزاعة لقاتلتنا فضلا عن رجالها) ثم تمثل معاوية بقول حاتم :

كليث هزبر كان يحمي دماره

رمته المنايا قصدها فتقطرا

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها

وإن شمرت به يوما به الحرب شمرا [1]

ولما رأى الإمام عليّ أن القتل استحر بالناس يوم صفين دعا معاوية للمبارزة حقنا لدماء المسلمين ، وبعد حوار بين معاوية وبين عمرو بن العاص خرج الأخير ، وعندما هزم في المبارزة عرف بدهائه كيف يخرج من هذا المأزق.

---

(١) أسد الغابة ١٣٩/٣.

لقد أشبه هذا ما حدث بين أرياط وبين أبرهه الذي خرج على قائده في اليمن فاقترح الأحباش المبارزة بين الرجلين ، صحيح أن أبرهه غدر بأرياط ، إذ برز أحد عبيد أبرهه فقتل أرياط من الخلف.

ولكن الأحباش تمكنوا من حقن دمائهم ، ضحوا بواحد منهم في سبيل حسم التقاتل ومنعه داخل الصف الحبشي الذي كان يحتل اليمن.

وكان الإمام عليّ مستعدا تمام الاستعداد كي يضحي بنفسه في سبيل حقن الدماء بين المسلمين على الأرض الإسلامية ، ولكن عمرو بن العاص تمكن من دهس هذا الحل لتستمر مسيلة الدماء تسير حتى النهاية [1].

هذي لقطات سريعات من واقعة صفين نخلص منها خفافا نحو :

التحكيم : كان عمرو بن العاص حليف معاوية الأول مهندس فكرة التحكيم ، لقد أيقن أن الانتصار عسكريا على خصمهما العنيد غير ممكن ، خاصة أنه التف حوله رجال من الوزن الثقيل المؤثر الذي يأخذ بمجامع القلوب ، منهم :

- عمار بن ياسر ، الطاهر المطهر ، ابن الشهيدين ، الأم والأب.
- أويس القرني التابعي الذي بشر به محمد وأثنى عليه.
- مالك بن الحارث الأشتر التميمي.
- قيس بن سعد.
- عبد الله بن بديل بن ورقاء.

وغيرهم وغيرهم من المخلصين لله ولرسوله ، ومن ذوي الرأي والحكمة في الحرب والسياسة.

(١) راجع الإمامة والسياسة ، ص١١١ ، وراجع قصة الأحباش في اليمن في كتابي : (قراءة المستقبل ... ص١٢٣).

ولما أيس عمرو من كسب الحرب في الميدان لجأ إلى فكرة التحكيم ، أو خدعة التحكيم ، عندما أشرق الصباح فوجئ العراقيون بأن أهل الشام نشروا مصاحفهم ، ودعوا إلى ما تهاب - من الهيبة - أهل العراق ، فعند ذلك حكموا الحكمين.

هذه الخطوة شقت الصف العراقي شقا ، إذهاب معظم الجيش الحرب على الشاميين الرافعين المصاحف على أسنة الرماح ، وبرغم ارتفاع الأصوات العاقلة من أنصار الإمام عليّ ، فضلا عن أمير المؤمنين نفسه ، وفي النهاية رضخ الجميع إلى فكرة التحكيم برغم يقينهم بأنها خدعة.

بل إن الجمهرة من جيش الإمام عليّ بعد أن فرضوا على الإمام التحكيم ، فرضوا عليه أيضا مندوبهم في التحكيم ، كان الرأي أن يفوض عبد الله بن عباس ولكن الغالبية فرضت أبا موسى الأشعري ، أما أهل الشام فقد فوضوا عمرو بن العاص مهندس الفكرة ، وشتان شتان بينهما.

بطبيعة اعترض بعض الحكماء العقلاء في معسكر عليّ ، مثل صعصعة بن صوحان ، الذي قال بعد أن رأى الفريقان المؤيد والمعارض للتحكيم يتباريان :

ألا اسعموا واعقلوا ، تعلمن أن - والله - لئن ظهر عليّ ليكونن مثل أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - وإن ظهر معاوية لا يقر لقائل بقول حق.

ولكن جمهور القوم ما التفتوا لمثل هذي الأقوال الحكيمة الثاقبة ، وركنوا إلى التحكيم ، وتروحوا من القتال.

عمار بن ياسر ابن الشهيدين وأخو الشهيد ، مات أبوه ياسر وابنه عبد الله شهيدين بمكة ، سمية أم عمار طعنها أبو جهل بحربة ، أين يا عباد الله ؟ في بطنها ؟ كلا ، في وجهها ؟ كلا ، في فرجها والعياذ بالله ، صدقت يا رسول الله ، لكل أمة

فرعون ، وهذا فرعون هذه الأمة ، بل من كناه بأبي الحكم ، فقد وقع في معصية يجب أن يستغفر الله منها.

صدقت يا رسول الله عندما كنت تمر بهم يعذبون كنت تقول لهم : صبرا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة [1] صدقت يا سيدهم ، موعدهم الجنة.

عمار يزول مع الحق حيث يزول :

وفي معركة صفين تصدى عمار لخدعة رفع المصاحف فقال : (يا أمير المؤمنين - أما والله - لقد أخرجها إليك معاوية بيضاء من أقربها هلك ، ومن أنكرها هلك ، مالك يا أبا الحسن ، أشككتنا في ديننا ، ورددتنا على أعقابنا بعد مائة ألف قتلوا منا ومنهم ، أفلا كان هذا قبل السيف ، وقبل طلحة والزبير وعائشة ، وقد دعوك إلى ذلك ، فأبيت وزعمت أنك أولى بالحق ، وأن من خالفنا منهم ضال ، حلال الدم ، وقد حكم الله تعالى في هذا القتال ما قد [2] سمعت ، فإن كان القوم كفارا مشركين ، فليس لنا أن نرفع السيف عنهم ، حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وإن كانوا أهل فتنة فليس لنا أن نرفع السيف عنهم ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، والله ما أسلموا ، ولا أدوا الجزية ، ولا فاءوا إلى أمر الله ، ولا أطفئت الفتنة) [3].

ولكن الإمام عليّ ما وجد طريقا يقنع الأكثرية من معسكره بمواصلة الحرب فلم يجد بدا من قبول ما طلب معاوية من الموادعة والتحكيم ، يقول أمير المؤمنين لجنده (قد كنت بالأمس أميرا فأصبحت اليوم مأمورا ، وكنت ناهيا ، فأصبحت اليوم منهيا ، فليس لي أن أحملكم على [4] ما تكرهون).

---

(١) راجع زاد المعاد لابن القيم ٤٣/٢ ، أسد الغابة ٤١٥/٣.
(٢) يشير إلى من رأى القتال من أنصار أمير المؤمنين.
(٣) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ، ص١٢٩.
(٤) السابق ، ص١٢٣.

وعندما يئس عمار من إقناع الناس بمواصلة القتال نادى : (أيها الناس هل من رائح إلى الجنة ؟) فخرج إليه خمسمائة رجل ، منهم أبو الهيثم وخزيمة بن ثابت الأنصاري ، ذو الشهادتين ، فاستسقى عمار الماء ، فأتاه غلام له بأداوة فيها لبن ، فلما رآه كبر ، وقال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : (آخر زادك لبن) ثم قال عمار : (اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه) [1].

واندفع عمار وأصحابه نحو جيش الشام فالتقى عليه رجلان فقتلاه ، وهو شيخ قد نيف على التسعين عاما والنبي الأكرم (ﷺ) يقول : (تقتل عمارا الفئة الباغية).

يقول ابن حجر عن هذا الحديث : رواه جماعة من الصحابة [2] منهم عمار نفسه ، وغالب طرقه كلها صحيحة أو حسنة [3].

ويأتي الشقيان إلى عمرو بن العاص ، يختصمان في دم عمار وسلبه الذي يقول : خليا عني فإني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : (قاتل عمار وسالبه في النار) [4].

ويروى ابن قتيبة : أن قاتلي عمار أقبلا برأسه إلى معاوية يتنازعان فيه ، كل يقول : (أنا قتلته) فقال لهما عمرو بن العاص : والله إن تتنازعان إلا في النار ، سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : (تقتل عمارا الفئة الباغية) وهنا أسرع معاوية إلى القول : (قبحك الله من شيخ ، فما تزال تنزلق في قولك ، أو نحن قتلناه ، إنما قتله الذي جاءوا به) ثم التفت إلى أهل الشام مبررا قتل عمار بن ياسر ، المبشر بالجنة : (إنما نحن الفئة الباغية ، التي تبغي دم عثمان !!).

---

(١) السابق ، ص١٣٠.
(٢) سمى منهم خمسة عشر صحابيا.
(٣) جمع الجوامع ، ص٣٦٧٤.
(٤) السابق.

وقد استشرنا أحد المواقع الإلكترونية حول موقع قبر سيدي عمار بن ياسر وسيدي أويس القرني فأفدنا أن القبرين في مدينة الرقة السورية إلى الشمال الشرقي من دمشق ، وأعتقد أن هذه المنطقة التي دارت فيها معركة صفين ، حيث إن الشهداء يدفنون في ذات المكان الذي استشهدوا فيه أو الأقل بالقرب منه ، وقد ذكر صاحب الموقع أنه تمكن من زيارة قبري السيدين عمار وأويس ، رضي الله عنهما.

وفي النهاية أجبر الإمام على التحكيم ، وأجبر أيضا على اختيار مفاوضه في التحكيم أيضا ، ويبدو أن الإمام ترك مسألة التحكيم تسير في طريقها المحتوم فقد تيقن أن الحرب ستكون الحل ، ولكنه لا يستطيع دخول الحرب بهذا الجيش المنقسم عليه أن يلم شعثه أولا ، ثم يدخل به المعركة.

التحكيم كما قال الإمام : (كلمة حق أريد بها باطل) وقبل أن يواصل الحرب ضد معسكر الشام كان عليه أن يواجه الخوارج الذين رفعوا شعار لا حكم إلا لله ، وهو ما تم في معركة [1] النهروان.

وفي النهاية اتفق على أن يكون التحكيم في دومة الجندل في رمضان ٣٧هـ وتفرق المعسكران من صفين ، مشترطين على الحكمين أن يرفعا ما رفع القرآن ، ويخفضا ما خفضا القرآن.

وقد شرح ابن عباس (ﷺ) لمفاوض أهل العراق خطة عمرو بن العاص في خلع الاثنين ، ثم سيأخذ موافقته على خلع صاحبه ، في حين يثبت عمرو صاحبه [2] معاوية ، ولكن هذا الكلام ذهب أدراج الرياح ، ذاب كما يذوب الملح في الماء الزلال.

---

(١) راجع قراءة المستقبل ... ص١٥٨.
(٢) السابق.

وعندما اشتعلت فتنة التحكيم ظهر المغيرة وخرج من معتكفه ، إذ يحكى الطبرى :

لما اجتمع الحكمان في أذرح ، على الفور وافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس ، فأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ومعهم رجال كثيرون ، وجاء معاوية وأهل الشام وأبي عليّ وأهل العراق أن يوافوا ، ربما لإدراك الإمام عليّ أن قضية التحكيم هي قضية خاسرة مائة في المائة ، وإنه في البدء والنهاية لابد من الحرب مرة أخرى.

المغيرة قال لرجال من ذوي الرأي في قريش :

- أترون أحدا من الناس - برأي يبتدعه - يستطيع أن يعلم أيجتمع الحكمان أم يتفرقان ؟.
- لا ندري أحدا يعلم ذلك.
- فوالله ، إني لأظن أني سأعلمه منهما حين أخلو بهما ، وأراجعهما.

بدأ المغيرة ، فدخل على عمر وبن العاص :

- يا أبا عبد الله ، أخبرنا عما أسألك عنه ، كيف ترانا معشر المعتزلة ، فإنا قد شككنا في الأمر الذي تبين لكم من هذا القتال ، ورأينا أن نستأني ، ونتثبت حتى تجتمع الأمة.
- عمرو : أراكم - معشر المعتزلة - خلف الأبرار ، وأمام الفجار.

فانصرف المغيرة ، ولم يسأله عن غير ذلك حتى دخل على أبي موسى فقال له مثل ما قال لعمرو ، فقال أبو موسى :

- أراكم أثبت الناس رأيا ، فيكم بقية المسلمين.

انصرف المغيرة ، ولم يسأله عن غير ذلك ، فلقي الذين قال لهم ما قال من ذوي الرأي القرشيين ، فقال لهم : لا يجتمع هذان على رأي واحد.

وصح ما توقعه مغيرة الرأي والدهاء ، اجتمع الحكمان ، تكلما :

- عمرو : يا أبا موسى ، رأيت أول ما تقضي به من الحق ، أن تقضي لأهل الوفاء بوفائهم ، وعلى أهل الغدر بغدرهم.
- أبو موسى : وما ذاك ؟
- عمرو : ألست تعلم أن معاوية وأهل الشام قد وفوا وقدموا للموعد ، الذي واعدناهم إياه ؟.
- أبو موسى : بلى.
- عمرو : (اكتبها) فكتبها موسى.
- عمرو : يا أبا موسى ، أنت على أن تسمى رجلا يلي أمر هذه الأمة ، فسمه فإن أقدر على أن أتابعك ، فلك على أن أتابعك ، وإلا عليك أن تتابعني.
- أبو موسى : فإني أسمي لك عبد الله بن عمر (وكان فيمن اعتزل).
- عمرو : إني أسمي لك معاوية.

وكانت النتيجة المنطقية جدا فشل التحكيم ، إذ كان مفاوض العراق قد أقر لفريقه بأنهم أهل غدر ، وللفريق الآخر بأنهم أهل وفاء ، بل إنه عند تسمية من يختار ذهب بعيدا حين اختار عبد الله بن عمر على الإمام عليّ الذي فوضه في الحديث عنه.

على أية حال فإن الحكمين لم يبرحا مكانهما حتى استبا - والعياذ بالله - ثم خرجا إلى الناس :

- أبو موسى : إني وجدت مثل عمرو مثل : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا) ١٧٥ الأعراف.
- عمرو : أيها الناس ، وجدت مثل أبي موسى كمثل : (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً) سورة الجمعة ، وكتب كل واحد منهما مثله الذي ضربه لصاحبه إلى الأمصار ، وهنا قال معاوية : أما بعد ، فمن كان متكلما فيطلع لنا قرنه [1] وبالفعل لم يتكلم أحد.
- الإمام عليّ يقول متحسرا : (أأعصى ويطاع معاوية).

هذا ما كان ، ولكن ترى : ما الحكم الشرعي في قضية التحكيم ؟ لدى فتوى من الإمام الحسن البصري العالم الورع التقي المجاهد ، وأحد القراء الأربعة عشر المشهورين ، من فقهاء التابعين (ت ١١٠هـ) ما تقول يا بصري : [أفسد أمر الناس اثنان ، عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف ، فحملت ، ونال من القراء ، فحكم الخوارج ، فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم].

ومن الآخر يا سيدي ؟ هو صاحبنا المغيرة يضيف البصري : [والمغيرة فإنه كان عامل معاوية على الكوفة ، فكتب إليه معاوية :

- إذا قرأت كتابي فاقبل معزولا.

فأبطأ المغيرة عليه ، فلما حضر بين يديه سأله :

- ما أبطأ بك ؟
- أمر كنت أوطئه وأهيئه.
- وما هو ؟
- البيعة ليزيد من بعدك.

(١) تاريخ الطبري ٥٨/٤.

- أو قد فعلت ؟
- نعم.
- ارجع إلى عملك

فلما خرج الرجل من عند معاوية ، سأله أصحابه :

- ما وراءك ؟
- (وضعت رجل معاوية في غرز غي ، ولا يزال فيه إلى يوم القيامة [1])] .

انتهت فتوي الإمام الحسن البصري ، والتي نقلها عنه العلماء من بعده ، منهم العلامة عثمان بن فودى ، وإن كان نقل الجزء الخاص بالمغيرة فقط ، وذلك عن الإمام المقري :

(ثم كان معاوية أول من حولها ملكا - يعني الاصطلاحي - فجعلها ميراثا بعد سياسة أميره المغيرة بن شعبة ، وهو من أفسد أمر الأمة) هو يستخدم نفس تعبير الحسن البصري تقريبا (أفسد أمر الناس ...) ثم يضيف الإمام البصري :

فكلما أخرجت عن وضع الملك كانت خلافة [2] انتهت الفتوى.

وندع فتوى الحسن البصري إلى الإمام الذي ما إن فرغ من الخوارج حتى أعد الجيش لمواجهة الشاميين ، ولكن حدثت فاجعة لم تك في الحسب والحسبان ، إنها :

ونترك ابن سعد يحكي طرفا من قصة تآمر الخوارج على قتل الثلاثي [3] ، أو الثلاثة (عليّ - عمرو - معاوية) :

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ، ص٢٠٥.
(٢) الوصية الرضية ، ص٨٤ ، ٨٥.
(٣) ٥٨٤/٢.

اجتمع ثلاثة من الخوارج ، أين يا سيدي ؟ في مكة المكرمة ، من همو ، يرحمك الله ؟ إنهمو :

- عبد الرحمن بن ملجم المرادي.
- البرك بن عبد الله التميمي.
- عمرو بن بكير التميمي.

تعاقدوا وتعاهدوا على قتل الثلاثة :

- ابن ملجم : أنا لكم بعليّ.
- البرك : أنا لكم بمعاوية.
- ابن بكير : أنا أكفيكم عمرو بن العاص.

تعاهدوا على هذا وتواثقوا لا ينكص رجل منهم عن صاحبه التي سماه ، حتى يقتله أو يموت دونه ، اتّعدوا بينهم على ١٧ رمضان عام ٤٠هـ.

توجه كل رجل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه ، قدم ابن ملجم الكوفة عاصمة أمير المؤمنين ، فلقي أصحابه من الخوارج فكاتمهم ما يريد ، وكان يزورهم ويزورونه ، فزار نفرا من تيم الرباب ، فرأى امرأة منهم يقال لها (قطام) بنت شجنة وكان عليّ قتل أباها وأخاها يوم النهروان ، أعجبته فخطبها ، فقالت :

- لا أتزوجك حتى تسمي لي المهر.
- لا تسأليني شيئا إلا أعطيتك.
- ٣ آلاف وقتل عليّ بن أبي طالب.
- ما جاء بي إلى هذا المصر إلا قتل عليّ بن أبي طالب ، وقد أتيتك كل ما سألت.

قال ابن مياس المرادي :

ولما أر مهرا ساقه ذو سماحة *** كمهر قطام بينا غير معجم

ثلاث آلاف وعبد وقينة *** وقتل عليّ بالحسام المصمم

فلا مهر أغلى من عليّ وإن غلا *** ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

عبد الرحمن بن ملجم لقي شبيب بن بجرة الأشجعي فأعلمه ما يريد ، ودعاه إلى أن يكون معه ، فأجابه إلى ذلك ، وبات ابن ملجم تلك الليلة التي عزم فيها أن يقتل أمير المؤمنين في صبيحتها ، يناجي الأشعث بن قيس الكندي في مسجده حتى كاد أن يطلع الفجر ، فقال الأشعث : قم فضحك الصبح ، فقم.

قال اللعينان ابن ملجم وشبيب فأخذا أسيافهما ، وأسرعا إلى اغتيال الإمام عليّ : في لحظة من لحظات التوهان والضلال ، جلس ثلاثة من الخوارج يتناقشون في حل مشكلات الأمة ، ومعالجة الفتن التي أحاطت بها ، وتفتق الذهن العبقري عن حل يريح الأمة مما هي فيه ، ومن كل ما تعانيه ؟ ما هو هذا الحل السحري الجبار ؟ إنه قتل العلامة الثلاثة (عليّ - عمرو - معاوية) فماذا حدث ؟ هذا هو التفصيل :

جاء اللعينان إلى السدة التي يخرج منها الإمام عليّ فجلسا مقابلها ، يحكي الحسن يقول : أتيت أبي سحرا ، فجلست إليه فقال : إني بت الليلة أوقظ أهلي فملكتني عيناي وأنا جالس فسنح لي رسول الله (ﷺ) فقلت :

- يا رسول : أترى ما لقيت من أمتك من الأود واللدد (أي العوج والخصومة) ؟
- ادع الله عليهم.
- اللهم أبدلني بهم خيرا لي منهم ، وأبدلهم شرا لهم مني.

يضيف الحسن (ﷺ) دخل ابن النباح المؤذن على ذلك أخذت بيد أبي ، فقام يمشي ، وابن النباح بين يديه ، وأنا خلفه ، فلما خرجا من الباب ، نادى عليّ : أيها

الناس ، الصلاة الصلاة ، كما يفعل كل يوم ، ومعه درته يوقظ بها الناس ، فاعترضه رجلان ، يقول بعض شهود العيان : فرأيت بريق السيف ، وسمعت من يقول : لله الحكم يا عليّ ، لا لك.

ثم رأيت سيفا ثانيا ، فضربا جميعا ، فأما سيف ابن ملجم فأصاب جبهة الإمام إلى قرنه ، ووصل إلى دماغه ، وأما سيف شبيب فوقع في الطاق (طاق المسجد).

أما كيف أمسك بابن ملجم ، ومن الذي أمسك به ؟ إنه بطل بني هاشم ، المغيرة بن نوفل القرشي الهاشمي ، وهو غير المغيرة بن شعبة - بطبيعة الحال - حيث إن الناس لما هموا بأخذ ابن ملجم حمل عليهم بسيفه فأرخوا له ، وتراجعوا عنه ، ولكن البطل الهاشمي ألقىَ عليه قطيفة كانت معه ، ثم احتمله وضرب به الأرض وأخذ سيفه ، فقد كان المغيرة هذا شديد القوة ، جريئا مقداما.

شهد صفين مع عليّ ، وكان قاضيا في عهد عثمان ، روى حديثا واحدا عن رسول الله (ﷺ) هو :

من لم يحمد عدلا ، ولم يذم جورا ، فقد بارز الله تعالى بالمحاربة [1]

تزوج من أمامة بنت زينب بنت محمد (ﷺ) بعد مقتل عليّ زوجها الذي أوصى أن تتزوج بالمغيرة هذا.

وعندما طعن عليّ قال : (لا يفوتنكم الرجل) أفلت شبيب ، وأخذ الغادر اللعين ابن ملجم إلى عليّ الذي قال : (أطيبوا طعامه وألينوا فراشه فإن أعش فأنا أولى بدمه ، عفوا وقصاصا ، وإن أمت ألحقوه بي ، أخاصمه عند رب العالمين).

---

(١) أسد الغابة ٥/٩٩.

ويرد اللعين : لقد سممته شهرا - أي سيفه - فإن أخلفني فأبعده الله وأسحقه.
ومكث البطل يوم الجمعة ١٧ رمضان ، ثم ليلة السبت ١٨ رمضان ، توفي (ﷺ) ليلة الأحد ١٩ رمضان ٤٠ هـ ، وتوفي عن ٦٣ عاما كما مات قبله محمد (ﷺ) والصاحبان أبو بكر وعمر (ﷺ).

وعندما مات البطل قال ابنه الحسن :

يا أيها الناس : لقد فارقكم أمس رجل ، ما سبقه الأولون ، ولا يدركه الآخرون لقد كان رسول الله (ص) يبعثه البعث ، ويعطيه الراية ، فما يرد حتى يفتح الله ، كان جبرائيل عن يمينه.

وبعد دفن الجثمان الطاهر جيء باللعين ابن ملجم فقتل قصاصا هذا اللعين جاء ليبايع من غدر به ، فرده على مرتين ، وفي المرة الثالثة ، قال له أمير المؤمنين :

ما يحبس أشقاها لتخضبن - أو لتصبغن - هذا (يقصد لحيته) من هذا (يقصد الرأس).

ثم تمثل بهذين البيتين :

اشدد حيازيمك للموت	***	فإن الموت آتيكا
ولا تجزع من القتل	***	إذا حل بواديكا

وبعد إنشاد البيتين يردف عليّ : والله إنه لعهد النبي الأميّ إليّ .

وقد روى الإمام عليّ عن أخيه المصطفى (ﷺ) أنه سأل عليا :

- من أشقى الأولين ؟
- علـيّ : عاقر الناقة.
- محمد : صدقت ، فمن أشقى الآخرين ؟.

- علـيّ : لا علم لي يا رسول الله.
- الذي يضربك على هذا (وأشار إلى يافوخة).

ولذا فإن أمير المؤمنين كان إذا سئم من الناس قال : وددت أن انبعث أشقاكم فخضبت هذه من [1] هذا (يعني لحيته من دم رأسه).

الإمام قال مرة لابن ملجم :

أريـــد حبـاءه ويريـــد قتلـــي *** عذيـرك من خليل من مراد [2]

وجاء رجل من مراد إلى عليّ وهو يصلي في المسجد ، فقال له : (احترس ، فإن ناسا من مراد يريدون قتلك) فماذا يقول الإمام ؟ إنه يقول :

إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر ، فإذا جاء القدر خليا بينـه وبينـه وإن الأجل جنة حصينة.

وكثير ما كان عليّ يقول : ما يحبس أشقاكم أن يجيء فيقتلني ؟ اللهم سئمتهم وسئموني ، فأرحهم مني ، وأرحني منهم.

وعند ما قال مرة : لتخضب هذه من هذه ، فما ينتظر بالأشقى[3] رد عليه من حوله :

- يا أمير المؤمنين ، فأخبرنا نُبر عترته (نبيد أهله وأسرته)
- عليّ : إذن - والله - تقتلون غير قاتلي.

(١) أسد الغابة ١١٧/٤.
(٢) ابن سعد ٢٨١/٢.
(٣) ابن سعد ٥٨٢/٢.

وفي رواية أخرى :

- النبي : من أشقى الأولين وأشقى الآخرين ؟
- عليّ : الله ورسوله أعلم.

: أشقى الأولين عاقر الناقة ، وأشقى الآخرين الذي يطعنك يا عليّ (وأشار (ﷺ) إلى حيث يطعن).

وعن أم جعفر إحدى جواري الإمام عليّ قالت : إني لأصب على يديه الماء ، إذ رفع رأسه ، فأخذ بلحيته رفعها إلى أنفه قائلا : واها لك لتخضين بدم.
وتضيف أم جعفر : فأصيب - أي عليّ - يوم الجمعة.

يحكي محمد بن الحنفية : دخل علينا ابن ملجم الحمام - أنا وحسن وحسين وأبي - ونحن الأربعة جلوس في الحمام ، فلما دخل ، فكأن الحسن والحسين اشمأزا منه ، فقال أبي :

دعاه عنكما - فلعمري - ما يريد بكم أحشم من هذا (أشد إغضابا)

فلما أتى به أسيرا بعد أن طعن الإمام عليّ ، قال ابن الحنفية : أنا اليوم أعرف به مني يوم دخل الحمام [1].

إذن مات أمير المؤمنين ، فأين المغيرة من هذا :

١- ذكرنا قبلا أنه لما شغل عليّ ومعاوية بالحرب ، ولم يبعثوا أحدا على الموسم جاء المغيرة ، فصلى بالناس ودعا لمعاوية.

٢- في تاريخ الطبري [2] : (في العام الذي قتل فيه عليّ ، كتب المغيرة كتابا افتعله على لسان معاوية ، فأقام للناس الحج عام ٤٠ هـ ، ويقال بأنه عرّف - ذهب إلى

(١) السابق.
(٢) ٥/٦٠.

عرفة وهو ما يكون يوم ٩ ذو الحجة ـ يوم التروية ـ أي يوم ٨ ذو الحجة ـ ونحر يوم عرفة ، خوفا أن يفطن أحد إلى مكانه ، وقيل فعل هذا لأنه بلغه أن عتبة بن أبي سفيان مصبحه واليا على الموسم ، فعجل الحج من أجل ذلك.

معنى هذا أن المغيرة قدم الجدول الزمني للحج من :

- ٨ ذو الحجة يوم التروية ، لأنهم كانوا يرتون فيأخذون الماء من مكة إلى (منى وعرفات).
- ٩ ذو الحجة يوم النحر.

إلى :

- ٨ ذو الحجة الوقوف بعرفة.
- ٩ ذو الحجة يوم النحر.

٣- وفي الأغاني [1] :

صلى المغيرة بالناس سنة أربعين في العام الذي قتل فيه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فجعل يوم الأضحى يوم عرفة ، أظنه خاف أن يعزل ، فسبق ذلك ، فقال الراجز :

سيرى رويدا ، وابتغى المغيرة *** كلفتها الإدلاج في الظهيرة

وفي تاريخ بغداد للخطيب [2] البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) :

افتعل المغيرة خطابا على لسان معاوية عام ٤٠ ـ وكان معتزلا في الطائف ـ بإمارة الموسم ، فقدم الحج يوما ، خشية أن يجيء أمير.

لكن ابن عمر تخلف عنه ، وسار معظم الناس مع ابن عمر ، قال أحد شهود العيان (نافع) : فلقد رأيتمونا ونحن غادون من منى واستقبلونا مفيضين من (جُمع)

(١) ص٥٨٥٨.
(٢) ١٥١/١.

وأقمنا مع بعضهم ليلة بمنى.

الحراس والاغتيال : تكرر قبل ذلك اغتيال عمر ، ثم عثمان - رضي الله عنهما - فلماذا لم يتخذ أمير المؤمنين حرسا له ، هذا رأيه :

- مع كل إنسان ملكان يحفظانه مما لم يقدر الله له.
- إذا جاء القدر تخليا عنه ، وخليا بين القدر وبين الإنسان.
- الأجل جنة حصينة.
- نعم الحارس الأجل = الأجل نعم الحارث.

ونترك مقتل الإمام على سنة ٤٠ هـ إلى ثلاث سنوات بعد ، في عام ٤٣هـ مات عمرو بن العاص ، فجرى هذا الحوار بين عمرو وبين حراسه :

- عمرو : أي صاحب لكم كنت ؟
- الحرس : كنت لنا صاحب صدق ، تكرمنا وتعطينا.
- عمرو : إنما كنت أفعل ذلك لتمنعوني من الموت ، وإن الموت قد نزل بي ، فامنعوه عني.
- الحرس : نظر بعضهم إلى بعض ، ثم قال أحدهم : والله ، ما كنا نحسبك تتكلم بالعوراء - يا أبا عبد الله - قد علمت أنا لا نغني عنك من الموت شيئا.
- عمرو : أما - والله - لقد قلتها ، وإني لأعلم أنكم لا تغنون عني من الموت شيئا ولكن - والله - لأن أكون لم أتخذ منكم رجلا قط يمنعني من الموت أحب إلى من كذا وكذا، فيا ويح ابن أبي طالب إذ يقول : حرس كل امرئ أجله.

- وأضاف عمرو بن العاص : اللهم لا بريء فأعتذر ، ولا عزيز فانتصر ، وإن لا تدركني برحمة أكن من الهالكين ، اللهم : إنك أمرتني فلم أأتمر ، وزجرتني ، فلم أنزجر.

ونرجع سنوات سنوات عندما جيء بالهرمزان أسيرا إلى المدينة عام ١٧هـ وقد عجب أن عمر ينام دون حراس فكان رد المسلمين : (حتى يأتيه أجله) فالأجل هو حراسة أو هو نعم الحارس ، فإذا جاء الأجل ارتفعت هذه الحراسة.

وانظر - عزيزي القارئ - إلى حوادث التاريخ ، هل منع الحراس من وقوع الاغتيالات ؟ كلا وألف ، بل إن الحراس أنفسهم قد يغتالون من يحرسون أو يخونون ، ويوشون ويرتشون فهذا حاجب عثمان سرب قرار عزل المغيرة إلى صاحبه لقاء جعل له ، وخادم عمر (يرفأ) رشاه المغيرة مرتين ، مرة عمامة ومرة خمسة دنانير حتى يدخل بعد أن طعن عمر (ﷺ).

وهذي بعض حوادث الاغتيال التي لا تنعد ولا تحصى ، نشير إلى بعضها فقط والتى نرى أن الحرس ما منع الاغتيال ، وفي بعضها قام الحراس أنفسهم بهذا الاغتيال :

١- الأرشيدوق وزوجته : ولي عهد النمسا (فرانسوا فرديناد) وقد اغتيل الأمير وزوجته المسكينة في سراييفو ١٩١٤/٦/٢٨ على يد طالب صربي متعصب ، هذا الاغتيال الذي كان الشرارة التي أطلقت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) من عقالها ، استسلمت ألمانيا في نهايتها ، وما لبثت أن عادت مرة أخرى إلى الحرب ١٩٣٩ حيث انطلقت الحرب العالمية الثانية التي انتهت ١٩٤٥.

الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) حصدت فقط عشرة ملايين ، من

الأبرياء المدنيين ، أو من العسكريين المساكين الذين لا ناقة لهم ولا جمل في هذي الحروب.

الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) يا طويل العمر حصدت فقط خمسين مليونا من البشر ، كل نفس تشكو إلى الله (.... بأي ذنب قتلت [1] ؟).

٢ـ الرئيس الأمريكي جون كيندي : الذي قتل أمام زوجته (١٩٦٥م) وقبيل موته بقليل تزهو بكليمات تعبر فيها عن رضاها بشعبية الرئيس وفرحة الناس به) وقبيل أن تكمل الكليمات وجدت رأس زوجها وما بداخلها يتناثر أمام عينيها.

٣ـ الرئيس محمد أنور السادات : في استعراض عسكري في ٦ أكتوبر ١٩٨١م ، خرج من أبنائه ، ومن داخل العرض العسكري من يطلق عليه الرصاصات الصائبة القاتلة.

٤ـ أنديرا غاندي : (١٩١٦ ـ ١٩٨٤م) من قتلها ؟ حرساها الشخصيون من السيخ أحدهم في ٣١ أكتوبر ١٩٨٤ قام بنفسه بإطلاق النار عليها ، فأرداها على الفور قتيلة مغدورا بها.

هذي مجرد أمثلة ، قل من كثر ، نزر من بحر ، غيض من فيض ، لا شك ولا ريب هناك عمليات اغتيال أكثر وأكثر ، ما منعها الحراس بل إن هؤلاء الحراس أنفسهم قد يبادرون بأنفسهم بالغدر بمن يحرسون.

لكن ترى برغم هذا هل تتخذ الحراس ؟ نعم ، لكن ليس لمنع الموت ، ولكن فقط أخذا بالأسباب ، الفقهاء يتناقشون حول حكم المريض إذا امتنع عن أخذ الدواء فمات ، هل يأثم ، أو لا يأثم ؟ .

---

(١) آية ٩ ، التكوير.

بعض الفقهاء قال : لا يأثم لأنه مات بأجله ، فإن الامتناع عن أخذ الدواء ليس السبب ، بل انتهاء الأجل هو السبب ، فالأجل جنة ، إنه نعم الحارث.

والرأي الآخر أنه يأثم ، لأنه ترك الأخذ بالأسباب وهو التداوي ، وهو ما أمر به الشرع.

وعليه فإننا نرى اتخاذ الحرس ، والأخذ بالأسباب والتداوي ، أما الأجل فعلمه عند ربي ، فإذا جاء فلا يفيد معه دواء ولا حرس ولا احتياط مهما كان ، عندما يأتي الأجل لا شفاء ولا دواء.

على أي الأحوال فإن حكام اليوم هم يقظون جدا من هذي الناحية ، بل لعلهم اختاروا لأنفسهم وذويهم مدنا وإقامات بعيدة جدا جدا عن الناس ، وحياة لا صلة لها بمن يمكن أن يؤذيهم ولو من بعد بعيد ، وقد سبق الإشارة إلى هذا.

والآن نشير إلى أن الإمام عثمان بن عفان ترك للأمة كتابة المصاحف وجمع الناس عليها ، فماذا ترك الإمام عليّ من هذا الجانب ، أو بهذا الخصوص ؟ أجيبك يا أخاه :

<u>الصرف والنحو</u> : اكتشاف مهم قدمه الإمام لأمة بني يعرب وللعالم ، وهذا ما نجده في إحدى مواد دستور اللغة العربية حيث انتهيت من إعداد المادة الحادية والأربعين وشروحها.

الإمام عليّ مكتشف (الصرف) والإمام عليّ مكتشف (النحو) وهو صاحب هذه التسمية (النحو) وهذا طرف من الحكاية :

إذ قال سيد الخلق :

- أنا دار الحكمة وعليّ بابها.
- أنا مدينة العلم وعليّ بابها ، فمن أراد العلم فليأت بابه.

إذا قال (ﷺ) ذلك فإن الأمر كذلك فإنه من هذا الباب ، باب الحكمة ، ومن ذياك الآخر باب العلم جاء الصرف العربي والنحو ، يحكي أبو الأسود الدؤلي تلميذ الإمام ومريده :

دخلت على أمير المؤمنين ، فوجدت في يده رقعة ، فقلت : ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (العجم) فأردت أن أضع شيئا يرجعون إليه.

ثم ألقى الرقعة ، فإذا مكتوب فيها :

الكلام اسم وفعل وحرف ، فالاسم : أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبئ به ، والحرف ما أفاد معنى ، ثم قال لأبي الأسود : انح هذا النحو ، وبدأ التلميذ في العمل وفي النهاية يعرض أبو الأسود ما قام به على الإمام عليّ الذي قال له : ما أحسن هذا النحو الذي [1] نحوت.

ولذا سمي النحو نحوا ، وكأن باب التاريخ كان مفتوحا لك ـ وعلى مصراعيه ـ يا أمير المؤمنين كي يسجل لك براءة اختراع لهذا العلم (النحو) ولهذا المصطلح (النحو) الذي شغل العرب والعجم على السواء وإلى الآن ، وبعد الآن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ليس هذا فقط ، ولكن أيضا أيضا أعطت مدرسة الإمام ، مدرسة الكوفة ـ

(١) أبو الخير : موسوعة دروس في صناعة الحياة ... القاهرة ٢٠٠٧ ، ص١٤٨.

حاضرة الإمام خمس سنوات - العاصمة الثقافية المشهورة على مدى التاريخ العربي والإسلامي ما يلي :

١- مدرسة الكوفة في النحو أشهر من أن نتحدث عنها ، فضلا عن سائر العلوم.

٢- لقد تم في مدرسة الكوفة وعلى يد تلامذة الإمام الخطوات الأساس لإصلاح الكتابة العربية :

أ - أبو الأسود الدؤلي الذي قام بتشكيل المصحف لأول مرة في التاريخ ، وهو مخترع المصطلحات (الضمة والفتحة والكسرة).

ب- ثم جاء اثنان من تلامذة أبي الأسود ، هما نصر بن عاصم ويحيي بن يعمر اللذين أعادا ترتيب الحروف من :

- أبجد - هو - حطي - كلمن - سعفص - قرشت ... إلى :

- أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض .... وي.

وضعا الحروف المتشابهة إلى جانب بعضها ، ثم ميزا الحروف المتشابهة بالنقط ، كما هو واضح.

جـ - ثم جاء الخليل بن أحمد الذي وضع اللمسات الأخيرة في مسيرة إصلاح الكتابة العربية [1].

٣- ومن رحم مدرسة الكوفة خرجت أشهر القراءات والروايات في العالم الإسلامي إنها رواية حفص عن عاصم ، الرواية الأشهر في العالم الإسلامي كله وإلى الآن لا تفوقها رواية أخرى من الروايات.

---

(١) السابق ، ص١٤٩.

نعم يوجد إلى جانبها روايات أخر ، وإن كانت أقل منها شهرة وسعة انتشار وهي :

- رواية ورش عن نافع في المغرب وغرب إفريقية.
- رواية قالون عن نافع في ليبيا وتشاد.
- رواية الدوري عن أبي عمرو.

لكن أشهر الروايات التي يطبع بها المصحف في سائر أنحاء العالم الإسلامي هي رواية حفص ، ثم ورش وقالون ، ولم أسمع بمصاحف طبعت بغير هذي الروايات.

سب الإمام عليّ : وبرغم فضائل الإمام وشمائله ومآثره ، فإنه بمجرد أن أصبح لأهل الشام منبر ومنتدى فإنهم سنوا سنة مؤكدة حرصوا عليها بدأب وإصرار ، وهي سب الإمام ولعنه ، وهذا شيء من تفصيل :

كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء ، فسبه خالد ، فقال (ﷺ) : (لا تسبوا أصحابي ، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ، ولا نصيفه) رواه البخاري [1] ومسلم.

ويبدو أن سب الصحابة قد جاء في وقت مبكر ، إذ تقول السيدة عائشة (ت٥٧هـ) متعجبة : (أمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله فسبوهم) رواه [2] مسلم.

وقال ابن عباس : (لا تسبوا أصحاب محمد ، فإن الله أمر بالاستغفار لهم ، وقد علم أنهم سيقتتلون [3]).

(١) ٨٩/٦.
(٢) راجع الوهيبي - اعتقاد أهل السنة ... ص١٠.
(٣) السابق ، ص١١.

جاء سعد بن أبي وقاص إلى معاوية الذي سأله : (ما منعك أن تسب أبا تراب ؟) وكأن سب أبي تراب من بدهيات الحياة ، ويرد سعد بن أبي وقاص : لماذا لا تسبوا أبا تراب ، ما هي الأسباب يا بطل الأمة ؟ إنها :

ثلاث قالهن رسول الله (ﷺ) لأن تكون لي واحدة منهن أحب إليّ من حمر النعم ، سمعت رسول الله (ﷺ) حين خلفه في بعض مغازيه :

أما ترضى أن تكون مني منزلة هارون

من موسى ، إلا أنه لا نبوة بعدي

هذه واحدة ، فما الثانية ؟ إنها :

سمعت رسول الله (ﷺ) يقول يوم خيبر : (لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله) فتطاولنا لها ، فقال : (ادعوا لي عليا) ودفع الراية إليه.

وما الثالثة يا سيدي ؟ لما نزلت هذه الآية : (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ [1]) دعا رسول الله (ﷺ) عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ، فقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي [2].

وقد توفي سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) بشكل مفاجئ وغامض سنة ٥٥هـ ، السنة التي دعا فيها معاوية لأخذ البيعة لابنه يزيد ، فقد كان سعد من المعارضين لفكرة هذه البيعة ، توفي (رضي الله عنه) بقصره بالعقيق شمال المدينة.

وأضيف إلى ما سبق قول سيد الخلق (ﷺ) :

---

(١) ٦١ ، آل عمران.
(٢) راجع صحيح مسلم ٣٦/٢.

(ستكون من بعدي فتنة ، فإن كان ذلك ، فالزموا عليّ بن أبي طالب [1]).

إن بعض الناس لم يخالف صريح قول المصطفى (ﷺ) في الفتنة بلزوم عليّ ولكنه رأى أن أهل الشام لن يكفوا عن الحرب حتى آخر نقطة من دماء المسلمين ، وأن المسلمين سيفني بعضهم بعضا ، هذا فضلا عن تعب الجانب العراقي من الاستمرار خمس سنوات في الحرب ، قتل من المسلمين مائة ألف أو يزيدون ، غير المصابين والمضارين من هذه الحرب الضروس.

لقد نظر الإمام الحسن إلى الجنود أمثال الجبال من الحديد فقال : (أيقتل هؤلاء بعضهم بعضا من أجل ملك من ملوك الدنيا ، لا حاجة لي به).

لقد كان شعاره : (ما أحببت أن ألي أمة محمد على أن يهراق في ذلك محجمة دم [2]).

وفي أسد [3] الغابة : (خطب الإمام الحسن بعد وفاة أبيه قائلا : إن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفه ، فإن أردتم الموت رددناه إليه ، وحاكمناه إلى الله (ﷻ) بظبا سيوفنا ، وإن أردتم الحياة قبلناه ، وأخذنا لكم الرضا) فناداه القوم من كل جانب (البقية البقية) فلما أفردوه أمضى الصلح ٤١هـ.

فأين المغيرة هنا - يرحمك الله - ؟ لا تعجل عليّ سيدي القارئ ، لقد كلف معاوية المغيرة ليذهب على رأس وفد من أشياعه ليذهب إلى معسكر الإمام الحسن في المدائن ، وعلى وجه السرعة لتخذيل الناس عن الإمام ، دخلوا إليه سراعا خفافا ثم خرجوا من عنده وهم يقولون ويسمعون الناس [يفتنونهم ويخذلونهم عن الحسن]

---

(١) جمع الجوامع ، ص٢٥٩٧.
(٢) الوصية الرضية ... ص٦٥.
(٣) ١٠/٢.

ماذا يقولون ؟ يقولون - يا رعاك الله :

(إن الله قد حقن بابن رسول الله الدماء وسكن به الفتنة وأجاب إلى الصلح).

وهنا هاج معسكر الحسن ، ووثب الرعاع على معسكره ، فانتهبوه ، أما هذا الشقي الجراح بن سنان الأسدي فكمن للإمام وجرحه بمعول في فخذه ، ولم يترك الحسن إلا بعد أن قبض على لحيته فلواها حتى دق عنقه [1].

وفي تفسير ابن كثير : بينما الحسن يصلي إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجر وهو ساجد ، فمرض شهرا ، ثم برأ فقعد على المنبر فقال : يا أهل العراق ، اتقوا الله فينا ، فإنا أمراؤكم وضيفانكم ، ونحن أهل البيت الذي قال الله فيه : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً [2]) فما زال يقولها حتى ما بقي أحد في المسجد إلا وهو ناح بكاء [3].

لقد رأى الإمام الحسن أنه لن تغلب إحدى الطائفتين حتى يقتل أكثر الأخرى ، فأمضى الصلح بشروط ، منها :

١- يبقى معاوية خليفة حياته ، فإذا مات آلت الخلافة للحسن.

٢- لا يطالب أحد من أهل العراق أو الحجاز بشيء مما كان في عهد أبيه الإمام عليّ.

٣- أن يقضي معاوية ديون الإمام الحسن ، أي أنه (ﷺ) مات وهو مدين ؟؟.

يقول الحسن البصري : سمعت أبا بكرة يقول : رأيت رسول الله (ﷺ) على المنبر والحسن بن عليّ إلى جنبه ، وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ، يقول :

---

(١) اليعقوبي ٢١٥/٢.
(٢) ٣٣ ، الأحزاب.
(٣) تفسير ابن كثير ٤٨٢/٣.

ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به
بين فئتين عظيمتين من المسلمين

نعم فعل الإمام الحسن ما فعل برغم المعارضة الشديدة لأنه قد فعل ما فعل رغبة في الإصلاح بين الناس ، يترك معاوية فإذا حان أجله ، جاء الحسن.

ولكن الجانب الآخر رأى - كما سنشرح - أن تكون وراثة في ابنه يزيد وأعقابه ومن ثم كان لابد من التخلص من الحسن حتى لا يلتف حوله الناس لمحاربة يزيد أو أبيه ، وهو ما كان حيث سقت زوجه جعدة بنت الأشعث بن قيس السم ، بل ضنوا عليه أن يدفن مع جده المصطفى (ﷺ) فدفن مع أمه في البقيع ، عام ٤٩ ، حيث بدأت الدعوة لولاية العهد ليزيد ٥٥هـ.

ولما احتضر الحسن قال لأخيه الحسين :

يا أخي ، إن أباك استشرف لهذا الأمر (الخلافة) فصرفه الله عنه ، ووليه أبو بكر ، ثم استشرف لها ، وصرفت عنه إلى عمر ، ثم لم يشك وقت الشورى أنها لا تعدوه ، فصرفت عنه إلى عثمان ، فلما قتل عثمان بويع عليّ ، ثم نوزع حتى جرد السيف ، فما صفت له ، وإني - والله - ما أرى أن يجمع الله فينا النبوة والخلافة ، فلا يستخفنك أهل الكوفة فيخرجونك [1].

وبالفعل يا سيدي خرج الحسين إلى أهل الكوفة ٦١هـ فكانت فاجعة كربلاء المشئومة.

لكن يا سيدي ، أنت صالحت وتنازلت ، لكنهم أيضا ما تركوك ، فكل من فكر مجرد تفكير ولو سويعة لحيظة في الخلافة لابد أن يقضي عليه ، ولقد قمت بخطوة

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ، ص١٩٣ ، أسد الغابة ١٦/٢.

الصلح أملا في الإصلاح بين الناس ، وحقن دمائهم ، ولكن الطرف الآخر كان له أجندته وخريطته ، الحكم وإلا دماء تفيض وتفيض ، لها أول ، ولا آخر لها.

لقد بدأت القصة من بيعة أبي بكر والتي كانت فلتة ، وما كان قطار الفلتة ليقف حتى يصل إلى محطته النهائية حكم معاوية ، ولكن ماذا كان موقف الإمام عليّ ؟

لم يبايع أبا بكر إلا بعد سنة أشهر ، لماذا ؟ ربما بعد موت السيدة فاطمة زوجه ، حيث قال أبوها سيد الخلق [1] (ﷺ) :

- فاطمة سيدة نساء أهل الجنة.
- رضا فاطمة من رضاي ، وسخطها من سخطي.
- فاطمة بضعة (قطعة) مني ، فمن أغضبها أغضبني.
- فاطمة بضعة مني ، يسرني ما يسرها.
- إن الله فطم ابنتي فاطمة وولدها ، ومن أحبهم من النار.

بعد موت فاطمة ذهب الإمام عليّ إلى أبي بكر قائلا له : بعد التشهد : إنا عرفنا - يا أبا بكر - فضيلتك ، وما أعطاك الله ، ولم ننفس عليك خيرا ساقه الله إليك ، ولكنك استبددت علينا بالأمر ، وكنا نحن نرى لنا حقا لقرابتنا من رسول الله (ﷺ).

ثم قال لأبي بكر : (موعدك العشية للبيعة) تقدم الإمام فبايع في المسجد ظهر اليوم التالي مشيرا بعد أن استغفر وتشهد إلى تعظيم حق أبي بكر وأنه لم يحمله على هذا الذي صنع نفاسة على أبي بكر ، وإنكارا لفضله ، لكنا كنا نرى لنا في الأمر نصيبا فاستبد علينا به ، فوجد في نفسه [2] منه.

(١) راجع صحيح البخاري ١١٩/٦ ، ١٢١ ، المقريزي : فضل آل البيت ص٥٢.
(٢) قلعجي : مناقب علي ... ص٢٦٩.

ثم كان اختيار أبي بكر لعمر ، منطق ورأي ، أعطاه الخلافة في الأول فردها إليه في الثانية ، وكان عمر رجل المرحلة الذي اجتهد في ضبط الأمور بفرض الحزم والضبط والربط ، فتآمروا على اغتياله ، فأراد أن يحمل المسئولية للستة ، وفيهم عليّ ، ولكن القوم أبوا عليه أن يصلي على عمر ، بل هددوه إذا لم يرض باختيار عثمان بالسيف والحرب ، سلسلة بدأت بالبيعة الأولى والفلتة ، ما أدى في النهاية المحتومة إلى ملك معاوية وأبنائه ، ثم مروان وأبنائه ، تحولت الخلافة الرشيدة خلال ثلاثين عاما حددها الرسول (ﷺ) إلى الملك العضوص ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي النهاية وصل القطار إلى محطة الملك ؛ بعد الراشدين الخمسة :

- أبو بكر (١١ - ١٣هـ).
- عمر (١٣ - ٢٣هـ).
- عثمان (٢٣ - ٣٥هـ).
- عليّ (٣٥ - ٤٠هـ).
- الحسن (٤٠ - ٤١هـ).

سادسا ـ عصر معاوية

في مشرق القرن السابع الميلادي (٦١٠م) أشرق النور المحمدي من مكة المكرمة ، خاتم المرسلين ، سيد الأولين والآخرين ، آمن به من آمن ، كفر من كفر ، لكن قيادة الحرب ضد الرسول (ﷺ) كانت في بني أمية بدءا من أبي جهل حتى أبى سفيان الذي دخل في الإسلام عن فتح مكة ٨هـ.

وبما أن الزعامة في الحرب ضد المسلمين كانت في يدهم ، فإنهم عندما دخلوا في الإسلام كان عليهم أن يمارسوا الزعامة في داخل الصف الإسلامي.

توارى أبو سفيان خلف الكواليس والأحداث ودفع بأبنائه وأقاربه إلى واجهات الأحداث ، الإدارة والولايات ، وتم لهم ما أرادوا خلال ٣٠ سنة فقط من وفاته (ﷺ) ثم أراد الله أن تنتقل الخلافة والحكم إلى بني مروان بدءا من مروان نفسه (ت ٦٥هـ) إلى أن سقطت الدولة المروانية عام ١٣٢هـ ـ ٧٤٩م ـ كيف بالله عليك ؟ هذا ما أفصله لك الآن :

أصل الصراع : ولد عبد شمس وهاشم في بطن واحد ، وكانت جباههما ملتصقة بعضها ببعض ، فرق السيف بين جباههما ، فقال بعض العرب : (ألا فرق ذلك بالدرهم ، فإنه لا يزال السيف بينهم وبين أولادهم إلى الأبد) وهو ما كان صادقا صادقا.

ثم كانت المنافرة بين هاشم وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس ، كان إلى هاشم الرفادة التي سنها جده قصي بن كلاب مع السقاية ، لأن أخاه عبد شمس كان يسافر دوما ، وقلما كان يقيم بمكة وكان مقلا كثير العيال ، فاتفقت قريش على تولية هاشم السقاية ورفادة الحجيج ، وكان هاشم ذا يسار.

وكان هاشم يسمى عمرا ، وإنما قيل له : هاشم لهشمه الثريد في بمكة ، وكان أمية بن عبد شمس ذا مال ، فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم من إطعام قريش فعجز عن ذلك ، فشمت به ناس من قريش.

صنع أمية في الجاهلية شيئا لم يصنعه أحد من العرب في الجاهلية ؟ في الجاهلية ، ماذا صنع ؟ زوج ابنه أبا عمرو بن أمية امرأته في حياته ، انظر إلى هؤلاء (المقيتون) في الإسلام ، قوم أولدوا نساء آبائهم ، واستنكحوهم من بعد موت الآباء ، أما أن يتزوج زوجة أبيه في حياته ، ويبني عليها وهو يراه ، فإن هذا لم يك قط [(١)].

روى الصحابي الجليل سفينة (مهران بن فروخ ويكنى أبو عبد الرحمن) - مولى الرسول ويقال أبو البختري - أنه قال للسيدة أم سلمة : (إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم) قالت - رضي الله عنها : (كذب أبناء الزرقاء ، بل هم ملوك ، ومن شر الملوك).

ويقال : إن الزرقاء هذه هي أم بني أمية بن عبد شمس كانت في الجاهلية من صواحب الرايات ، أي من البغايا في [(٢)] الجاهلية.

ومن العناصر البارزة في محاربة النبي الأكرم وعداوته معاوية بن المغيرة ابن أبي العاص بن أمية ، ماذا صنع هذا الشانئ المعادي ؟ جدع أنف أسد الله الحمزة ومثّل به فيمن مثل ، فلما انهزم يوم أحد ، دخل على عثمان ليجبره ، فوهبه الرسول (ﷺ) لعثمان إلا أنه أقسم إن وجده بالمدينة أو ما حولها بعد ثلاث ليال ليقتلن.

---

(١) المقريزي ، ص٣٨.
(٢) السابق ، ٤٢.

عثمان بن عفان جهزه ، وسار في اليوم الرابع ، فقال (ﷺ) : إن معاوية أصبح قريبا ، لم ينفذ ، فاطلبوه واقتلوه ، وقتل بالفعل ، قتله عليّ وعمار.

هذا هو أبو عائشة أم عبد الملك بن مروان ، فابن مروان هذا أحد أبويه - أجداده - والآخر معاوية هذا.

النبي (ﷺ) جعل ينظر إلى مروان بن الحكم ، فقيل له : يا رسول الله إنك لتكثر النظر إلى هذا الشاب ؟ فقال : (أليس هذا ابن المخزومية ، أليس هذا ابن المخزومية ؟ قالوا : بلى ، قال : (إذا بلغ بنو هذا أربعين رجلا كان الأمر فيهم) أي الحكم.

وروى أبو هريرة عن النبي الأكرم (ﷺ) :

رأيت في النوم بني الحكم وبني أبي العاص ينزون [1] على منبري ، كما تنزو والقردة ، فما رؤي (ﷺ) مستجمعا ضاحكا حتى توفي.

وفي رواية أخرى : (رأى النبي (ﷺ) بني أمية على منابره فساءه ذلك) فأوحى إليه : (إنما هي دنيا أعطوها) فقرت عينه.

قال تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً [2] كَبِيراً).

وروى أبو هريرة عنه (ﷺ) أنه قال :

إذا بلغ بنو العاص أربعين رجلا اتخذوا دين الله دغلا ، وعباد الله خولا ، ومال الله [3] دولا.

---

(١) يثبون.
(٢) ٦٠ ، الإسراء.
(٣) السابق ، ص٨.

وهذا بطل من أبطال الحرب ضد الرسول (ﷺ) وأصحابه ومن آمنوا بـه ، لقد بلغ به الحقد أن طعن سمية أم عمـار - كما سبق - في فرجها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، إنه أبو جهل.

ومن عجب أن هذا الطاغية كان على يقين من صدق محمد (ﷺ) هذا الأخنس ابن شريق في معركة بدر يخلو بأبي جهل يسأله : (أترى محمد يكذب) ويعترف الصنديد : (كيف يكذب على الله وقد كنا نسميه الصادق الأمين لأنه ما كذب قط) هكذا يعترف فرعون بهذه الحقيقة بصراحة ، وهي صدق محمد (ﷺ).

إذا كان الأمر كذلك فلم الحرب إذن ؟ يقول أبو جهل :

ولكن إذا كان في عبد مناف السقاية والرفادة والمشورة ثم يكون فيهم النبوة فأي شيء بقى لنا.

وكان الأخنس بن شريق من الحصافة إذ سمع هذا أن يتسلل راجعا بمن معه بني زهرة ، وكانوا نحو مائة رجل ، ليس الأخنس ومائة بني زهرة الذين رجعوا فقط بل رجع قبلهم قوم من بني عدي.

وفي رواية أخرى لعبارة أبي جهل :

تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف :

- أطعموا فأطعمنا.
- وحملوا فحملنا.
- وأعطوا فأعطينا.

حتى إذا تجاذبنا (تحاذينا وتساوينا) على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي ، يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبدا ، ولا

نصدقه [١].

هذا الأحمق الجعظري الغليظ كناه المصطفى (ﷺ) :

- أبا جهل.

بل هدد من يستخدم كنيته (أبا الحكم) كيف ؟ :

(من قال لأبي جهل أبا الحكم ، فقد أخطأ خطيئة يستغفر الله منها) صدقت يا محمد - وأنت دائما صادق - عندما قلت : لكل أمة فرعون ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل [٢].

إنه يذكر بالآية : (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ[٣]) القريتان مكة والطائف.

إن المنافرة بين بني أمية وبين بني هاشم لم تغب حتى في التافه من الأمور تحكى الدكتور عبلة الكحلاوي في إحدى الفضائيات ، وبحديثها العذب الدافئ :

إن مروان بن الحكم طلق زوجته لأنها قطعت جزءا من التفاحة التي أكل منها ، فتزوجها عليّ بن عبد الله عباس (ﷺ) وكان أقرع بلا شعر رأس يلبس القلنسوة دائما ، فطلب مروان من جارية أن تحسر - رأس زوجها - لكي تراها الزوجة التي قالت : (هاشمي أقرع خير من أموي أشعر) وهكذا خسر مروان المعركة حتى في هذا التافه من الأمر والشان.

صدق من وصف الرجل بأنه لا فقه له ، ولا رواية ، فقد جيء له برجل - وهو حاكم على المدينة - بمن اختلس متاعا ، فأراد قطع يده ، ثم أرسل إلى زيد بن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣١٦/٢.
(٢) أنساب الأشراف ، ١٢٥.
(٣) ٣١ ، الزخرف.

ثابت يسأله عن ذلك [1].

نعود مرة أخرى إلى أبي جهل الذي قاد جيش المشركين إلى حتفه في بدر ، لقد رجع كثير ممن كان معه ، فقد نجت القافلة ، وقد خرجوا دفاعا عنها وعن أموالهم ، وهكذا كان رأي أبي سفيان الذي ساحل بالقافلة ، وابتعد عن طريق المسلمين ، فنجا مع قافلته ، كما رجع بنو زهرة [2] المائة انتصاحا برأي الأخنس بن شريق الذي كان صائبا تمام الصواب عندما سمع من أبي جهل بصدق محمد ونجاته من الكذب ، وكان من الممكن لقريش أن تتجنب الكارثة في القليب ، سبعون قتيلا ، ومثلهم من الأسراء ، كان في كل بيت نوح ومحزنة ، وكان من السهل أن تتجنب هذه المأساة ، لولا إصرار أبي جهل الذي خرج على رأس الجيش وهو في السبعين من عمره ليلقى حتفه ، هو وغيره من الصناديد ، فلذات أكباد قريش ، كما وصفهم الرسول (ﷺ).

حتى ليلة الكارثة كان يمكن للأمور أن تلملم وأن تعالج ، فقد رأى ـ عتبة بن ربيعة ـ وكان صائب الرأي تمام الصواب ، رأى الرجل أن يرجع الجيش قائلا لهم : (اعصبوها برأسي ، وقولوا جبن عتبة ، وأنتم تعلمون أني لست بأجبنكم) ولكن أبا جهل ركب رأسه حتى سقطت في اليوم التالي.

على أي الأحوال حاولت هنا أن أضع جزءا من أصول الصراع بين عليّ وبين معاوية ، والذي بدأ من الجاهلية ، واستمر حتى في الإسلام ، وفي ذات الوقت بدا من خلال جذور هذا الصراع ، ومن خلال الدراسة كلها أن الرسول (ﷺ) كان على علم ووحي بمجمل الحوادث المزلزلة التي أتت بعد وفاته ، كما سبق في مقتل عليّ

(١) راجع سيد سابق : فقه السنة ٢٧/٥.
(٢) وقيل كانوا أكثر من ذلك.

واستيلاء المروانيين على الحكم في أمته ، وغير ذلك ، مما يلاحظه الباده ، والقارئ من أول وهلة.

لله درك يا محمد ، فداك كل شيء في الكون ، لقد تحملت هموم أمتك حيا وميتا ، تلك الهموم التي تندك لها الجبال وتخر صريعة أمامها.

في بدر هلك أبو جهل ، فتقدم أبو سفيان ليقود الحرب ضد محمد (ﷺ) ومن ثم سيكون لنا وقفة لن تطول مع هذا الرجل والد معاوية :

أبو سفيان : صخر بن حرب عادى الرسول (ﷺ) عشرين سنة ، وهجاه ولم يتخلف عن قتاله (ﷺ) اللهم إلا في بدر حيث ساحل بالقافلة ، ونجا ونجت القافلة ، فكان نعم الرأي.

ولكن مُسّائلا يمكن أن يسّاءل : لماذا خرج المسلمون لاعتراض القافلة ؟ لأن أبا سفيان باع بيوتا تركها المهاجرون في مكة باعتبارها من أملاك الغائبين ، وكان ضامنا للقافلة أمام قريش ، فأراد المسلمون أن يستردوا أموال بيوتهم ، أو جزءا منها التي دخلت في بند أملاك الغائبين.

على أي الأحوال فإنه بعد هلاك أبي جهل وانتقال قيادة الحرب لأبي سفيان كان عليه أن يعد لمعركة أخرى ، وخاصة أن هندا زوجة فقدت أباها وأخاها وعمها ، فسعت للثأر لهم ولنفسها ، وكانت مع زوجها على رأس الجيش المهرول إلى المدينة مع نسوة آخرين لتشجيع المحاربين وحضهم على القتال والبعد عن الفرار.

وتمكنت من إقناع وحشي ليغتال حمزة ، ثم مثلت هي وغيرها ـ كما سبق ـ بالجثمان الطاهر ، ولاكت كبده ـ رحمه الله ـ في سابقة لم تسمع بها العرب قبل ذلك.

وتمكن أبو سفيان وهند من الانتصار في أحد بفعل خطأ الرماة الذين تركوا مكانهم ، ما مكن خالد بن الوليد من الالتفاف بفرسانه لمفاجأة جيش المسلمين من الخلف ، فكانت المأساة في جيش المسلمين ، جدير ذكره أن وقعة بدر كانت سنة ٢ هـ ، وأحد بعدها بسنة ٣ هـ .

وتمر الأيام ولا يسكت أبو سفيان حتى يعد لمحمد (ﷺ) ومن معه أكبر جيش وأقواه عرفته جزيرة العرب ، في معركة الأحزاب ٥ هـ ، ليرده ويصده اقتراح سلمان (ﷺ) الخندق الذي سميت الواقعة باسمه ، ويرد أبو سفيان ومن معه لتتكفئ قريش ، لم تعد قادرة على غزو المدينة ، بل تمكنت الجيوش الإسلامية من فتح مكة ٨هـ.

وفي فتح مكة يلتقي أبو سفيان بمحمد (ﷺ) ومع أبي سفيان عم محمد (ﷺ) العباس ليقول سيد الخلق :

- ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله.
- أبو سفيان : بأبي وأمي ما أحلمك وما أكرمك وما أعظم عفوك ، أما هذه - فوالله - إن في النفس منها لشيئا بعد.
- العباس : ويحك اشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، قبل - والله - أن تقتل.
- فأعلن أبو سفيان إسلامه [1].

ولكن المصطفى (ﷺ) أدرك أن أبا سفيان يمكن أن يتراجع عن إسلامه ، ولذا قال لعمه العباس : إني لا آمن من أبا سفيان أن يرجع عن إسلامه ، ويكفر ، فاردده حتى يفقه ، ويرى جند الله معك.

---

(١) المقريزي ، ٢٧٣/١٠ ، ٢٧٦.

فأدركه العباس فحبسه ، فقال أبو سفيان مذعورا : أغدرا يا بني هاشم ؟
لاحظ أيها القارئ أنه يقول (يا بني هاشم) المسألة عنده هي (بنو هاشم) في مقابل (بني أمية).

ويرد العم الكريم : ستعلم أنا لسنا بغُدُر ، ولكن لي إليك حاجة ، فأصبح حتى تنظر إلى جند الله ، وما أعد للمشركين.

وعليه فقد أعد الرسول (ﷺ) جيشه للاستعراض أمام زعيم قريش ، وعليه فلا يكفي أن يكون معك قوة فقط ، بل يجب أن تعرف كيف تفيد منها ، وتستعرضها أمام عدوك ، فماذا فعل (ﷺ) ؟.

أمر واضح صريح صادر من القيادة النبوية :
لتصبح كل قبيلة ارتحلت ووقفت مع صاحبها - قائدها - وتظهر كل ما معها من العدة.

وعندما رأى أبو سفيان ما رأى قال :
- ما رأيت مثل هذه الكتائب قط ، ولا خبرنيه مخبر ، ما لأحد بهذا طاقة ، ولا يد ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما.

[لاحظ هو يستخدم تعبير ملك ، ولذا رد العم]

- العباس : يا أبا سفيان ، ليس بملك ، ولكنه نبوة.

[فنعر أبو سفيان ، أي أصدر صوتا شديدا من أنفه]

- العباس : فانج ويحك ، وأدرك قومك قبل أن يُدخل عليهم.

[أي تدخل عليهم كل هذه الجيوش الجرارة التي قبل لكم بها يا أبا سفيان]

وبالفعل قام الزعيم بنقل ما رأى إلى قومه نقلا أمينا ، برغم تسفيه زوجه

هند لما قال ، حيث خلص إلى ما يلي :

رأيت ما لم تروا

رأيت الرجال والسلاح

ما لأحد بهذا [1] طاقة

بقي شيء واحد نذكره عن أبي سفيان ، ما هو يرحمك الله ؟

جاء في صحيح البخاري [2] :

بعد الحوار الذي أجراه القيصر مع أبي سفيان حول الرسول (ﷺ) أثناء صلح الحديبية في نهاية الحوار ، يقول أبو سفيان :

والله ما زلت مستيقنا أن أمره سيظهر حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره.

وعندما بويع عثمان وقف أبو سفيان على قبر أسد الله الحمزة قائلا : (رحمك الله أبا عمارة ، لقد قاتلت على أمر صار إلينا) وفي رواية أخرى أنه ركل قبر الحمزة برجله قائلا : (إن الأمر الذي كنت تقاتلنا عليه بالأمس قد ملكناه اليوم ، وكنا أحق به من تيم وعدي [3]) أي من أبي بكر وعمر ، رضي الله عنهما.

وفي تفسير ابن كثير لسورة [4] الممتحنة : أنزلت هذه الآية يوم الفتح ، أي قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [5] الآية

(١) السابق.
(٢) كتاب الجهاد والسير.
(٣) المقريزي ، ص٨٤.
(٤) ٣٥٤/٤.
(٥) ١٢ ، الممتحنة.

نزلت يوم الفتح ، فبايع الرسول (ﷺ) الرجال على الصفاء ، وعمر بايع النساء... فلما قال : ولا تقتلن أولادكن ، قالت هند ربيناهم صغارا ، فقتلتموهم كبارا ، فضحك عمر.

وفي رواية أخرى عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنها ذكرت أن هندا بنت عتبة جاءت إلى رسول الله (ﷺ) فنظر إلى يدها ، فقال : اذهبي فغيري يدك فذهبت فغيرتها بحناء ، ثم جاءت فقالت : أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئا ، فبايعته وفي يدها سواران من ذلك ، فقالت : ما تقول في هذين السوارين ؟ فقال : (جمرتين من نار جهنم).

وكأن هذين ذكرتك يا رسول الله بشق بطن عمك الحمزة ومضغ كبده ، والتمثيل بجثمانه الطاهر الشريف ، فأردت أن تغيرهما.

ونلاحظ أيضا أنه بايع الرجال الذين أسلموا بعد الفتح ـ الطلقاء ـ على الصفاء ولكن بعضهم ما صفا ، بعضهم بدل وغير وأحدث.

ولكني أقول لمن يدافع عن هند أو غيرها من الطلقاء الذين أساءوا أكبر إساءة للإسلام والمسلمين ، نقول لهؤلاء المنافحين المجاحشين : إذا كان عمر الذي استشهد في طريقه إلى صلاة الفجر وتحمل هم الأمة عشر سنوات ، وقدم ما قدم من أجل الإسلام والمسلمين كان يقول عند وفاته : وددت لو خرجت من الأمر ، لا على ولي ، وعندما رؤي في المنام بعد سنوات قال : لقد كاد عرشي أن ينهد لولا أني وجدت ربا رحيما ، ولم يرض مطلقا بتولية أحد من أسرته ، خاصة عبد الله بن عمر الذي كانت تؤيده نسبة كبيرة من الناس ، قال عمر هذا لإحساسه القوي بالمسئولية.

إذا كان عمر على هذا الحال والمآل فما بالنا بالطلقاء الذين أساءوا إلى

الإسلام سنوات طوالا ، وعندما عاهدهم نبيهم على الصفاء ما صفوا ، بل قدموا العديد العديد من الإساءات والمصائب.

مرة نعلل هذا باختلاف الرأي الذي لا يفسد للود قضية ، ومرة بأن هؤلاء قد وصفهم عليّ :

- إخواننا بغوا علينا.
- هم من الكفر فروا.

بل إن إحدى المجلات المصرية تدافع عن فعلة هند هذه بأنها كانت تثأر لأبيها وأخيها وعمها ، تماما كما تقتل إسرائيل الناس وتهلك الحرث والشجر والمدر ثم تقول أمريكا بأنه دفاع عن النفس.

إن الدفاع عما فعله بعض الطلقاء أو غيرهم يبدو وكأنه دفاع عن إنسان قتل ذبابة ، ولكن في الحرم ، يحكي الشيخ عبد الحميد كشك - رحمه الله - أنه جاء إلى ابن عباس رجل يسأله :

- يا ابن عباس ، ما حكم قتل الذبابة في الحرم ؟.
- من أي البلاد يا هذا ؟
- من العراق.
- ابن عباس : تقتلون الحسين بن عليّ ، ثم تسألون عن حكم قتل الذبابة في الحرم.

وفي رواية أخرى لما سبق :

جاء رجل إلى ابن عمر - رضي الله عنهما - وهو في الحرم ، فقال له : يا صاحب رسول الله :

- ما حكم قتل الذبابة في الحرم.
- ابن عمر : من أين ؟
- من العراق.
- عجبت لكم يا أهل العراق تقتلون ريحانة النبي (ﷺ) ابن الرسول (أي الحسين) وتسألون عن قتل الذبابة في الحرم ، هل هذا هو الورع ؟!.

على أي الأحوال نترك آكلة كبد الحمزة إلى الحديث عن ابنها معاوية بن أبي سفيان : نتحدث عن الرجل وتذكر حتما ولزما دور المغيرة في عصر معاوية ، من ساعة أن تولى الكوفة إلى استلحاق زياد بأبي سفيان والأخطر إقناع معاوية من قبل عامله المغيرة بأخذ البيعة لابنه يزيد ، وسوف نطعم هذا كله برأي الراسخين في العلم فيما سبق [1] .

وقبل الحديث عن معاوية نشير- مرة أخرى - إلا أنه بمجرد مقتل الإمام علي سنة ٤٠ هـ حتى افتعل المغيرة كتابا على لسان معاوية مؤمرا نفسه على موسم الحج هذا ، ويقال بأنه ذهب إلى عرفة يوم التروية ، أي في الثامن من ذي الحجة ،وليس التاسع ، ونحر يوم عرفة ، يوم التاسع ، وليس العاشر ، أول أيام عيد الأضحى ، أي قدم جدول الحج يوما عن موضعه ، كل هذا خوفا من أن يفطن أحد إلى مكانه ، وقيل إنه تعجل الحج لأنه بلغه أن عتبة بن أبي سفيان - شقيق معاوية - مصبحه واليا على الموسم ، ومن أجل هذا فعل ما فعل.

والآن حان الحديث عن [2] معاوية ، فماذا في الجعبة عنه ؟ أسلم معاوية وأبوه يوم الفتح ، وفورا عرض أبوه على سيد الخلق أن يتخذ معاوية كاتبا له ، مات

(١) تاريخ الطبري ٥/٦٠.
(٢) الخلافة والدولة ... د. محمد حلمي ، ص٨٩.

محمد في المدينة بعد ٣ سنوات من الفتح ، أي سنة ١١هـ.

معاوية اشترك في حركة الفتوح منذ أيام أبي بكر مع أخيه يزيد ، كما تولى الشقيقان بعض جهات الشام ، فلما توفى يزيد عام ١٩هـ أسند لمعاوية ما كان لأخيه يزيد.

ولما مات هذا الأخير دخل أبو سفيان على عمر بن الخطاب ، فقال عمر معزيا : (أحسن الله عزاءك في يزيد) فبادره الأب قائلا : (من وليت مكانه ؟) قال عمر : معاوية ، رد أبو سفيان : وصلتك رحم يا أمير المؤمنين ، وقد سبق الحديث عن يزيد (ﷺ) أنه كان أفضل بني أبي سفيان ، بل كان يسمى يزيد الخير.

يزيد بن أبي سفيان هذا ، أو يزيد الخير كان أخا لمعاوية من أبيه فقط ، أمة كانت كنانية أي من بني كنانة ، وليس هند بنت عتبة أم معاوية ، أسلم يزيد الخير يوم فتح مكة ، وشهد حنينا مع الرسول (ﷺ) الذي أعطاه من غنائم المعركة ، استعمله أبو بكر على جيش سيّره إلى الشام ، وخرج يشيعه راجلا.

وسرعان ما مات يزيد الخير في عهد عمر ـ كما سبق ـ سنة ١٩هـ ، وألحظ سيداتي سادتي وآنساتي شيئا أسر به إليك ـ أيها القارئ ـ بودّي أن يبقى سرا بيننا ، ألا وهو أن خيار بني أمية وصلحاءهم سرعان ما يلحقون بربهم ، وكأن لله جنودا في العسل جاهزة لخدمة هذه الأسرة ، من هؤلاء الصلحاء :

- يزيد الخير ت ١٩هـ ، في حين مات معاوية بعد ٤١ سنة ، أي في عام ٦٠هـ.
- معاوية الثاني الذي تنازل عن العرش حتى مات بعد ٤٠ يوما فقط ، ربما جاءت جنود الله في العسل ، فاختطفته اختطافا عام ٦٤هـ.
- عمر بن عبد العزيز (ﷺ) تولى الحكم عامين اثنين فقط ؟ فقط يا أخي ، ثم لقي ربه ١٠١هـ.

حتى يزيد بن معاوية المسكين لم يلبث في الحكم غير ٤ سنوات يتيمات ، ويبدو أنه كان عليه أن يخلي الطريق لمروان بن الحكم وذريته في اقتطاف الثمرة التي نضجت تماما ، فكان لابد من عبوره بوابة الموت ، ولكن مروان لحق به بعد سنة واحدة فقط.

ولله درك يا ابن أبي طالب ، فترة قصيرة قلت عن مدة حكمه ، إنها كلعقة الكلب أنفه ، من أين جئت بهذا العلم ؟ من مدينة العلم ، من أخيك المصطفى (ﷺ).

وليت أحد الباحثين في التاريخ الإسلامي يدرس هذه الظاهرة ، هل كان الأمويون والمروانيون بعدهم على استعداد للتضحية بالصلحاء منهم الزاهدين في الدنيا والحكم والزعامة لفتح الطريق والشهية للطموحين الذين يمثلون خط العائلة ونهجها في الملك والزعامة والمجد في هذه الدنيا ؟ وهل وهل وهل ؟ نطمح في رد أو إجابة ، من خلال دراسة تجلي هذا الموضوع ، نقترح أن تكون.

هذا واحد من حنفاء بني أمية ، إنه معاوية الثاني الذي تولى بوصية من (يزيد بن معاوية) ٦٠هـ - ٦٤ ، وكذا بالتفاف أهل الشام حوله ، لكنه بعد ٤٠ يوما فقط من الحكم فاجأ الجميع ، كل الجميع بتنازله عن الخلافة الذي جاء ضمن خطبته الشهيرة التي مما جاء بها :

أيها الناس إن جدي معاوية نازع الأمر أهله ، ومن هو أحق لقرابته من رسول الله (ﷺ) وهو عليّ بن أبي طالب ، وركب بكم ما تعملون حتى آتته منيته ، فصار في قبره رهينا بذنوبه ، وأسيرا بجرمه.

ثم بكى - رحمه الله - حتى جرت دموعه على خديه ليستأنف حديثه مرة أخرى للناس.

إن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه ، وبؤس منقلبه ، وقد قتل عترة رسول الله (ﷺ) وأباح الحرم وهدم الكعبة ، وما أنا بالمتقلد ، ولا بالمتحمل تبعاتكم ، فشأنكم أمركم ، والله لئن كانت الدنيا ، فقد نلنا منها حظنا ، ولئن كانت شرا فكفى ذرية أبي سفيان ما أصابوا منها ، ألا وإني ضعفت عن أمركم ، فابتغيت لكم مثل عمر حين استخلفه أبو بكر ، فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى ، فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختاروا له من أحببتم.

ثم اعتكف في بيته ، بعد ثلاثة أشهر تقريبا ، صعدت الروح إلى باريها ، بعد أقل من ستين يوما من تنازله ، يبدو أن كتيبة من جنود الله في العسل قد أدركته فألحقته بالصلحاء والحنفاء من قبله ، كما سوف يأتي ، وكانت هذه فرصة ليثب مروان إلى الحكم ٦٤هـ ، وفي ذات العام كان مصيره بيد أم خالد وجواريها.

هي لعقة كلعقة الكلب أنفه ، مدة قصيرة ، تسعة أشهر تقريبا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

لقد جرع معاوية الإمام عليّ ما جرعه طوال خمس سنوات ، وما قُتّل من أصحابه ، بل قبل هذه السنوات الخمس ، بل بعد ممات الإمام عليّ تجرع السب واللعن على يد عمالة ورجاله بأوامر صريحة منه ، كما سيأتي ، حتى شكا الإمام رعيته إلى نبيهم الذي طلب أن يدعو عليهم ، والنبي ما دعا على المشركين حتى بعد ذهابه إلى ثقيف ، ما وافق الرسول (ﷺ) ملك الجبال الذي كان مستعدا على إطباق الجبلين على المشركين راجيا متمنيا أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله.

ولذا فالإمام عليّ كما قال : أول من يجثو للخصومة بين يدي [1] الله (ﷻ)

(١) الأوائل ، ص١٦٦.

يوم القيامة ، فهو أكثر من ظلم ومن رعيته ، على الأقل في هذه الأمة ، إن لم يك في غيرها أيضا ، وبهذي الطريقة حتى تمنى الموت.

حديث أقدمه للقارئ عجيب قرأته اليوم ، على كثرة ما قرأت من أحاديثه (ﷺ) وعلى كثرة أحاديثه الواردة في حق الإمام عليّ (ﷺ) ما هو يرحمك الله ؟.

في كتاب (تهذيب السيرة النبوية للنووي) ت ٦٧٦ هـ جاء هذا الحديث :

- يا عليّ ، لا يحل لأحد يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك.

وقد جاء هذا الحديث في سياق ما أبيح للنبي (ﷺ) ولم يبح لغيره ، مثل :

- دخول مكة بلا إحرام.
- لا ينتقض وضوؤه (ﷺ) بالنوم مضطجعا.
- إباحة مكثه (ﷺ) في المسجد مع الجنابة.

كما يباح له (ﷺ) ما سبق ، فإن عليا (ﷺ) يباح له أيضا المكث في المسجد وهو جنب ، خصيصة شارك فيها ابن عمه وأخيه (ﷺ) ترى أليست هذه إشارة وملمحا مهما ، ليعتبر أولو الأبصار ، أو من كان له قلب أو ذرة عمل ، أو ألقى السمع وهو شاهد ، وشهد ، حاضر وسامع متيقظ وواع بما يسمع.

وبطبيعة الحال إذا قلت حديثا كهذا بادرك الباده غير الفاقة ، ومن لا علم لا له ؛ هل هذا حديث صحيح ؟ وأجيبك سريعا بحكم الترمذي على هذا الحديث بقوله : (هذا حديث حسن).

ويستبق النووي مؤلف الكتاب الذي ورد فيه الحديث ، أي الكتاب السابق ذكره قبيل هذي السطور ، وقد يُعترض على هذا الحديث بأن ـ عطية ـ أحد رواة الحديث هو : (ضعيف عند الجمهور ، ويجاب ـ هذا قول النووي ـ بأن الترمذي حكم بأنه

حسن ، فلعله اعتضد بما اقتضى حسنه [1].

لابد سيدي من أن الإمام الترمذي ـ رحمه الله ـ اعتضد بما اقتضى حسن هذا الحديث ، لابد وجد مبررات قوية دفعته إلى وصف هذا الحديث بأنه حسن.

(١) النووي ـ تهذيب السيرة النبوية ، تحقيق د. خالد الشايع ، رابطة العالم الإسلامي ، الرياض ٢٠٠٩ ، ص٧٧

تحت عنوان :

حنفاء بني أمية

أو :

الحنفاء في بني أمية

نعود مرة أخرى إلى وفاة يزيد ١٩هـ ، وتولي معاوية ما كان تولاه ، فنقول : لقد تمكن معاوية منذ تولى من توطيد سلطانه في الشام بحيث تمكن من إعطاء أبيه ٤٠٠٠ دينار وحمله على فرس ، وإعطاء أخيه عتبة ٢٠٠٠ دينار ، وحمله على بغل ، وإعطاء أخيه عنبسة ١٠٠٠ دينار وحمله على حمار.

وعندما قدم عمر الشام تلقاه معاوية في موكب كبير لم يملك عمر إلا أن قال : (هذا كسرى العرب) وعندها تمكن معاوية من إقناع عمر بضرورة ما يصنع ، حتى أصبح عمر لا يدري ماذا يقول وما يصنع معه ، فقال : (ويحك ما ناظرتك في أمر أعيب عليك إلا تركتني ، ما أدري : آمرك أم أنهاك [1] ؟!).

إذن قبل موت عمر عام ٢٣هـ كانت الأسس قد وضعت ، والأوتاد دقت وثبتت ، فلما جاء عثمان أقر معاوية وغيره على ما كانوا عليه أيام عمر ، لكن الأمر اختلف الآن ، عثمان منا وعلينا ، أصبح زيتنا في دقيقنا.

عثمان (ﷺ) ترك للولاة الحرية الكاملة حتى غدا معاوية قوة لا يستهان بها تمكن من تجييش مائة ألف مقاتل مع أبنائهم وعبدانهم ، وكل يأخذ العطاء ، بحيث هدد كبار الصحابة في عقر مدينتهم ، فهذا الجيش العرمرم لا يعرف :

- عليا ، ولا قرابته [أي من رسول الله (ﷺ)].

---

(١) الطبري ٥/٣٣١.

- ولا عمارا ، ولا سابقته (في الإسلام).
- ولا الزبير ، ولا صحابته [أي مع رسول الله (ﷺ)].
- ولا طلحة ، ولا هجرته.
- ولا يهابون ابن عوف ولا ماله.
- ولا يتقون سعد ، ولا دعوته.

صدقت في كل ما قلت يا ابن سفيان ، فكل هؤلاء الجند لا يعرفون غير العطاء : عطاء معاوية .

وفي النهاية ترك عثمان لمصيره ، فقد كان عثمان وقميص عثمان والمطالبة بدم عثمان وقتله في النهاية بمثابة الثمرة الناضجة التي التقطها معاوية ، وحارب الإمام خمس سنوات كاملات تحت هذه الراية (المطالبة بدم عثمان).

وعندما حكم الرجل دفنت الراية سريعا سريعا ، دست في التراب ، لقد أدت دورها تماما ، ولم يعد لها من حاجة البتة :

١- ذكر أستاذنا الدكتور محمد حلمي : وينصرف - أي معاوية عند حصار عثمان - انصرافا كليا إلى توطيد أقدامه وتعزيز سلطته ، وكأنه يريد نفس النتيجة ، دخل ابن عباس على معاوية في خلافته ، فقال له [1] :

وأما أنت يا معاوية فقد زينت له - عثمان - ما صنع ، حتى إذا حضر طلب النصرة ، أبطأت عنه وتثاقلت ، وأحببت قتله ، وتربصت لتنال ما نلت.

٢- قال الصحابي الجليل ، أبو الطفيل ، عامر بن وائلة لمعاوية :

---

(١) الخلافة والدولة ... ص٩٣.

- فما منعك - يا أمير المؤمنين - من نصرة عثمان ومعك أهل الشام ؟
- معاوية : أما طلبي بدمه نصرة له ؟.
- أبو الطفيل ضاحكا : أنت وعثمان ، كما قال الشاعر :

لا ألفيتك بعد الموت تندبني

وفي حياتي ما زودتني زادا

وقد استعان معاوية في حروبه الضروس ضد الإمام عليّ بما يلي :

١- التحالف مع الروم : وقع معاوية هدنة مع البيزنطيين ، مع الإمبراطور قنسطانز على وجه التحديد ، يدفع لهم معاوية في مقابل تنفيذ هذه الهدنة جزية سنوية ليتفرغ جيش الشام لمحاربة أمير المؤمنين ، ابن عم الرسول (ﷺ) [(١)].

٢- التحالف مع عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، هذان الرجلان كانا من أهم أركان القيادة في حكم معاوية.

وقد تمثل دور الأول في أمرين مهمين ، التحكيم الذي ضرب معسكر العراق في الصميم ، ثم الاستيلاء على مصر ، على أن تكون طعمة لعمرو ولأولاده من بعده.

هذا التحالف الذي وصفه أستاذنا الدكتور محمد حلمي بأنه يشبه تحالف الصبية الأشقياء ، وقد سبق الحديث عن لطم عمرو لمعاوية على وجهه أمام عمر ، وكيف استغل هذا الحدث في تدعيم مكانة معاوية لدى الخليفة ، هل هذه كانت مقصودة ملعوبة مدبرة ؟ ربما وربما ، ولكنها استغلت بمهارة شديدة ، إذ أمر عمر على الفور أن يقوم معاوية فيقتص من عمرو ، ولكن الأول يصرح لابد من العودة إلى أبي ، قد عاهدته ألا أقضي أمرا دونه ، وجاء أبو سفيان وقرر أنه يهب الأمر لعمر ، فربح

(١) الخلافة والدولة ... د. محمد حلمي ، ص٦٥.

الأب وابنه الموقف من جميع جوانبه.

وعند التحالف مع عمرو نسي معاوية كل شيء في سبيل الوصول إلى هدفه ، الزعامة والملك ، حيث يقول : مازلت أطمع في الخلافة منذ قال رسول الله (ﷺ) : إن ملكت يا معاوية فأحسن [1].

لقد نسي هذه اللطمة من عمرو ، إن تلقائية أو مقصودة ، كل هذا من أجل الرياسة ، وهو الملك ، لاحظ أن الرسول قال له : (إن ملكت يا معاوية ...) فهو الملك أو هو أول الملوك ، كما قال عن نفسه ، أو كما وصف نفسه.

يروي أبو هريرة عن سيده (ﷺ) :

رأيت في النوم بني الحكم وبني أبي العاص ينزون على منبري ، كما تنزو القردة [2] بعدها لم ير (ﷺ) ، مستجمعا ضاحكا حتى وفاته ، كما نص أبو هريرة.

وفي رواية أخرى : (رأى النبي (ﷺ) بني أمية على منبره فساءه ذلك) فأوحى إليه أنها دنيا أعطوها ، فقرت عينه.

قال تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً [3]) قيل المراد بالشجرة الملعونة بنو أمية ، رأي رسول الله (ﷺ) في النوم بني فلان ينزون على منبره (ﷺ) نزو القردة ، فساءه ذلك ، فما استجمع ضاحكا حتى مات (ﷺ) هذا جزء مما ذكره ابن كثير في تفسيره [4].

---

(١) المقريزي ... ص٧٧.
(٢) السابق ، ص٧٩.
(٣) ٦٠ الإسراء.
(٤) ٤٩/٣.

ونحن نترك هذه الأحاديث لعلماء الحديث المحققين لنقدها وتمحيصها ، فالكلمة الأولى للعلماء والمختصين.

نعود إلى التحالف الثنائي بين عمرو ومعاوية ، لقد أثمر الثمرة المهمة في قضية التحكيم ، ثم في الجبهة المصرية ، حيث أثمر هذا التحالف عن قتل اثنين من أهم أركان القيادة العراقية ، وأسر آخر ، والإيقاع بين الرابع ، وبين الإمام عليّ ، كيف ؟.

١ـ بعث الإمام عليّ واليا على مصر هو مالك بن حارث الأشتر التميمي ، وعلى الفور بعث معاوية إلى رجل من خراج مصر ، فقال له :

(إن الأشتر قدم على مصر ، فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت فاحتل له ـ من الحيلة ـ بما قدرت عليه.

أي أن الرجل إذا تمكن من قتل الأشتر له ما يجبيه من خراج حتى يموت ، خرج الرجل واسمه (الجستار) حتى وصل القلزم (السويس) فأقام بها ، وعندما ظهر الأشتر استقبله الغادر فقال له :

(هذا منزل ، وهذا طعام ، وهذا علف ، وأنا رجل من أهل الخراج) نزل عنده الأشتر فأتاه الدهقان الماكر بعلف وطعام ، حتى طعم ، ظهر العسل في باطنه جند مجندة ، أعطاه الجستار شربة من عسل ، قد جعل فيه سما ، فلما سقاه إياه وشربها مات من فوره.

وعندها أسرع الغادر إلى معاوية فأخبره بنجاح مهمته ، قام معاوية خطيبا ، فكان مما قال :

(كان لعليّ بن أبي طالب يدان يمينان ، قطعت إحداهما يوم [1] صفين ـ يعني

(١) تاريخ الطبري ٩٥/٥.

عمار بن ياسر ـ وقطعت الأخرى اليوم ...) يقصد الأشتر.

صدقت يا معاوية فقد كان هذا الأشتر ـ رحمه الله ـ شهد معركة اليرموك ، فذهبت عينه ، صحب عليا ، وشهد معه الجمل وصفين ، فقد كان من الأبطال الكبار ، خطيب قومه ، وفارسهم المبرز [1].

٢ـ أراد معاوية أن يطمئن إلى مصر بأيسر جهد ممكن ، فاختار لها أعرف الناس بها ، وأشدهم شوقا للعودة إليها ، واستعادتها ، الحليف عمرو وهو الجدير بهذي الأوصاف مكتملة غير منقوصة ، ومن ثم منحها ـ أي مصر ـ إلى خليله (طعمة له ولأولاده من بعده).

وتقدم الحليفان إلى مصر ، وصلا إلى القرب من الفسطاط ، لكنهما اضطرا للعودة سريعا إلى الشام بسبب تحرك الجيوش العراقية ، إلا أنهما تمكنا من أسر واليها ابن أبي حذيفة ، وبطبيعة الحال أخذ إلى ما وراء وراء الشمس ، كما سعيا إلى بذر بذور الثورة ضد الإمام عليّ.

٣ـ قيس بن سعد كان أكثر حظا مما سبق ، لقد دس معاوية ـ عن طريق عيونه وجواسيسه في معسكر العراق حتى اقتنع الإمام عليّ بعزله ، وتولية مالك بن الحارث الأشتر الذي قتلته جنود العسل ، أي معاوية تمكن في عام واحد من عزل والي مصر ، وقتل الأشتر وحده ؟ كلا ، بل قتل ابن الصديق.

٤ـ محمد بن أبي بكر : ولد عام حجة الوداع ١٠هـ ، تربى في حجر عليّ ، شهد معه الجمل وصفين ، وقد تمكن عمرو من أخذ مصر من يده بعد أن ولاه أمير المؤمنين إياها ، ثم قتله معاوية بن حديج قائد جيش معاوية في مصر [2].

---

(١) نهج البلاغة ، ص٢٩٣.
(٢) الخلافة والدولة ، د. محمد حلمي ، ص٩٦.

لله درك يا ابن أبي طالب !! تحملت كل هذه العذابات ، تحملت ما لا يتحمله أحد من البشر ، أو من صنوف البشر ، ولكن الموعد الله ، حيث تكون أول من يجثو للخصومة أمام الله ، وأول من يقضى به بين الناس يوم القيامة في الدماء ، والمصيبة يا أمير المؤمنين أن نهر الخداع لا يزال يجري كما هو ، وكأن أقطاب الفتنة أشعلوها بحيث لا تطفأ إلى وقت الخصومة أمام الله..

جيوش من المخدوعين والخادعين ما يزالون يجاحشون بكل صلف وصلابة عن أعدائك وشانئيك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

بقى أن نتحدث عن خليف آخر لمعاوية ، وما كان بين الحليفين ، وهذا طرف مما كان :

مروان بن الحكم : لم تك العلاقة بين الحليفين صافية في جميع الأحوال ، بل سادتها أحيانا أجواء مشحونة بالمنافرة وربما التحدي ، وفي النهاية تمكن مروان من نقل الحكم إليه ، وإن فترة قليلة كلعقة الكلب أنفه ، ثم توراثها أبناؤه : هذه الدراسة ـ المباركة بأمر الله ـ أبرزت شيئا مهما ، هي إخبار النبي الأعظم (ﷺ) بكل شيء حدث من بعده ، وأنار (ﷺ) بصيرة المستبصرين بما يكون وما يصير ، فقد تحمل هموم الأمة حيا وفي قبره ، فاللهم اجزه عنا خير ما جزي رسولا عن قومه ، ونبيا عن أمته.

فلقد سبق أن الرسول (ﷺ) كان يكثر النظر إلى مروان ، ولما سئل ؟ قال :

أليس هذا ابن المخزومية

أليس هذا ابن المخزومية

قالوا : بلى ، قال : إذا بلغ بنو هذا أربعين رجلا كان الأمر ـ الحكم ـ إليهم.

ولذا كان مروان بن الحكم إذا جرى بينه وبين معاوية كلام قال : إني - والله - لأبوعشرة ، وأخو عشرة ، وعم عشرة ، وما بقى إلا عشرة حتى يكون الأمر فيّ.

وفي حديث آخر يقول المصطفى (ﷺ) : إذا بلغ بنو أبي العاص أربعين رجلا اتخذوا دين الله دغلا ، وعباد لله خولا ، ومال الله دولا.

وعندما خلا مروان بعمرو بن عثمان بن عفان وهو مريض قال له :

ما أخذ هؤلاء - معاوية وأسرته - الخلافة إلا باسم أبيك ، فما يمنعك أن تنهض بحقك ، فنحن أكثر منهم رجالا.

ثم عدد مناقب رجال بني العاص وفضولهم على بني حرب - آل معاوية - عندما علم معاوية كتب إليه :

أشهد يا مروان أني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : إذا بلغ ولد الحكم ... الحديث ، فرد مروان : يا معاوية ، إني أبو عشرة وعم عشرة ... الخ ، فقال معاوية لابن عباس : أنشدك الله يا ابن العباس : أما تعلم أن رسول الله (ﷺ) ذكرها فقال : أبو الجبابرة الأربعة ؟ فقال ابن عباس : الله [1] نعم.

<u>الأوائل</u> : صدر في مصر كتاب بعنوان (الأوائل) لأبي عروبة ت ٣٨١هـ نقتبس منه شيئا فما اختص به معاوية ، أو ما كان فيه من الأوائل ، وقد كنت أتوقع أن يرد أحد على الكتاب أو يعقب عليه ، إلا أنني لم أجد ، على أي الأحوال مما اختص به معاوية ، وكان فيه من الأوائل فيه :

(١) المقريزي ، ص٨١.

١ـ تجرؤ الرعية [1] : تجرأت الرعية على معاوية بشكل لم يسبق مع من قبله من أبي بكر حتى الحسين بن عليّ (ﷺ) ومن هذا :

أ- قدم جارية بن قدامة السعدي على معاوية ، فدار بينهما الحوار التالي :

- معاوية : من أنت ؟
- جارية : ابن قدامة.
- معاوية : وما عسيت أن تكون ، هل أنت إلا نحلة ؟
- جارية : لقد شبهتني بها حامية اللسعة ، حلوة البصاق - والله - ما معاوية إلا كلبة تعاوي الكلاب ، وما أمية إلا تصغير أمة.

وفي رواية أخرى جاء الحوار كما يلي :

وفد جارية فقال له معاوية :

- معاوية : أنت الساعي مع عليّ بن أبي طالب ، والموقد النار ، تجوس قرى عربية ، تسفك دماءهم.
- جارية : دع عنك عليا ، فما أبغضنا عليا منذ أحببناه ، ولا غششناه منذ صحبناه.
- معاوية : ويحك يا جارية ، ما أهونك على أهلك إذ سموك جارية.
- جارية : أنت يا معاوية ، كنت أهون على أهلك إذ سموك معاوية.
- معاوية : لا أم لك.
- جارية : أم ما ولدتني ، إن قوائم السيوف التي لقيناك بها ، بصفين في أيدينا.
- معاوية : إنك لتهددني ؟!.

(١) استخدمنا تعبير تجرؤ الرعية بدلا من تعبير كتاب (الأوائل) أول من عبثت به الرعية ، هذا نوع التأدب في التعبير احتراما لمشاعر الآخرين.

- جارية : إنك لم تملكنا قسرة ، ولم تفتحنا عنوة ، لكنك أعطيتنا عهودا ومواثيقا ، فإن وفيت لنا وفينا ... وإن ترغب إلى غير ذلك ، فقد تركنا وراءنا رجالا مدادا وأذرعا شدادا ، وأسنة حدادا ، وإن بسطت إلينا فترا من [1] غدر ، زلفنا إليك بباع من ختر.
- معاوية : لا أكثر الله في الناس أمثالك [2].

ب- قدم معاوية المدينة فلقيه الصحابي الجليل أبو قتادة الأنصاري فقال معاوية :

- معاوية : تلقاني الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار.
- أبو قتادة : لم يكن لنا دواب.
- معاوية : فأين النواضح [3] ؟
- أبو قتادة : عقرناها في طلبك ، وطلب أبيك يوم بدر، إن رسول الله (ﷺ) قال لنا : (إنكم سترون بعدي أثرة).
- معاوية : فما أمركم ؟
- أبو قتادة : أمرنا أن نصبر.
- معاوية : فاصبروا.

وبلغ هذا الحوار مسامع الشاعر ابن الشاعر ، عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، فقال :

ألا أبلغ معاوية بن حرب *** أمير المؤمنين بنا كلامي
فإنا صابرون ومنظروكم *** إلى يوم التغابن والخصام [4]

(١) الأوائل
(٢) تاريخ الخلفاء ... ص٢٠٠.
(٣) الجمال الجيدة.
(٤) تاريخ الخلفاء ، ص٢٠٩.

جـ - دخل سعد بن وقاص على معاوية يوما ، بعد أن استقر الأمر إليه قائلا :

- سعد : السلام عليك أيها الملك.
- معاوية : ألا قلت : السلام عليك يا أمير المؤمنين.
- سعد : ذاك إن كنا أمرناك ، وإنما أنت منتز.

د- الصحابي الجليل سفينة ، وقد كان قويا ، في سفرة من السفرات أعطاه بعضهم ما معه ليحمله ، وافق الرجل ، ثم تبعه كثيرون حتى حمل عن الناس كثيرا من أغراضهم ، عندما رآه الرسول (ﷺ) على هذه الصورة أطلق عليه هذا اللقب (سفينة) لكثرة ما حمل عن الناس.

سئل سفينة : إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم ، قال : (كذب بنو الزرقاء ، بل هم ملوك من أشد الملوك - أي على الناس - وأول الملوك معاوية [1].

ويتساءل المرء ، وحق له أن يساءل : لماذا كل هذا العداء والتكالب على الإمام عليّ والوقوف بكل قوة مع أعدائه ؟ قبلنا سأل عبد الله بن أحمد بن حنبل أباه عن أصل القصة والحكاية بين عليّ ومعاوية ، فقال الفقيه الجليل ابن حنبل لابنه عبد الله :

(اعلم أن عليا كان كثير الأعداء ، ففتش له أعداؤه عيبا ، فلم يجدوا ، فجاءوا إلى رجل قد حاربه وقاتله ، فأطروه كيادا منهم له) [2].

أي وقفوا مع معاوية وأيدوه لا حبا فيه ورغبا ، ولكن كرها وبغضا وكيدا للإمام عليّ.

ونترك مسألة التجرؤ على معاوية إلى طرف مما ذكر عنه من كتاب الأوائل :

---

(١) السابق ١٩١.
(٢) السابق ، ص١٩٩.

٢- رد قضاء رسول الله (ﷺ) : أول من رد قضاء رسول الله (ﷺ) حين استلحق زيادا بأبي سفيان ، وسيأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن زياد.

٣- القعود في الخطبة : أول من خطب الناس قاعدا معاوية.

٤- الخطبة قبل صلاة العيد.

٥- أول من أحدث الأذان في العيد.

٦- أول من نقص التكبير.

٧- أول من استحلف في البيعة ، استحلفهم بالله ، فلما كان عبد الملك بن مروان استحلف بالطلاق والعتاق [(١)].

٨- أول من اتخذ الخصيان الخاص لخدمته.

٩- كانت دية المعاهد كدية المسلم ، فكان معاوية أول من قصرها ، فجعلها نصف الدية ، وأخذ النصف الآخر لنفسه.

١٠- تمتع النبي (ﷺ) وأبو بكر وعمر وعثمان ، وأول من نهى عنها معاوية.

١١- أول من قتل صبرا.

١٢- سلام المؤذنين على الأمراء بالصلاة.

١٣- أول من قضى بأن يرث المسلم الكافر ، ولا يرث الكافر المسلم ، وكانت السنة قبله :

---

(١) الأوائل ، ص١٨٥.

لا يرث المسلم الكافر

ولا يرث الكافر المسلم

وبقي الأمر هكذا في بني أمية وبني مروان إلى عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١١١هـ).

١٤- أول رأس حمل في الإسلام.

١٥- أول رأس أهدى في الإسلام رأس عمرو بن الحمق ، ابن الحمق له صحبة ، كان من أنصار الإمام عليّ ، قتل بالموصل عام ٥٠هـ [1].

والآن نهرول سراعا خفافا إلى المغيرة فنتحدث عن :

<u>قصة الإمارة على الكوفة</u> : تولى المغيرة جمادى

٤١هـ ، كيف وكيف؟ بمجرد أن استتب الأمر لمعاوية حتى وفى لحليفه الأكبر عمرو فولاه مصرنا ، قال الحليف : فكيف بالكوفة ؟ قال معاوية : استعمل عليها ابنك عبد الله بن عمرو ، قال الأب : نعم.

فبينا هما على ذياك الحال إذ جاء المغيرة من معتكفه في الطائف ، فتناجيا - معاوية والمغيرة - فكان مما قال المغيرة : تؤمر عمرا على مصر والمغرب ، وابنه على الكوفة ، وتكون كالقاعد - أي في الشام - بين لحيي أسد (أي فكي أسد).

وهنا تحير معاوية ، وسأل الداهية : ما ترى ؟ رد على الفور : أنا أكفيك الكوفة ، قال : فافعل.

هذا كان كلام المساء ، لما جاء الصباح طار وساح ، في صباح اليوم التالي

(١) السابق.

صارح معاوية حليفه عمرا بتغيير رأيه ، فهم عمرو الرسالة ، كيف ؟

قال معاوية لعمر حين أصبحا : إني قد رأيت كذا وكذا ، وبسرعة البرق فهم الداهية ما حدث ، فقال :

- عمـــر : ألا أدلك على أمير للكوفة ؟
- معاوية : بلى.
- عمـــر : المغيرة ، استعن برأيه وقوته في المكيدة ، واعزله عن المال ، قد كان قبلك عمر وعثمان فعلا ذلك.
- معاوية : نعم ما رأيت.

وعندما دخل المغيرة قال معاوية : إني قد كنت أمرتك على الجند والأرض ، ثم ذكرت سنة عمر وعثمان قبلي ، أي في تنحيته عن المال ، كما فعل الخليفتان قبله فقال المغيرة قبلت.

ومن نافل القول أن حضور المغيرة إلى معاوية قد سبقته مكاتبات ومراسلات ولم يك فجاءة ، قال الليث :

كان المغيرة قد اعتزل ، فلما صار الأمر إلى [1] معاوية كاتبه المغيرة.

هذه أول خطوة أو أول خدمة قدمها المغيرة إلى سيده معاوية ، ليست الآخرة ولا الأخيرة ، إنما بعدها أشياء أشد خطورة من ولاية الكوفة وتثبيت أقدام الحكم الأموي الجديد ، خاصة أن الكوفة بقيت ست سنوات عاصمة للإمام عليّ وابنه الحسن (ﷺ).

---

(١) تاريخ دمشق ٣/٢٠٥.

فمن هذي الخدمات المهمة بالغة الأهمية القضاء على تمرد زياد ثم ولاية العهد لابنه يزيد :

١ـ <u>ترويض زياد</u> : من هو زياد هذا ؟ إنه زياد ابن أبيه ، أو ابن سمية (أمه) كان يسمى زياد بن عبيد الثقفي (سمية) أمه كانت جارية الحارث بن كلدة ، زياد أخو أبي بكرة الصحابي الجليل الذي شهد على المغيرة ، والذي كان كالنصل من العبادة.

ولد عام الهجرة ، أي مات رسول الله (ﷺ) وعمره ١١ عاما فقط ، لا صحبة له ، ولا رواية ، كان من دهاة العرب وفصحائهم ، اشترى أباه عبيدا بألف درهم فأعتقه [١].

أم زياد كانت مولاة لأحد أشراف العرب في الجاهلية (الحارث بن كلدة كما سبق) وكذلك كان أبوه عبدا حتى اشتراه وأعتقه ، ولكن أحدا من العرب لم يعيره بهذا ، بل لم يتطرق إليه أحد ، حيث كان زياد في كثير من المواقف شديد الحكمة والحنكة ، كما أن هذا الأصل ، أو أصل أبويه لم يعق الابن أن يصل إلى أرفع المناصب ، بل شهد له عمر وعليّ ، كما سيأتي.

أما وقد ولد زياد في هذا التاريخ ـ عام الهجرة ـ فإنه من غير المتوقع أن ترى قدما أو يدا في الإدارة على عهد محمد (ﷺ) أو الصديق الذي توفى ١٣هـ ، أي وزياد عمره ١٣ سنة ، ولكن بدت مواهبه في عصر عمر (ﷺ) وفي وقت مبكر من فتوته وشبابه [٢].

---

(١) أسد الغابة ٢/٢٤٠.
(٢) الخلافة والدولة ... د. محمد حلمي.

٢- عصر عمر : استعمله عمر على بعض أعمال البصرة ، اتخذه أبو موسى الأشعري كاتبا له ، ثم أنابه عندما جاء إلى عمر للتحقيق في شكوى أهل العراق من أبي موسى ، وكان أحد الشهود على المغيرة عام ١٧ هـ في واقعة الزنا ، مع أخويه أبي بكرة ، ونافع ، وكان الشاهد الرابع شبل بن معبد ، كان عُمْر زياد في هذه الواقعة ١٧ سنة فقط ، وعندما عزله عمر قال :

- زياد : يا أمير المؤمنين أخبر الناس أنك لم تعزلني لخزية.
- عمر : ما عزلتك لخزية ، ولكني كرهت أن أحمل على الناس فضل عقلك [١].

ومن الملاحظ تقدم عدد من الشباب إلى مناصب إدارية وقيادة مثل زياد هذا ومثل محمد بن أبي بكر ... الخ وقد برز من أوصاف هؤلاء الشباب شيء مهم هو الكتابة ، فقد احتاج المسلمين في إدارتهم للقارئين الكاتبين ، ومن ثم قدموهم إلى الصفوف الأولى برغم حداثة أسنانهم ، ما يدل على أن هذه الأمة الأمية منذ نزلت (اقرأ) تحولت إلى الحضارة والقراءة والكتابة.

وفي عصر عمر أيضا : قدم زياد مبشرا بالفتوح ، أمره عمر أن يقوم خطيبا يبشر الناس ، فأبدع وأحسن وأفلق ، فقال عمرو بن العاص : (لو كان هذا الفتى قرشيا لساق العرب بعصاه) رد أبو سفيان عجلا : (والله إني لأعرف الذي وضعه في رحم أمه) قال عليّ : (ومن هو يا أبا سفيان ؟) قال : أنا ، نصحه عليّ قائلا : مهلا ، لو سمعها عمر لكان سريعا إليك.

٣- خلافة عثمان : وفي عصر عثمان استخلفه عبد الله بن عامر على البصرة حين خرج عبد الله للجهاد.

---

(١) أسد الغابة ٢/٢٤٠.

وربما لم يظهر دور كبير لزياد على اعتبار أن عثمان مال إلى أقاربه ، وما كان في هذا من عيب ، ولكن المشكلة أن هؤلاء كان فيهم من له تاريخ مشين أسود مع الرسول (ﷺ) مثل الحكم وابنه مروان وعبد الله بن أبي السرح.

٤ـ عصر أمير المؤمنين : لقد وقع اختيار أمير المؤمنين على هذا الشاب الواعد الصاعد ، فولاه شئون المال والخراج مع عبد الله بن عباس ، ثم لم يلبث الإمام أن رشحه إلى مواجهة التمرد الذي هدد بتفلت كرمان وفارس من تبعية الخلافة إذ امتنع أهلوها عن دفع الخراج ، بل تحركت الثورة ضد الإمام عليّ.

وفي تاريخ الطبري [1] : (بعثه ـ أي زيادا ـ إلى أكراد خرجوا بها على الإمام عليّ ، فظفر بهم زياد ، وأقام باصطخر).

ويبدو من خلال وصف الطبري بأنهم أكراد إيران ، أي من منطقة شمال غرب إيران الآن.

تقدم زياد فقمع التمرد ، في ذات الوقت الذي اشتدت فيه محنة الإمام مع أنصاره وأعوانه ، قام زياد ببناء قلعة بمدينة اصطخر جمع فيها أموال الخراج ، عرفت باسم قلعة زياد.

وهكذا كان زياد منذ فتوته الباكرة يتميز بعمق خبرته الإدارية ، ويؤكد قوة شخصيته ، وكفاءته على تتابع الإدارات المختلفة منذ عمر إلى عثمان وعليّ ، كما ارتبطت هذه الخبرة المتنامية بالبصرة ، وما اتصل بها من بلاد فارس إدارة [2] وإقامة.

(١) ١٨٥/٥.
(٢) الخلافة والدولة ... ص١٦٤.

وقد أدركت عين معاوية الواعية الخبيرة قيمة هذه الشخصية العظيمة التي وضعت كل خبراتها في خدمة الإمام عليّ ، كما فعل بغيره من حواري الإمام :

- قيس بن سعد : سعى عن طريق عيونه في معسكر عليّ أن يعزل عن مصر.
- مالك بن الأشتر : قتل مسموما قبل أن يصل إليها عن طريق جنود العسل.
- محمد بن ابي بكر : قتل أيضا.
- ابن أبي حذافة : أسر.

لكن محاولات معاوية وتهديداته لم تفلح مع زياد ، جاء في أسد الغابة : لما ولي زياد بلاد فارس لعليّ ، كتب إليه معاوية يعرض له بذلك (باعتراف أبي سفيان بنسبه) ويتهدده إن لم يطعه ... أرسل زياد الكتاب إلى أمير المؤمنين ، ثم قام زياد في الناس خطيبا فقال :

عجبت لابن آكلة الأكباد يتهددني ، وبيني وبينه ابن عم رسول الله في المهاجرين والأنصار [1].

أرسل زياد كتاب معاوية إلى أمير المؤمنين ، فلما وقف على الكتاب بعث أمير المؤمنين بهذي الأسطر :

إنما وليتك ما وليتك وأنت عندي أهل لذلك ، ولن تدرك ما تريد إلا بالصبر واليقين ، وإنما كانت من أبي سفيان فلتة من أماني الباطل وكذب النفس ـ يقصد اعتراف أبي سفيان بنسبه أيام عمر ـ لا تستحق بها نسبا ولا ميراثا ، وإن معاوية يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذر ، ثم احذر ، والسلام.

---

(1) أسد الغابة ٢/٢٤٠.

صدقت يا سيدي ، هذه فلتة لسان لا توجب نسبا ، ولا إرثا ، هذه فتوى الإمام عليّ في القضية ، ولا فتوى بعد فتواه ، ولا كلام بعد كلامه (ﷺ).

وعندما وصلت كليمات الإمام إلى زياد سعد بها واستبشر قائلا : شهد لي أبو حسن ، ورب الكعبة [1].

وعندها ازداد خوف معاوية من زياد ، ولكنه لم يكف عن محاولاته ، ليأتي الرجل من بين يديه ومن خلفه ، وعن شماله وعن يمينه ، ومن كل الاتجاهات والزوايا.

وبقي الأمر إلى أن توسط المغيرة بين الرجلين ، وهذا يعني أن فكرة استلحاق زياد بأبي سفيان كانت قديمة منذ ولاه الإمام عليّ (ﷺ) وكانت فكرة معاوية نفسه ، لا المغيرة ، هذا الأخير تمكن من إقناع زياد بالوسائل الدبلوماسية الناعمة ، كما سيأتي.

هـ- عصر معاوية : استشهد أمير المؤمنين ٤٠ هـ ، وتنازل الحسن وقبل الصلح في العام ٤١ هـ ، وبقي زياد على عناده.

اعتقل معاوية أبناء زياد في البصرة ، ولكن الرجل ما لانت له قناة ، وما رضخ ، وما استكان ، أرسل معاوية الجيوش لحربه واستدراجه من مكمنه ومأمنه ، لكنه صمد.

وهنا تطوع المغيرة بإقناع زياد ، بعد أن أخذ من معاوية الضوء الأخضر والموافقة ، ذهب المغيرة إلى حيث زياد ، فكان مما قاله لزياد : ارم بالغرض الأقصى ،

---

(١) السابق.

ودع عنك الفضول ، إن هذا الأمر - الحكم - لا يمد إليه أحد يدا إلا الحسن بن عليّ فخذ لنفسك قبل التوطين.

إنه يقول لزياد : تريد أن تناطح معاوية على الحكم ؟ هذا الحكم من حق إنسان واحد هو الحسن بن عليّ ، لا أحد غيره.

- المغيرة يبدو أنه أوصل زيادا إلى نقطة التحير ، فسأل المغيرة متحيرا : فأشر عليّ ؟.
- المغيرة : أرى أن تنقل أصلك إلى أصله - أي معاوية - وأن تعير الناس منك إذنا صماء.
- زيـــاد : يا ابن شعبة ، أغرس عودا في غير منبته ، لا مدرة فتحييه ، ولا عرق فيسقيه.

عدنا مرة أخرى إلى المربع الأول إلحاق زياد بأبي سفيان ، وفي النهاية ، وبعد جهود طويلة بذلها المغيرة استسلم زياد لاقتراح المغيرة ، وقدم على معاوية عام ٤٤ هـ في دمشق ، أي أن استرضاء زياد استغرق حوالي خمس سنوات ، بل امتدت إلى زمن الإمام عليّ (ﷺ).

وبعد هذا الصلح عين زياد واليا على البصرة ٤٥ هـ ، واستطاع أن يضبط الأمور ، ويسير الشئون بكفاءة واضحة حتى قال بعض رجال فارس :

ما رأينا سيرة أشبه لسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتي من الأمور المستقبلة [1].

---

(١) الخلافة والدولة ، ص١٧١.

فرق بين المغيرة وبين زياد ، الأول سعى سعيا حثيثا إلى معاوية ، الآخر استغرق معاوية سنوات طوالا ، فما استطاع ترويضه أو القضاء عليه ، إلا بعد جهود مستميتة من عامله على الكوفة ، مغيرة الرأي والدهاء ، وهي أجل الخدمات التي قدمها المغيرة إلى سيده معاوية.

جاء في رسالة الجاحظ [1] : رد معاوية قضية رسول الله (ﷺ) ردا مكشوفا ، في : الولد للفراش ، أي للزواج الشرعي ، أي ينسب الولد لأبيه وأمه المتزوجين زواجا شرعيا ، وللعاهر للحجر ، للزاني والزانية الرجم بالحجارة فقط ، ولا ينسب الولد للزاني ، نص الحديث :

الولد للفراش وللعاهر الحجر.

وقد بقي زياد واليا على البصرة حتى مات المغيرة ٥٠هـ فضم معاوية لزياد الكوفة مع البصرة ، فكان أول من جمع له ذلك ، كان الرجل يقيم في البصرة ٦ أشهر ، وفي الكوفة مثلها حتى مات ٥٣هـ.

قال في أسد [2] الغابة : وكان زياد عظيم السياسة ضابطا لما يتولاه.

من مواقف زياد : يذكر لزياد عدة مواقف تبرز فيها شخصية الرجل المتوازنة والقوية والدقيقة الحصينة في نفس الوقت ، مثل :

١- في الشهادة على المغيرة ، كانت الشهادة دقيقة محكمة متقنة ، شعارها : (وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ [3]).

(١) المقريزي ، ص١٢٤.
(٢) ٢٤١/٢.
(٣) ٨١ يوسف.

٢- وعندما عزل بعد الشهادة طلب من عمر (ﷺ) أن يوضح أنه ما عزله لخزية أو مأخذ ، ولذا برر عمر العزل بقوله : (كرهت أن أحمل على الناس فضل عقلك).

٣- وعندما كتب له أمير المؤمنين : (إنما وليتك ما وليتك وأنا أراك أهلا له ...) فهم الرسالة ، وقال : (شهد لي أبو حسن ورب الكعبة).

٤- وفي ولاية العهد ليزيد نصح معاوية بالتؤدة ، فلا يعجل ، وأن يكفه عما يصنع ، وقد انتصح معاوية بما نصح به زياد ، وقبل رأيه ، وكف يزيد عن كثير مما كان يصنع قبل فكرة ولاية العهد.

٥- أخيرا - وليس آخرا - عندما كتب المغيرة في قضية التوريث مذكرا : (فناء عمره - معاوية - وفناء أهل بيته ، وجفوة قريش له) ورد هذا الخطاب وزياد عند معاوية ، فاستأذن زياد أن يرد على المغيرة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ولني إجابته ، فألقى إليه الكتاب ، فكتب : أما ما ذكرت من فناء عمرك ، فإنه لم يأكله غيرك ، وأما نفاد أهل بيتك ، فلو أن أمير المؤمنين قدر أن يقي أحدا لوقى نفسه ، وأما جفوة قريش فإني هذا ، وهم أمروك [1].

ومن حصافة هذا الرجل أنه لم يترك الإمام عليّ إلى المعسكر الآخر ، وعندما أجرى الإمام الحسن الصلح لم يهرول إلى معاوية ، كما هرول الآخرون ، من أمثال المغيرة ، إنما معاوية نفسه الذي حفيت قدماه لاسترضائه ، ولم يتمكن من هذا إلا بمعونة المغيرة بن شعبة ، كما سبق.

<u>ولاية العهد والتوريث</u> : استتب الأمر لمعاوية عام ٤١ هـ بعد تنازل الحسن وأصبح المغيرة واليا على الكوفة ، ولكن معاوية بدا أن يعزله ، فكتب إليه : (إذا

(١) تاريخ دمشق (السابق).

قرأت كتابي فاقبل معزولا) فأبطأ المغيرة ، فلما ورد عليه ، سأل معاوية عن سبب تأخيره ، وما هو ؟ قال المغيرة : البيعة ليزيد من بعدك ، قال معاوية : أو قد فعلت ؟ قال : نعم ، قال : ارجع إلى عملك.

فلما خرج قال له أصحابه : ما وراءك ؟ قال المغيرة : وضعت رجل معاوية في غرز غي ، لا يزال فيه إلى يوم القيامة ، قال الإمام التقي النقي الورع الإمام الحسن البصري : فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم ، ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة [1].

وفي رواية لابن قتيبة [2] : تحت عنوان (مشورة المغيرة في بيعة يزيد) جاء ما يلي :

لما استقامت الأمور لمعاوية استعمل المغيرة بن شعبة ، ثم هم أن يعزله ، ويولي سعيد بن العاص ، فلما بلغ ذلك المغيرة ، قدم على معاوية ، فقال له : قد علمت ما لقيت من هذه الفتنة والاختلاف ، وفي عنقك الموت ، وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس في مثل ما وقعوا فيه بعد وفاة عثمان ، فاجعل للناس بعد ذلك علما يفزعون إليه ، واجعل ذلك ليزيد ابنك.

ومن عجب أن معاوية دخل على امرأته (فاختة) وقد أنجبت له (عبد الله بن معاوية) أما يزيد فكان ابن ضرتها (ميسون الكلبية) هذه الفاختة بلغها ما عرض المغيرة من البيعة ليزيد ، فقالت لزوجها قولة حكيمة محكمة :

أراد المغيرة أن يجعل لك عدوا من نفسك يتمنى هلاكك كل يوم.

---

(١) تاريخ الخلفاء ، ص٢٠٦.
(٢) الإمامة والسياسة ، ص٦٥/٠

ولكن معاوية لم يأبه لهذا الرأي المخلص من زوجه ، ومال إلى رأي المغيرة وكان عليه أولا التخلص من الإمام الحسن بن عليّ ، فهو الوحيد المخول للخلافة بعد موت معاوية ، فمات الحسن ٤٩ هـ ، فلم يلبث معاوية إلا قليلا حتى بايع ليزيد بالشام وكتب ببيعته في الآفاق [1].

ويقال إن المغيرة تكلم مع يزيد في هذا الاقتراح ، فقال له : ذهب أعيان أصحاب النبي (ﷺ) وإنما بقي أبناؤهم ، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأيا ، وأعلمهم بالسنة والسياسة ، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين معاوية أن يعقد لك البيعة ، فأخبر يزيد أباه ، فأحضر المغيرة الذي قال : قد رأيت ما كان من سفك الدماء بعد عثمان ، وفي يزيد منك خلف ما عقد له.

رجع المغيرة إلى الكوفة ، وأوفد مع ابنه موسى عشرة ممن يثق بهم من شيعة بني أمية وأعطاهم ٣٠,٠٠٠ درهم ليرشحوا يزيد لخلافة أبيه من بعده ، فقدموا على معاوية الذي أسر إلى موسى بن المغيرة بهذا السؤال : بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم ، قال موسى : بثلاثين ألفا ، فقال معاوية : لقد هان على هؤلاء دينهم.

إنه يعرف أن هؤلاء شهود زور استأجرهم المغيرة حتى يوهم معاوية أن هذا ليس رأيه وحده ، لكنه رأي الرعية أيضا.

وبعد أن استقر رأي معاوية على فكرة الوراثة ، كتب بهذا إلى عماله ـ ومنهم زياد والي البصرة ـ الذي كتب إليه بأن المغيرة قد دعا الكوفة إلى البيعة ليزيد بولاية العهد بعد موت معاوية الذي أمر والي البصرة : (إذا وصل إليك كتابي فادع الناس قبلك إلى مثل ما دعاهم إليه المغيرة).

(١) السابق ، ص١٧٥.

ولكن ما حكم هذه الخطوة ، التورث وولاية العهد ؟ جاء في كتاب : (الوصية الرضية ...) لعثمان بن فودي (١٨١٧م) ما يلي :

ثم تعين عليّ بعد إذ لم يبق مثله ، فبايعه من آثر الحق على الهوى ، والآخرة على الدنيا ، ثم الحسن كذلك ، ثم كان معاوية أول من حولها ملكا ، يعني الاصطلاحي ، فجعلها ميراثا بعد سياسة عامله المغيرة بن شعبة ، وهو أول من أفسد أمر الأمة ، فكلما أخرجت عن وضع الملك كانت خلافة.

هذه العبارة هي مقتبسة من كلام الإمام المقري [1] ، إنها إشارة ، أو اقتباس من قول التابعي الجليل الحسن البصري (ت ١١٠هـ) حيث قال :

أفسد أمر الناس اثنان ، عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف فحملت ، ونال من القراء ، فحكم الخوارج ، فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة والمغيرة بن شعبة ، فإنه كان عامل معاوية على الكوفة ، فكتب إليه معاوية : إذا قرأت كتابي فأقبل معزولا ... القصة ، وقد عقب عليها الحسن بقوله : (ومن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم ، ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة).

هذه فتوى الإمام الحسن البصري ، وقبلها كان اقتباس عثمان بن فودي من الإمام المقري ، يثبت أن خطوتي التحكيم وولاية العهد ليزيد كانت من أقسى وأهم الضربات الموجعة المفجعة التي قصمت ظهر الأمة في الصميم والقواعد.

ولاية العهد ليزيد لم تمر بسهولة ، لكنها تمت بالحديد والنار ، وبكل وسائل البطش والقمع ، هذا طرف صغير من هذا المعارضة ، أو قل نموذج متواضع سريع متعجل لهذه المعارضة.

---

(١) ص ٨٣ ، ٨٥.

اعترض عبد الرحمن بن أبي بكر على مروان بن الحكم الذي جاء لأخذ البيعة ليزيد في المدينة ، قال مروان : ألست الذي قال لوالديه : أف لكما ؟ قال عبد الرحمن : ألست اللعين ابن اللعين ، لعن رسول الله (ﷺ) أباك.

قالت عائشة : كذب مروان ، ما فيه نزلت ، إنما نزلت في فلان بن فلان ، ولكن رسول الله (ﷺ) لعن أبا مروان - ومروان في صلبه - فمروان من لعنه الله [1].

لقد كان الخلق على ثقة من أنه بمجرد موت معاوية سيأتي الحسن طبقا للصلح الذي أبرمه ، لكن القوم ما تركوه ، حتى سقوه السم ، وعلى يد جعدة زوجه.

سب عليّ وأبنائه : على أنه منذ علت راية معاوية حتى كان عليه أن يرفع راية سب عليّ ولعنه والإزراء به في كل مكان ، وهذا طرف من القصة :

إذ إن معاوية عندما استعمل المغيرة على الكوفة كانت أوامره واضحة صريحة إلى المغيرة :

لست تاركا إيصاءك بخصلة

لا تترك شتم عليّ والوقوع فيه

ولذا كان المغيرة في ولايته يلعن عليا ويسبه ، وابنيه الحسن والحسين وعلى منبر الكوفة ، وفي نهج البلاغة [2] : كان المغيرة يلعن عليا لعنا صريحا ، على منبر الكوفة.

وفي رواية : كان المغيرة ينال في خطبته من عليّ ، بل وأقام خطباء ينالون منه ، في مهرجان لا يديره إلا شيطان ، ومن أمهر الشياطين ، مع أن هذا الذي يسبونه من العشرة المبشرين بالجنة.

---

(١) تاريخ الخلفاء ، ص٢٠٥.
(٢) شرح ابن أبي الحديد ١/٣٦٠ ، ٦٩/٣.

يقول أستاذنا الدكتور محمد حلمي : لم يقيد معاوية المغيرة بسياسة خاصة حين أسند إليه الكوفة أكثر من دعوته إلى المواظبة على لعن عليّ بن أبي طالب ، بل إلزام أهل الكوفة بهذا اللعن.

وهذا اللعن والتلهي به لم يك من نصيب الإمام عليّ فقط ، بل أيضا من نصيب الحسن ، وكان هذا اللعن والحط من شان عليّ وأبنائه برنامج فكاهي أو (سامر) ملاهي وتلاهي ، وفيمن ؟ في آل بيت الرسول (ﷺ).

قال عمرو والمغيرة : إن الحسن رجل عيي ، وإن له كلاما ورأيا ، وإنا قد علمنا كلامه ، فتكلم كلامه ، فلا يجد كلاما ، أي فلا يجد كلاما يقوله ، قال معاوية : لا تفعلوا ، فأبوا عليه ، فصعد عمرو المنبر ، فذكر عليا ، ووقع فيه ، ثم صعد المغيرة فوقع في عليّ أيضا ، ثم قيل للحسن : اصعد ، فقال : لا أصعد حتى تؤتوني موثقا [أي عهدا] إن قلت حقا أن تصدقوني ، وإن قلت باطلا أن تكذبوني ، فأعطوه.

صعد الحسن المنبر فقال : أنشدك الله يا معاوية ويا مغيرة ، أتعلمان أن رسول الله (ﷺ) لعن عمرا بكل قافية لعنة ، قالا : اللهم بلى ، قال : أنشدك الله يا عمرو ويا معاوية : أتعلمان أن رسول الله (ﷺ) لعن قوم هذا (ثقيف) قالا : بلى ، قال الحسن فإني أحمد الله الذي وقعتم فيمن تبرأ من هذا.

يقصد الحسن أنكم وقعتم في أبيه على الذي لم يقع ولم يك في [1] شيء من الأوصاف السابقات ، فلا هو في :

- السابق أو اللاحق.
- ولا قال قافية لعن بها.
- ولا لعن النبي قومه.

---

(1) مجمع الزوايد للهيثمي ٧/٢٤٧.

كما حدث لهؤلاء الثلاثة الذين فاز كل واحد بواحدة مما سبق ، بل كان التقصير في لعن عليّ وأبنائه تهمة تحاسب عليها الدولة على أعلى مستوى ، هذا الصحابي الكبير سعد بن أبي وقاص يدخل معاوية الذي يبادره : ما منعك أن تسب أبا تراب ؟.

كأن سب أبي تراب سنة مؤكدة ، لا تتوقف إلا بمانع أو موانع ، فقال سعد : ثلاث قالهن رسول الله (ﷺ) لأن تكون لي واحدة منهن أحب إليّ من حمر النعم :

١- سمعت رسول الله (ﷺ) حين خلفه في بعض مغازيه يقول له : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبوة بعدي.

٢- وسمعته يوم خيبر يقول : لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله فتطاولنا لها ، فقال : ادع لي عليا ، ودفع الراية إليه.

٣- ولما نزلت هذه الآية : (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ) دعا رسول الله (ﷺ) عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ، فقال : اللهم هؤلاء أهلي [1].

وفي حاضرة أمير المؤمنين الكوفة كان سب عليّ وأبنائه والوقوع فيه يستفز أصحابه ومريديه وكان على رأس هؤلاء الصحابي الجليل حجر بن عدي الذي كان عليه وعلى غيره من المخلصين والأتقياء أن يسمعوا في كل آن وحين ومكان وزمان سب عليّ وعترته.

عهد معاوية إلى حبيبه المغيرة : (ولست تاركا إيصاءك بخصلة ؟) ما هي ؟ إنها : (لا تترك شتم عليّ والوقوع فيه

والترحم على عثمان والاستغفار له)

---

(١) صحيح مسلم ٢/٣٦٠.

فإذا سمع ذلك حجر ، قال : بل إياكم ذم ولعن ، ثم قام وقال : أنا أشهد أن من تذمون أحق بالفضل ، ومن تزكون أولى بالذم ، فلما كان آخر إمارة المغيرة ، قال في عليّ وعثمان ما كان يقوله ، فقام حجر وقال له مثل ما قال ، ثم قال : مر لنا بأرزاقنا فقد حبست عنا ذلك ، وقد أصبحت بذم أمير المؤمنين (ﷺ) فقام أكثر من ثلثي الناس يقولون : صدق حجر وبر.

لم يك حجر وحده في هذا الاعتراض ، بل شاركه اسم آخر عمرو بن الحمق الخزاعي ، وأصحابهما من شيعة عليّ ، إذا سمعوا المغيرة وغيره من أصحاب معاوية ، وهم يلعنون عليا على المنبر ، يقومون فيردون اللعن عليهم ، ويتكلمون في ذلك أقل ما يكون لرد الأذى عن أمير المؤمنين.

أما عمر بن الحمق فقتل في الموصل ـ رحمه الله ـ وحملت رأسه وأهديت ، فكانت أول رأس تحمل وتهدى في الإسلام ، أما حجر فإن حاشية المغيرة طالبوه بالشدة معه ، ولكن المغيرة قال : إني قرب أجلي ، ولا أحب أن أقتل خيار هذا المصر ـ الكوفة ـ فيسعدوا وأشقى ويعز في الدنيا معاوية ، ويذل المغيرة في الآخرة.

وقد رأى في النهاية أن يرسل حجرا إلى معاوية ، فإن قتله فالوزر عليه ـ هكذا رأى المغيرة ـ وقد كان ، فقد رأى معاوية أن يقتل حجرا ، فقتل سنة ٥١ هـ.

وقد أوشكت النهاية أن تدق الأبواب سريعا هرولة ، فنتحدث عن :

وفاة المغيرة : ويضرب الطاعون الكوفة ، ويهرب المغيرة من هذا الطاعون ، يرتفع الطاعون ، يعود المغيرة إلى الكوفة ، فيموت بالطاعون في شعبان ٥٠هـ ، دفن في الكوفة في موضع يقال الثوية [1] .

(١) تاريخ الكوفة للبراقي ، ص٢٧٧.

بقيت كليمات نسطرها بعد ما عشنا مع المغيرة منذ عصر النبوة حتى مات في عصر معاوية :

<u>الكليمة الأولى</u> : يلخص معاوية القصة منذ أبي بكر وحتى عصره ، ففي لحظة صفاء وصراحة في أخريات حياته ، قال - كما جاء في تاريخ الطبري [1] - ما يلي :

- رحم الله أبا بكر ، لم يرد الدنيا ، ولم ترده.
- وأما عمر - أو قال ابن حنتمة - فأرادته الدنيا ولم يردها.
- وأما عثمان فأصاب الدنيا وأصابت منه.
- وأما نحن فتمرغنا فيها.
- ثم كأنه ندم فقال : وإنه لملك آتانا الله إياه.

<u>الكليمة الثانية</u> : إن خطوتين بالغتا الأهمية قسمت الأمة قسما وقصما الدعوة إلى التحكيم ، ثم ولاية العهد لابن معاوية ، ونحن نعيد قولة الإمام الحسن البصري مرة أخرى :

أفسد أمر الناس اثنان ، عمرو بن العاص ، يوم أشار على معاوية برفع المصاحف فحملت ، ونال من القراء ، فحكم الخوارج ، فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة ، والمغيرة بن شعبة الذي كتب إليه معاوية إذا قرأت كتابي ، فأقبل معزولا ، فلما جاء قال معاوية : ما أبطأ بك ؟ قال : أمر كنت أوطنه وأهيئه ، قال : وما هو ؟ البيعة ليزيد من بعدك ، وعندما خرج قال أصحاب المغيرة : ما وراءك ؟ قال : وضعت رجل معاوية في غرز غي لا يزال فيه إلى يوم القيامة.

---

(١) ٣٣٤/٥.

قال الحسن البصري :

فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم

ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة [١]

الكليمة الثالثة : لقد استخدم دم عثمان وقميص لمواجهة الإمام عليّ وصولا إلى الحكم ، فلما تم استنفدت القصة أغراضها ، ولم يعد للقضية محل من الإعراب ، الصحابي الجليل أبو الطفيل يقول لمعاوية : (فما منعك يا أمير المؤمنين من نصر عثمان ومعك أهل الشام؟) قال : أما طلبي بدمه نصرة له ؟ ضحك أبو الطفيل ثم قال : أنت وعثمان كما قال الشاعر :

لا ألفينك بعد الموت تندبني *** وفي حياتي ما زودتني زادا

الكليمة الرابعة : إن عليا (ﷺ) كان كثير الأعداء لكثرة وقوفه مع الحق ومناصرة الإسلام بسيفه ، وقد فتش له أعداؤه عن عيب فلم يجدوا شيئا ، ومن ثم مالوا إلى رجل حاربه فأطروه ، عاضدوه ووقروه كيادا في عليّ ، وليس حبا في هذا الآخر.

والآن نفدت الكليمات ، ووضعت الأقلام ، ولم يعد أمامنا إلا الخاتمة ، التي نسطرها فيما يلي :

(١) تاريخ الخلفاء ، ص٢٠٥.

الخاتمة

وفي هذي الخاتمة بقي في الجعبة ما يقال ، ولكن عجل يا كاتب السطور ، فقد قلت الكثير والكثير ، حبا وكرامة ، سأكتب حذرا وهرولة فأقول :

١- الصحابي من صحب الرسول ، تعلم منه ، وجاهد معه ، وأفاد منه ، مع كامل الاحترام لكل من رأى الرسول (ﷺ) ولو لمرة واحدة عابرة.

٢- هذه الصحبة لا تعطى حصانة وعصمة لهذا الصحابي أو ذاك لنبرر له كل ما صنع على إطلاقه.

٣- سب أي صحابي أو حتى المساس به محظور ممنوع محرم قطعا وشرعا ، إذا كان الله قد أمر : (وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ ... علم) الآية [1].

إذا كان سب غير المسلم ممنوع ، فما بالنا بسب المسلم ، فضلا عن الصحابي ، ومن تشرف برؤيته (ﷺ) صحبه ، تعلم وجاهد معه.

٤- إن الحركات الإسلامية على امتداد العالم العربي والإسلامي قدمت تضحيات جسام ، لكن الثمرة جاءت أقل ، ولذا فإن محاسبة الذات ومراجعة المواقف ، وعدم الجمود على حال واحدة لهو واجب شرعي لصالح الجميع في الوطن الإسلامي والعربي.

وفي كل الأحوال علينا أن ننظر إلى التاريخ الإسلامي نظرة البحث والعلم ، لا نظرة القداسة والجمود ، ولا نظرة الهجوم واتخاذ الناس غرضا.

---

(١) ١٠٨ الأنعام.

إن هذا الجيل من الصحابة (ﷺ) كان أعظم الأجيال ، فقد قدم هذا الجيل طبقا لبعض الإحصائيات ٦٠% منه شهداء ، سواء مع الرسول ، أو بعده.

هذا الجيل لا يعيبه بضعة نفر رأوا في الإسلام مصلحة وزعامة ووسيلة إلى المال والحكم والوجاهة ، أو لشيء مما سبق ، هذا ما يحدث في كل الثورات ، ومع جميع الحركات.

٥- صاحبنا المغيرة ضمن مجموعة من الرجال رسمت لنفسها أهدافا ، وتمكنت من تحقيقها بوسائلها ، وهذا ما يجب أن يتعلم منه كل إنسان ، يرسم لنفسه هدفا كبيرا يسعى إلى تحقيقه ، لكن تذكر يا مسلم ويا مسلمة أن بعد الدنيا سوف يأتي الحساب أمام من لا يغفل ، ولا ينام.

المغيرة رسم لنفسه عدة أهداف هي - في نظري - المال - الولاية - النساء ، وقد تمكن من الوصول إلى كل هذي الأهداف.

عمرو بن العاص كان هدفه مصر ، منذ عزله عثمان إلى أن عاد إليها حتى توفى عام ٤٣هـ.

معاوية رسم لنفسه هدفا أسمى هو الحكم والملك ، وقد وصل لهدفه ، وصفت له الأمور تماما عام ٤١هـ حين صالح الحسن بن عليّ.

٦- إن هذه الدولة أنشأها معاوية ، هذا صحيح ، إلا أن هذه الدولة لا توصف بأنها أموية ، برغم أن المؤسس أموي قطعا ، لكنها توصف بأنها أموية - مروانية ؛ فقد حكم معاوية إلى أن توفى ٦٠هـ ، ثم يزيد ابنه أربع سنوات إلى ٦٤هـ ، ثم معاوية الثاني ٤٠ يوما من عام ٦٤هـ ، ثم انتهت مروانية ، بدأها مروان بن الحكم حتى عام ١٣٢هـ آخر حكام بني أمية ، بعدها جاء العصر العباسي ، أو

الدولة العباسية التي بقيت حتى سقطت على يد المغول.

٧- إن رسول الله (ﷺ) قد تحمل هم أمته حيا وفي قبره ، لقد ذكر (ﷺ) كثيرا من الحوادث المهمة التي وقعت بعد وفاته (ﷺ) مثل ما يكون من مروان وأبنائه ومن سيقتل عمار بن ياسر ومقتل الإمام عليّ ... الخ وكل هذا كان وحيا وإخبارا من الله (ﷻ) أوحاه إلى نبيه (ﷺ) وما قاله الإمام عليّ في هذا الشأن مثل قِصَر مدة حكم مروان ، هذا أيضا جاء عن طريق محمد (ﷺ).

٨- إن الأمة وعلماء الأمة لم يخفوا شيئا مما كان برغم شدة القهر والبطش من بعض الحكام ، وقالت الحقيقة كاملة كاملة ، ولذا فإن باب الدراسة مفتوح على مصراعيه ، شرط أن لا تفسده الفكر المسبقة ، والتمسك بقدسية كل من أسلم أمام الرسول (ﷺ) ورآه ، وتبرير كل شيء فعل ، وعدم التطرق إلى شيء من فعاله ، فضلا عن انتقادها أو الحكم عليها.

والعكس غير صحيح أن تنطلق من فكرة مسبقة وموقف سابق من هذه الشخصية أو تلك ، كلا ، بل تكون الدراسة موضوعية مجردة ، وخالصة لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

أحمد مصطفى أبوالخير
جامعة المنصورة

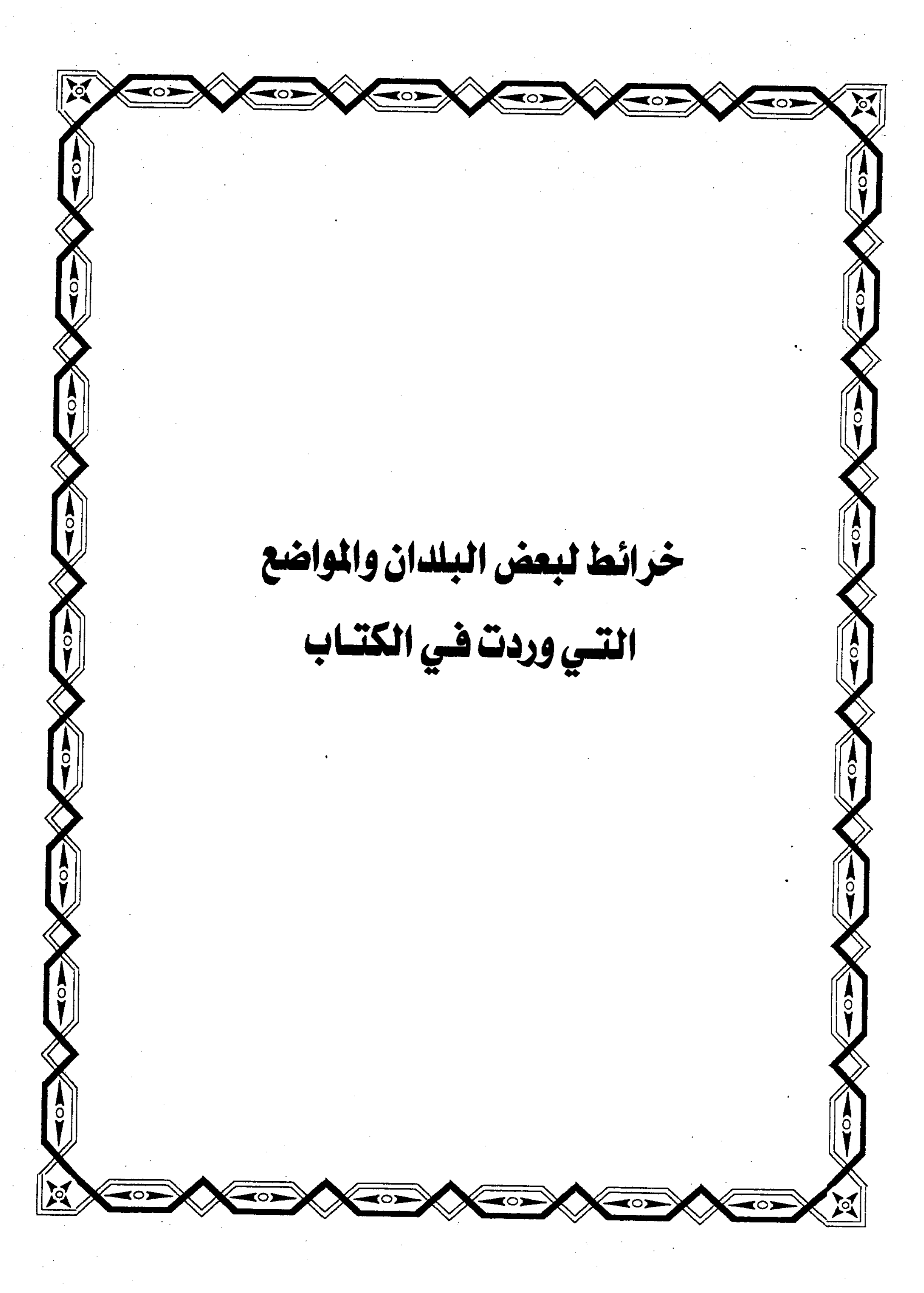
تواريخ مهمة

الخلفــاء الأمويــون
والمروانيون [1] من بني الحكم

١ـ معاوية بن أبي سفيان	٤١ ـ ٦٠ هـ	(٦٦١ ـ ٦٧٩)
٢ـ يزيد بن معاوية	٦٠ ـ ٦٤ هـ	(٦٧٩ ـ ٦٨٣)
٣ـ معاوية الثاني	٦٤هـ (ربيع الأول إلى جمادى الثانية)	(٦٨٣ ـ ٦٨٤)
٤ـ مروان بن الحكم	٦٤ ـ ٦٥ هـ	(٦٨٤ ـ ٦٨٥)
٥ـ عبد الملك بن مروان	٦٥ ـ ٨٦ هـ	(٦٨٥ ـ ٧٠٥)
٦ـ الوليد بن عبد الملك	٨٦ ـ ٩٦ هـ	(٧٠٥ ـ ٧١٥)
٧ـ سليمان بن عبد الملك	٩٦ ـ ٩٩ هـ	(٧١٥ ـ ٧١٧)
٨ـ عمر بن عبد العزيز	٩٩ ـ ١٠١ هـ	(٧١٧ ـ ٧٢٠)
٩ـ يزيد (الثاني) بن عبد الملك	١٠١ ـ ١٠٥ هـ	(٧٢٠ ـ ٧٢٤)
١٠ـ هشام بن عبد الملك	١٠٥ ـ ١٢٥ هـ	(٧٢٤ ـ ٧٤٣)
١١ـ الوليد (الثاني) بن يزيد (الثاني)	١٢٥ ـ ١٢٦ هـ	(٧٤٣ ـ ٧٤٤)
١٢ـ يزيد (الثالث) بن الوليد بن عبد الملك	١٢٦ هـ	
	(٧٤٤ أبريل ـ سبتمبر) (جمادى الآخرة ـ ذي الحجة)	
١٣ـ إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	١٢٦ ـ ١٢٧ هـ	(٧٤٤)
١٤ـ مروان (الثاني) بن محمد	١٢٧ ـ ١٣٢ هـ	(٧٤٤ ـ ٧٤٩)
١٥ـ ولاية المغيرة على البصرة في عهد عمر	١٥ ـ ١٧ هـ	

(١) الخلافة والدولة ... ص٣٠٧.

١٦ـ قدوم الهرمزان على عمر	١٧ هـ	
١٧ـ ولاية المغيرة على الكوفة في عهد عمر حتى مات	٢٣هـ	(٢١ ـ ٢٣ هـ)



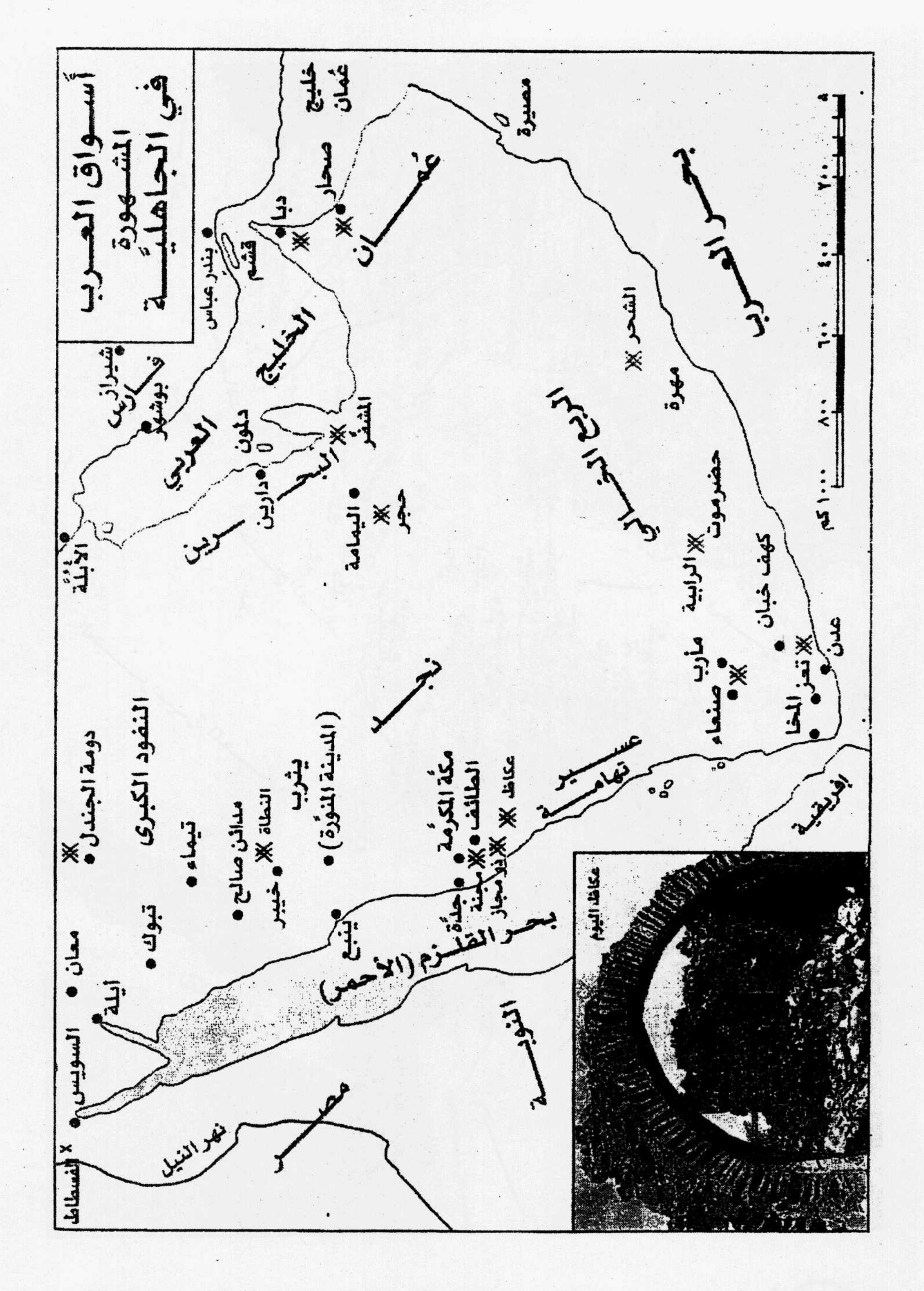
خرائط لبعض البلدان والمواضع التي وردت في الكتاب

المحتويات

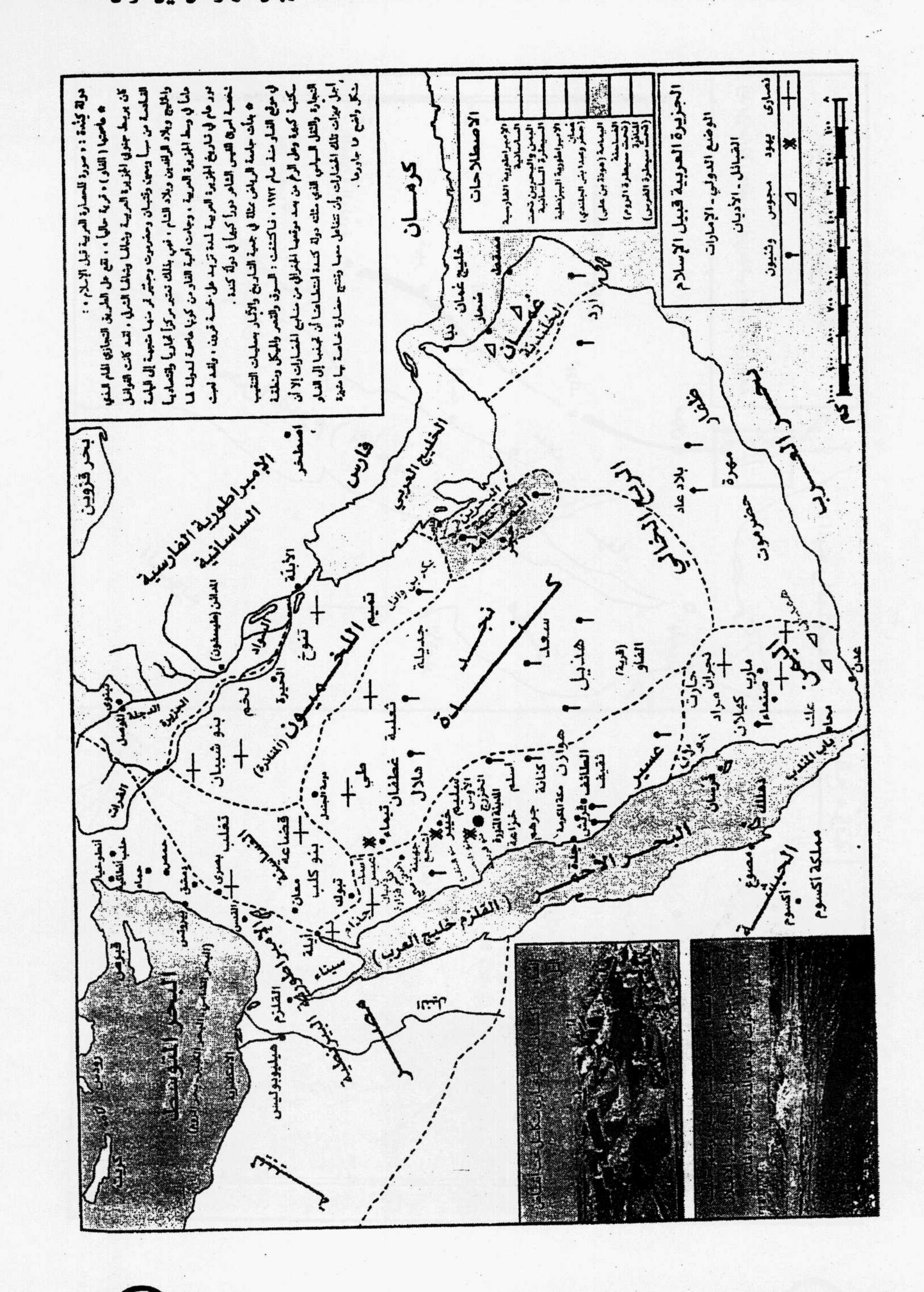
- الإهداء ٣
- مدخل إلى الموضوع ٥
- بطاقة تعريف ١٩
- رحلة المغيرة إلى مصر ٢٢
- دهاة العرب ٣٠
١- عبد الله بن بديل ٣١
٢- قيس بن سعد ٣٣
٣- عمرو بن العاص. ٣٤
٤- زياد بن أبيه ٣٦
- دهاء المغيرة ٣٧
أولا - عصر النبوة ٤١
ثانيا - عصر أبي بكر ٥٢
ثالثا - عصر عمر ٥٥
- مقتل عمر بن الخطاب ٨٧
رابعا - عصر عثمان ١٢٣
- نذر العاصفة ١٥٢
- مقتل الخليفة ١٦١
خامسا - عصر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. ١٧١
- فاجعة الجمل ١٨٧
- خروج أم المؤمنين ١٨٩
أسر مروان بن الحكم ١٩٤
- مقتل طلحة والزبير ١٩٥

- خطوتان في طريق كسب الصراع.................................... ١٩٥
١ـ هدنة مع البيزنطيين.................................... ١٩٥
٢ـ التحالف مع عمرو بن العاص.................................... ١٩٦
- موقعة صفين.................................... ١٩٧
- التحكيم.................................... ٢٠٠
- عمار يزول مع الحق.................................... ٢٠٢
- الحراس والاغتيال.................................... ٢١٦
- الصرف والنحو.................................... ٢١٩
- سب الإمام عليّ.................................... ٢٢٢
سادسا : عصر معاوية.................................... ٢٢٩
- أبو سفيان.................................... ٢٣٥
- حنفاء بني أمية.................................... ٢٤٧
- سب عليّ وأبنائه.................................... ٢٧٢
- وفاة المغيرة.................................... ٢٧٥
- الخاتمة.................................... ٢٧٩
- تواريخ مهمة.................................... ٢٨٣
- خرائط لبعض البلدان والمواضع التي وردت في الكتاب.................................... ٢٨٥
- المحتويات.................................... ٢٩١

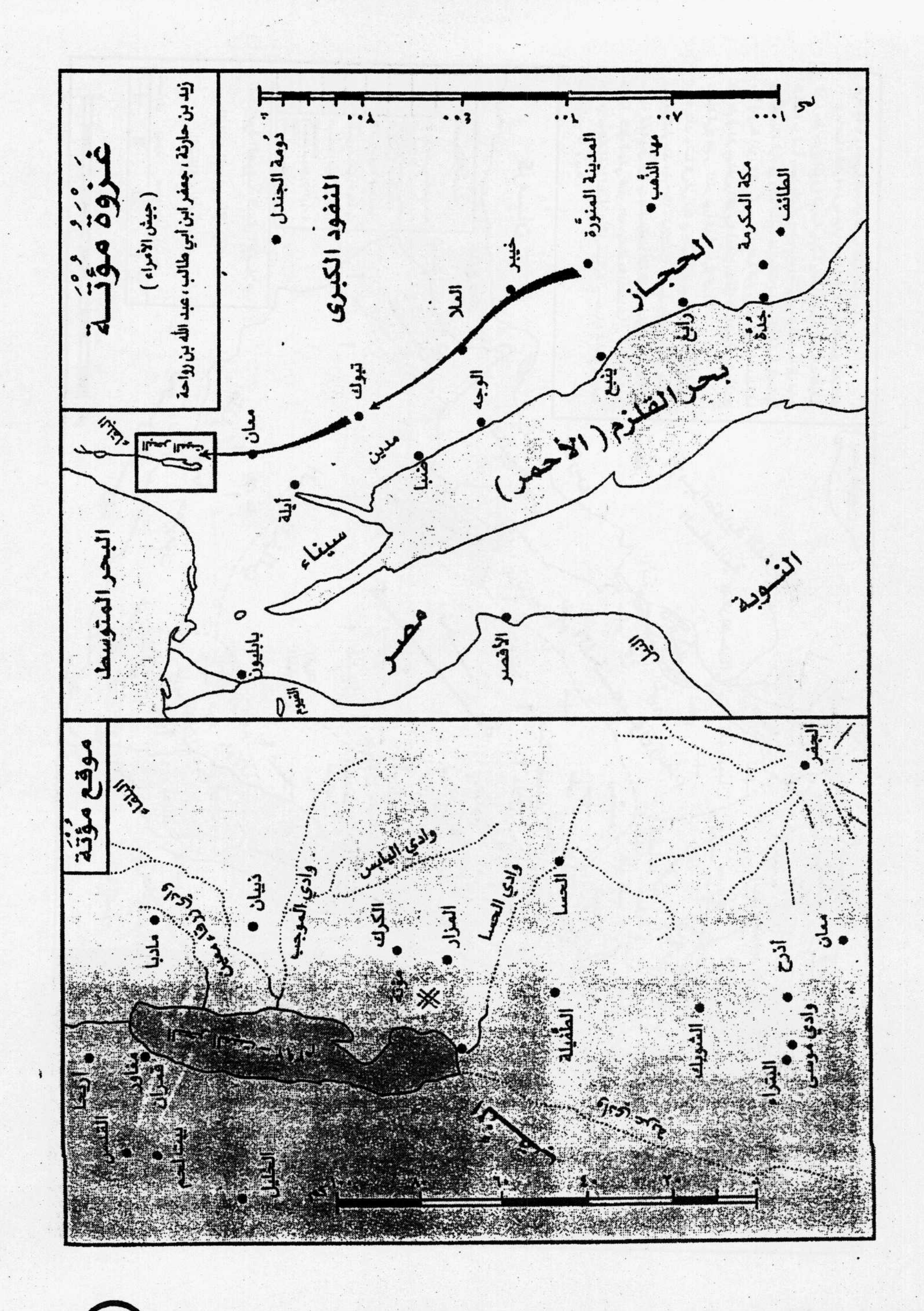

بحر الخزر
الخليج العربي
الجزيرة العربية
بحر القلزم
خليج عمان
بحر العرب



أسواق العرب المشهورة في الجاهلية
الخليج العربي
بحر القلزم (الأحمر)
بحر العرب
الربع الخالي
نجد
عمان
البحرين
مصر
النوبة
إفريقية
تهامة
عسير
دومة الجندل
النفود الكبرى
تيماء
تبوك
معان
أيلة
السويس
الفسطاط
نهر النيل
خيبر
مدائن صالح
يثرب (المدينة المنورة)
ينبع
جدة
مكة المكرمة
الطائف
عكاظ
اليمامة
حجر
دارين
المشقر
هجر
الأبلة
بوشهر
شيراز
فارس
بندر عباس
قشم
دبا
صحار
خليج عمان
مصيرة
الشحر
مهرة
حضرموت
الرابية
مأرب
صنعاء
عدن
المخا
كهف خبان
عكاظ اليوم



الجزيرة العربية قبيل الإسلام
الوضع الدولي، الإمارات
القبائل، الأديان
الاصطلاحات
نصارى
يهود
مجوس
وثنيون
الإمبراطورية الفارسية
الساسانية
فارس
كرمان
بحر قزوين
الخليج العربي
خليج عمان
البحر الأحمر
(القلزم خليج العرب)
البحر المتوسط
الحبشة
مملكة أكسوم
سيناء
هليوبوليس
الفرات
الدجلة
نجد
تهامة
عسير
حضرموت
مهرة
بلاد عاد
هذيل
سعد
غطفان
تيماء
بنو كلب
قضاعة
تغلب
بنو شيبان
تنوخ
هوازن
كنانة
جرهم
الطائف
مأرب
صنعاء
عدن
باب المندب


غزوة مؤتة
(جيش الأمراء)
زيد بن حارثة، جعفر بن أبي طالب، عبد الله بن رواحة
النفود الكبرى
دومة الجندل
المدينة المنورة
مهد الذهب
مكة المكرمة
الطائف
الحجاز
خيبر
العلا
تبوك
الوجه
معان
مدين
أيلة
سيناء
البحر المتوسط
بابليون
مصر
الأقصر
النيل
النوبة
بحر القلزم (الأحمر)
ينبع
رابغ
جدة
موقع مؤتة
ذيبان
ماديا
وادي الموجب
وادي اليابس
الكرك
مؤتة
المزار
وادي الحسا
الحسا
الطفيلة
الشوبك
البتراء
وادي موسى
أذرح
معان
الجفر
أريحا
القدس
بيت لحم
الخليل